

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU 190075

UNIVERSAL
LIBRARY

كلام
تيسير صلاح الدين

— ❖ الأيوبي ❖ —

— ❖ المسماة ❖ —

❖ بالمواد الساطانية والحاسن الیوسفية ❖



❖ تأليف ❖

القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد
(المذوف سنة ٦٣٢ هجرية)

❖ وفي ذبته منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماد ❖
(تأليف تاج الدين شاهنشاه ابن أبوب رحمه الله)

❖ طبع في مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ ❖

❖ على نفقة شركة طبع الكتب العربية بمصر ❖

٥٠- فهرست كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي المسمي ﴿٥٠﴾

٥١- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

صحيفة

٣ الخطبة

٤ ﴿٥٠﴾ القسم الاول في ذكر مولده وأوصافه وشماله ﴿٥٠﴾

٥ ذكر مواظبته على القواعد الدينية

١٠ ذكر عدله رحمه الله

١٣ ذكر طرف من كرمه

١٤ ذكر شجاعته

١٦ ذكر اهتمامه بأمر الجهاد

١٨ ذكر صبره واحتسابه

٢١ ذكر نبذ من حلمه

٢٤ ذكر محافظته على أسباب المروءة

٢٨ ﴿٥٠﴾ القسم الثاني في بيان تقلبات أحواله وفتوحاته ﴿٥٠﴾

٢٩ ذكر عودته الى مصر في واقعة البابين

٣٠ ذكر عودته الى مصر مرة أخرى

٣٢ ذكر وفاة أسد الدين ومصير الامر الى السلطان صلاح الدين

٣٣ ذكر قصد الافرنج دمياط

٣٤ ذكر طلبه والده

٣٥ ذكر موت العاضد

صحيفة

- ٣٦ ذكر أول غزوة غزاها من مصر
- ٣٦ وفاة والده نجم الدين
- ٣٧ وفاة نور الدين محمود زنكي
- ٣٧ مناقشة الكندي باسوان
- ٣٨ قصد الافرنج ثغر الاسكندرية
- ٣٨ ذكر خروج السلطان الى الشام وأخذ دمشق
- ٣٩ ذكر تسيير سيف الدين أخاه عز الدين الى لقائه
- ٤٠ ذكر مسير سيف الدين بنفسه
- ٤٢ ذكر كسرة الرملة
- ٤٣ ذكر عودة السلطان الى الشام
- ٤٤ ذكر وفاة الملك الصالح ووصول عز الدين الى حلب
- ٤٤ ذكر متابعة عز الدين أخاه عماد الدين بالبلاد
- ٤٥ ذكر عود السلطان الى مصر ورجوعه منها الى حلب
- ٤٦ ذكر نزوله علي الموصل
- ٤٦ ذكر قصة شاه أرمن صاحب خلاط.
- ٤٧ ذكر عود السلطان الى الشام
- ٤٨ ذكر غزاة عين جالوت
- ٥٠ ذكر غزاة أنشأها الى الكرك
- ٥١ ذكر اعطائه أخاه الملك العادل الى حلب
- ٥٢ ذكر التحاق القاضي بن شداد (مؤلف هذا الكتاب) بخدمة السلطان

- ٥٢ ذكر غزاة أخرى الى الكرك
- ٥٤ ذكر خروج السلطان الي الموصل مرة ثانية
- ٥٥ ذكر موت شاه أرمن صاحب خلاط
- ٥٦ ذكر صلح المواصلة مع السلطان
- ٥٧ ذكر عود السلطان الي الشام
- ٥٨ ذكر مسير الملك العادل الي مصر ووصول الملك الظاهر الي حلب
- ٥٩ ذكر غزاة أنشأها الي الكرك
- ٦٠ ذكر وقعة حطين
- ٦٥ ذكر فتوح القدس الشريف
- ٦٧ ذكر قصده صور
- ٦٨ ذكر كسره الاسطول
- ٦٨ ذكر نزوله على كوكب
- ٧٠ ذكر دخوله الساحل الاعلى وأخذه اللاذقية وجبله وغيرها
- ٧٢ ذكر فتوحه جبله واللاذقية
- ٧٣ ذكر فتوح صهيون
- ٧٤ ذكر فتوح بكاس
- ٧٥ ذكر فتوح برزيه
- ٧٦ ذكر فتوح دربساك
- ٧٧ ذكر فتوح بغراس
- ٧٨ ذكر فتح صفد

- ٧٨ ذكر فتوح كوكب
٧٩ ذكر توجه السلطان الى شقيف
٨٠ ذكر اجتماع الافرنج بقصد عكا
٨١ ذكر الواقعة التي استشهد فيها ابيك الاخرش
٨٢ ذكر وقعة ثانية استشهد فيها جماعة من المسلمين
٨٣ ذكر مسير جريدة الى عكا
٨٣ ذكر وقعة أخرى
٨٥ ذكر أصحاب الشقيف وسبب ذلك
٨٧ ذكر واقعة عكا
٨٩ ذكر فتح الطريق الى عكا
٩٠ ذكر تأخر الناس الى تل العياضية
٩١ ذكر وقعة جرت للعرب مع العدو
٩٢ ذكر المصاف الاعظم على عكا
٩٨ ذكر وصول خبر الألمان
٩٩ ذكر وقعة الرمل التي على جانب نهر عكا
١٠٠ ذكر وفاة الفقيه عيسى
١٠٠ ذكر تسليم الشقيف سنة ١٦
١٠١ ظريفة
١٠١ ذكر وصول رسول الخليفة
١٠٣ لطيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر

- ١٠٤ ذكر وصول عماد الدين زنكي صاحب سنجار
- ١٠٦ ذكر خبر ملك الالمان
- ١٠٧ صورة كتاب الكايفكوس الارمني
- ١٠٧ ذكر مسير العساكر الى اطراف البلاد
- ١٠٩ ذكر طريق ملك الألمان
- ١١٠ ذكر تمام خبر ملك الالمان
- ١١١ ذكر وقعة العادلية
- ١١٥ ذكر وصول الكندهري
- ١١٥ ذكر كتاب وصل من القسطنطينية
- ١١٧ ذكر حريق المنجنيقات
- ١١٩ ذكر حيلة في ادخال المؤنة الى عكا وهي محصورة
- ١٢٠ ذكر قصة العوام عيسى
- ١٢٠ ذكر حريق المنجنيقات
- ١٢١ ذكر تمام حديث ملك الالمان والحيلة التي عملها المركز
- ١٢٢ ذكر وصول البطس من مصر
- ١٢٣ ذكر محاصرة برج الذباب
- ١٢٤ ذكر وصول ملك الالمان الى عسكرهم
- ١٢٦ ذكر حريق برج الكبش
- ١٢٩ ذكر قصة معز الدين
- ١٣١ ذكر طلب عماد الدين الدستوري

- ١٣٢ خروج العدو الي رأس الماء
 ١٣٦ ذكر وقعة الكمين
 ١٣٧ ذكر عود العسكر عن الجهاد
 ١٣٨ ذكر اتحاد السلطان لادخال البدل الى البلد
 ١٤٠ ذكر الظفر بمراكب العدو
 ١٤٠ ذكر موت ابن ملك الألمان
 ١٤١ ذكر غارة أسد الدين
 ١٤١ ذكر وقائع عدة في هذه السنة
 ١٤٢ ذكر وصول العساكر الاسلامية والملك افرنسيس
 ١٤٣ ذكر نادرة وبشارة
 ١٤٤ ذكر ملك الانكتار
 ١٤٥ ذكر قصة الرضيع
 ١٤٦ ذكر انتقال السلطان الى تل العياضية
 ١٤٧ ذكر الشروع في مضايقة البلد
 ١٤٨ ذكر وصول الانكتار
 ١٤٨ غرق البطسة الاسلامية
 ١٤٩ ذكر حريق الدبابة
 ١٥٠ وفعات عدة
 ١٥٢ ذكر هرب المريكيس الى صور
 ١٥٣ ذكر وصول بقية عساكر الاسلام

- ١٥٣ ذكر وصول رسولهم الي السلطان
 ١٥٥ ذكر قوة زحفهم على البلد ومضايقته
 ١٥٧ ذكر ما آل اليه أمر البلد من الضعف
 ١٥٩ ذكر كتب وصلت من البلد
 ١٦٠ ذكر مصالحة أهل البلد ومصانعتهم
 ١٦١ ذكر استيلاء العدو على عكا
 ١٦٢ ذكر وقعة جرت في أثناء ذلك
 ١٦٣ ذكر خروج ابن باريك
 ١٦٤ ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بعكا
 ١٦٥ مسير العدو الي عسقلان
 ١٧٢ ذكر وقعة جرت
 ١٧٣ ذكر مراسلة جرت في ذلك اليوم
 ١٧٤ ذكر اجتماع الملك العادل والانكثار
 ١٧٥ ذكر واقعة ارمون
 ١٨٢ ذكر رحيل السلطان الي الرملة
 ١٨٣ ذكر وصول رسول المراكيس
 ١٨٤ ذكر مسير الملك العادل الي القدس
 ١٨٥ ذكر أخبار يرك كان على عكا
 ١٨٦ ذكر رسول الملك العادل الي الانكثار
 ١٨٧ ذكر هرب شركوه ابن باخل الكردي من عكا

- ١٨٨ ذكر ايفاد ابن شداد من الملك العادل الى السلطان
 ١٧٩ ذكر عود الرسول الى الانكتار بالجواب
 ١٩٠ ذكر خروج الافرنج من يافا
 ١٩١ ذكر وفاة تقي الدين الملك المظفر
 ١٩١ ذكر كتاب وصل من بغداد
 ١٩٣ ذكر وصول صاحب صيدا رسولا من جانب المرکيس
 ١٩٣ ذكر واقعة الكمين الذي استشهد فيه اياس المهرني
 ١٩٤ ذكر اجتماع الملك العادل والانكتار
 ١٩٥ ذكر الرسالة التي انفذها الانكتار الى السلطان
 ١٩٥ ذكر حضور صاحب صيدا بين يدي السلطان
 ١٩٦ ذكر وصول رسول الانكتار الى السلطان
 ١٩٧ التخيير بين الصلحين مع الانكتار أو المرکيس
 ١٩٨ ذكر رحيل السلطان الى تل الجزر
 ١٩٩ ذكر مسير الملك العادل
 ٢٠٠ ذكر انفصال رسول المرکيس
 ٢٠١ ذكر خروج سيف الدين المشطوب من الاسر
 ٢٠٢ ذكر عود رسول صور
 ٢٠٢ ذكر قتل المرکيس
 ٢٠٣ ذكر تمة خبر الملك المنصور
 ٢٠٣ ذكر قدوم رسول ملك الروم

- ٢٠٤ ذكر ما جرى للملك العادل بين بلاد الفرات
- ٢٠٤ ذكر استيلاء الافرنج على الدارون
- ٢٠٥ ذكر قصد الافرنج مجدل يابا
- ٢٠٥ ذكر وقعة جرت في صور
- ٢٠٦ ذكر قدوم العساكر الاسلامية للجهاد
- ٢٠٦ ذكر تعبئة العدو لقصد القدس الشريف
- ٢٠٧ ذكر نزول الافرنج بيت نوبة بالقرب من القدس
- ٢٠٨ » أخذ العدو قافلة مصر
- ٢١١ » قدوم الملك الافضل
- ٢١٢ » عود العدو الى بلادهم وسبب ذلك
- ٢١٥ » رسالة الكنديهري
- ٢١٦ » عود رسول الافرنج في معنى الصلح
- ٢١٧ » عود رسول الافرنج تانيا
- ٢١٨ » عود الرسول
- ٢١٩ » تبريز السلطان
- ٢٢٠ » حصار يافا
- ٢٢٢ » فتح يافا
- ٢٢٤ » كيفية بقاء القامة في يد العدو
- ٢٢٧ » حديث الصلح
- ٢٣٠ » قدوم العساكر

	صفحة
» قدوم الملك المنصور بن تقي الدين	٢٣١
» رحيل الملك المنصور الى الرملة	٢٣٢
» الاجابة الى النزول عن عسقلان	٢٣٣
» تمام الصلح	٢٣٥
» خراب عسقلان	٢٣٧
» عود العساكر الاسلامية الي اوطانهم	٢٣٩
» وصول رسول من بغداد	٢٣٩
» توجه الملك الظاهر الي بلاده	٢٤٠
» مسير السلطان الي القدس الشريف	٢٤١
» عود السلطان الي دمشق	٢٤٣
» قدوم الملك العادل	٢٤٤
» لقاء السلطان للحاج	٢٤٥
» مرض السلطان	٢٤٦
» تحليف الملك الافضل الامراء والوزراء	٢٤٨
» وفاة السلطان	٢٤٩



﴿ فهرست الذيل من منتخبات التاريخ لصاحب حماة ﴾

صحيفة

- ٢٥٣ ذكر قتل الصالح ابن رزبك
 ٢٥٣ ذكر ولاية شاور ثم الدرغام
 ٢٥٤ حوادث سنة ٥٥٩
 ٢٥٦ ذكر ابتداء الدولة الايوبية
 ٢٦٣ اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية
 ٢٦٧ ذكر ملك شمس الدين توران شاه ابن أيوب لليمن
 ٢٦٧ ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمن
 ٢٦٩ ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر
 ٢٦٩ ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها
 ٢٧٢ ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل
 ٢٧٦ ذكر وفاة المستضيء وخلافة الامام الناصر
 ٢٧٧ ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل
 ٢٧٨ ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب
 ٢٧٩ ذكر مسير السلطان صلاح الدين الى الشام
 ٢٧٩ ذكر ارسال سيف الاسلام الي اليمن
 ٢٨٠ ذكر غارات السلطان صلاح الدين وما أخذه من البلاد
 ٢٨١ ذكر حوادث حجة
 ٢٨٢ ذكر ما ملكه السلطان صلاح الدين من البلاد
 ٢٨٤ ذكر غير ذلك من الحوادث
 ٢٨٥ ذكر غزو السلطان الكرك
 ٢٨٦ ذكر حصار السلطان الموصل
 ٢٨٦ ذكر ملك السلطان ميفارقين
 ٢٨٧ ذكر نقل الملك العادل من حلب واخراج الملك الافضل من مصر
 ٢٨٨ ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل

صحيفة

- ٢٨٩ ذكر غزوات السلطان وفتوحاته في سنة ٥٨٣
٢٨٩ ذكر واقعة حطين
٢٩٦ ذكر حصار الافرنج عكا وغير ذلك من الحوادث
٢٩٩ ذكر استيلاء الافرنج على عكا
٣٠٠ ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر
٣٠٣ عقد الهدنة مع الافرنج
٣٠٥ ذكر وفاة عز الدين صاحب بلاد الروم
٣٠٨ ذكر وفاة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب
٣١٠ ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان

﴿ تم ﴾



كُتَابُ سَيِّدِ صِلَاحِ الدِّينِ

— ❦ الأيوبي ❦ —

— ❦ المسماة ❦ —

❦ بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ❦

— ❦ ❦ ❦ ❦ —

❦ تأليف ❦

(القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد)

(المتوفي سنة ٦٣٢ هجرية)

❦ وفي ذيله منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماء ❦
[تأليف تاج الدين شاهنشاه ابن أيوب رحمه الله]

❦ طبع في مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ ❦

❦ على نفقة شركة طبع الكتب العربية بمصر ❦



- ﴿ قرر مجلس ادارة (شركة طبع الكتب العربية في مصر القاهرة) بجلسة ﴾
﴿ يوم الخميس ٦ صفر سنة ١٣١٧ طبع كتاب سيرة السلطان يوسف ﴾
﴿ صلاح الدين الأيوبي المسماة (النوادر السلطانية * والمحاسن *
﴿ اليوسفية) تأليف العلامة القاضي بهاء الدين ابن شدّاد . وذلك لان ﴾
﴿ هذا السلطان العظيم أكبر مجدد لمجد الاسلام في اثر غارات الصليبيين ﴾
﴿ الكبرى على البلاد الاسلامية . ولان هذا الكتاب الجليل من ﴾
﴿ أضبط الكتب التي اشتملت على تاريخ حياة ذلك المجدد العظيم ﴾



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الحمد لله) الذي منّ علينا بالاسلام * وهدانا بالايان الجارى على أحسن نظام * وأنم علينا بشفاعة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام * وجعل سير الأولين عبرة لأولى الأفهام * وتقبلت الاحوال قاضية على كل أمر حادث بالانصرام * كبلا يفتترّ ذو جمال حسن ولا ييأس من لعبت بأحواله أكف السقام (وأشهد) أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشفى القلوب من لظى الأوام (وأشهد) أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي فنيح للهداية أبوابا يابج المستفتحون لها بمفاتيح الانقياد والاستسلام * صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة بقاء الأيام * وبعد * فاني لما رأيت أيام مولانا السلطان * الملك الناصر جامع كلمة الايمان * وقامع عبدة الصلبان * رافع علم العدل والاحسان * صلاح الدنيا والدين * سلطان الاسلام والمسلمين * منمذيت المقدس من أيدي المشركين خادم الحرمين الشريفين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شاذى سقى الله ضريحه صوب الرضوان * وأذاقه فى مقرّ رحمته حللوة نتيجة الايمان * قد صدقت من أخبار الاولين ما كذبه الاستبعاد * وشهدت بالصحة لما روى من نوادر الكرام الاجواد * وحققت وقوات شجعان مما ليكها ما قدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان * ورأيت بالعيان من الصبر على المكاره فى ذات الله ما قوي بها الايمان * وعظمت عجائبها عن أن يحيط بها خاطر أو يجنّها جنان * وجلت نوادرها أن تحد بيان لسان * أو أن تسطر فى طرس

ببنان * وكانت مع ذلك من قبيل لا يمكن الحبير بها اخفاؤها * ولا يسع
المطلع عليها الا أن تروي عنه أخبارها وأباؤها * ومسنى من رق نعمتها * وحق
محبته وواجب خدمتها * ما يجب على به إبداء ما حققت من حسناتها * ورواية
ما علمت من محاسن صفاتها. (رأيت) أن أختصر من ذلك على ما أملاه على
العيان * أو الخبر الذي يقارب مضمونه درجة الايقان * وذلك جزء من كل
* وقل من جل * ليستدل بالقليل على الكثير * وبالشماع على المستطيل بعد
المستطير * وسميت هذا المختصر من تاريخها ﴿ النوادر السلطانية * والمحاسن
اليوسفية ﴾ وجعلته قسمين أحدهما في مولده رحمه الله ومنشئه وخصائصه
وأوصافه وأخلاقه المرضية * وشمائله الراجعة في نظر الشرع الوافية * والقسم
الثاني في تقلبات الاحوال به ووقائمه وفتوحه * وتواريخ ذلك أيام حياته قدس
الله روحه * والله المستعان في الصيانة عن هفوات اللسان والقلم * وجريان
الخطار بما فيه مزلة القدم * وهو حسبي ونعم الوكيل

— ﴿ القسم الاول في ذكر مولده وخصائصه وأوصافه ﴾ —

﴿ وشمائله وخلالله رحمة الله عليه ﴾

كان مولده رحمه الله على ما بلغنا من السنة الثقات الذين تبعوه حتى بنوا عليه تسيير
مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم في شهور سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة
وذلك بقاعة تكريت * وكان والده أيوب بن شاذي رحمه الله تعالى واليا بها وكان
كريمياً اريحياً حلماً حسن الاخلاق مولده ببدوين ثم اتفق له الانتقال من
تكريت الى الموصل المحروسة وانتقل ولده المذكور معه وأقام بها الى أن
ترعرع وكان والده يحترما هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي

واتفق لوالده الانتقال الى الشام وأعطي ببلبك وأقام بها مدة فنقل ولده المذكور الى ببلبك المحروسة وأقام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره ويرتضع ندى محاسن أخلاقه حتى بدت منه أمارات السعادة * ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة * فقدّمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى وعوّل عليه ونظر اليه وقربه وخصّصه * ولم يزل كلما تقدم قدما تبدو منه أسباب تقتضى تقديمه الى ما هو أعلى منه حتى بدا لعمه أسد الدين رحمه الله الحركة الى مصر المحروسة وذهابه اليها . وسيأتي بيان ذلك مفصلاً مبيناً ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية ﴾
﴿ وملاحظته للامور الشرعية ﴾

ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج الى بيت الله الحرام * وكان رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم واكابر الفقهاء وفهم من ذلك ما يحتاج الى تفهمه بحيث كان اذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وان لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه * غير مارق سهم النظر الى التعطيل والتقوية جارية على نمط الاستقامة موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند اكابر العلماء * وكان قد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج اليه في هذا الباب . وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من

اولاده حتى ترسخ في اذهانهم في الصغر ورأته وهو يأخذها عليهم وهم يلقونها من حفظهم بين يديه*

(وأما الصلاة) فانه كان رحمه الله تعالى شديد المواظبة عليها بالجماعة حتى انه ذكر يوماً أن له سنين ماضى الاجماعة . وكان ان مرض يستدعى الامام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلى جماعة . وكان يواظب على السنن الرواتب . وكان له صلوات يصلها اذا استيقظ في الليل والا تي بها قبل صلاة الصبح ولم يكن يترك الصلاة مادام عقله عليه . ولقد رأته قدس الله روحه يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً وما ترك الصلاة الا في الايام الثلاثة التي تعيب فيها ذهنه . وكان اذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى

(وأما الزكاة) فانه مات رحمه الله تعالى ولم يحفظ ما يجب عليه به الزكاة (وأما صدقة النفل) فانها استرقت جميع مملكته من الاموال فانه ملك ما ملك ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة الا سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرما واحدا ذهباً ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الاملاك

(وأما صوم رمضان) فانه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة وكان القاضي الفاضل قد تولى ثبت تلك الايام وشرع رحمه الله في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها وقد واظب على الصوم مدة حتى بقيت عليه فوائت رمضانين شغلته الامراض وملازمة الجهاد عن قضائها ومع كون الصوم لا يوافق زواجه الهمة الله تعالى الصوم وأقدر على ما قضاه من تلك الفوائت فكان يصوم وانا أثبت الايام التي يصومها لان القاضي كان غائباً وكان الطيب يلومه وهو لا يسمع ويقول

لا أعلم ما يكون فكانه كان ملهما ما يراد به رحمه الله تعالى
(وأما الحج) فانه كان لم يزل عازما عليه وناويا له سيما في العام الذي توفي فيه
فانه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب وعملنا الرفادة ولم يبق إلا المسير فاعتاق
عن ذلك بسبب ضيق الوقت وخلو اليد عما يليق بأمثاله فأخر الى العام
المستقبل ففضى الله ما قضى وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام *
وكان رحمه الله تعالى يحب سماع القرآن العظيم ويستجيد إمامه ويشترط أن
يكون عالماً بعلم القرآن العظيم متقناً لحفظه . وكان يستقريء من يحرسه في
الليل وهو في برجه الجزئين والثلاثة والأربعة وهو يسمع . وكان يستقريء وهو
في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك . ولقد
اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فقربه وجعل
له حظاً من خاص طعامه ووقف عليه وعلى أبيه جزءاً من مزرعة *

وكان رحمه الله تعالى خاشع القلب رقيقه غزير الدمعة اذا سمع القرآن يخشع
قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته . وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع
الحديث ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير فان كان ممن يحضر
عنده استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده
ومما ليك المختصين به . وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث اجلاباً
له * وان كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن
الحضور في مجالسهم سعى اليه وسمع عليه * تردد الى المحافظ الا صفهاني
بالاسكندرية حرسها الله تعالى وروي عنه أحاديث كثيرة

وكان رحمه الله تعالى يحب أن يقرأ الحديث بنفسه وكان يستحضرني في
خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث ويقرأها هو فإذا مرّ بحديث فيه

عبرة رقّ قلبه ودمعت عينه

وكان رحمة الله عليه كثير التعظيم لشعائر الدين يقول ببعث الاجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار مصدقا بجميع ما وردت به الشرائع منشرحاً بذلك صدره مبنغضاً للفلاسفة والمعتلة ومن يعاند الشريعة * ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر أعز الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي قيل عنه انه كان معاندا للشرائع مبطلا وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمره بقتله فطلبه أياما فقتله

وكان قدس الله روحه حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الانابة اليه . ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه . وذلك أن الفرنج خذلهم الله كانوا نازلين بيت نوبة وهو موضع قريب من القدس الشريف حرسها تعالى الله بينهما بعض مرحلة وكان السلطان بالقدس وقد أقام يزكا على المدو محيطا به وقد سير اليهم الجواسيس والمخبرين فتواصلت الاخبار بقوة عزهم على الصعود الي القدس ومحاصرته وتركيب القنابل عليه واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك فاستحضر الأمراء وعرفهم ما قددم المسلمون من الشدة وشاورهم في الاقامة بالقدس فأثابا بمعاملة باطنها غير ظاهرها وأصرّ الجميع على أنه لا مصلحة في اقامته بنفسه فانها مخاطرة بالاسلام وذكروا أنهم يقصدونهم ويخرج هو رحمه الله بطائفة من العسكر يكون حول المدو كما كان الحال بمكا ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصرّ على أن يقيم بنفسه علما منه انه ان لم يقيم لم يقيم

أحد فلما انصرف الامراء الى بيوتهم جاء من عندهم من أخبر أنهم لا يقيمون الا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده حتى يكون هو الحاكم عليهم والذي يأتمرون بأمره فعلم ان هذه اشارة منهم الى عدم الاقامة وضاق صدره وتقسم فكره واشتدت فكرته * ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة من أول الليل الى أن قارب الصبح وكان الزمان شتاء وليس معنا ثلث الا الله تعالى ونحن نقسم أقساما ونرتب على كل قسم بمقتضاه حتى أخذني الاشفاق عليه والخوف على مزاجه فانه كان يغلب عليه اليبس فشفعت اليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة فقال رحمه الله لعلك جاءك النوم ثم نهض فما وصلت الي بيتي وأخذت لبعض شأني الا وأذن المؤذن وطلع الصبح وكنت أصلي معه الصبح في معظم الاوقات فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه فقال ما أخذني النوم أصلا فقلت قد علمت فقال من أين فقلت لاني ما نمت وما بقي وقت للنوم ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه فقلت له قد وقع لي واقع وأظنه مفيداً ان شاء الله تعالى فقال وما هو فقلت له الاخلاص الى الله تعالى والانابة اليه . والاعتماد في كشف هذه النعمة عليه . فقال وكيف نصنع فقلت اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرواح ويصلي على العادة بالاقصى موضع مسري النبي صلى الله عليه وسلم ويقدم المولى التصديق بشيء خفية على يد من يثق به ويصلي المولى ركعتين بين الاذان والاقامة ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح وتقول في باطنك « إلهي قد انقطعت أسبابي الارضية في نصره دينك ولم يبق الا الاخلاص اليك والاعتصام بملك والاعتماد على فضلك أنت حسبي ونعم الوكيل » . فلان الله اكرم من أن يخيب قصدك ففعل ذلك كله

وصليت الي جانبه على العادة وصلي الركعتين بين الاذان والاقامة
ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجاده ولا أسمع
ما يقول فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جرديك
وكان على اليزك يخبر فيها أن الفرنج محتبطن وقد ركب اليوم عسكرهم
بأسرد الي الصحراء ووقفوا الي قائم الظهيرة ثم عادوا الي خيامهم وفي بكرة
السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك . ووصل في أثناء النهار
جاسوس أخبر أنهم اختلفوا فذهبت الفرنسية الي أنهم لا بد لهم من
محاصرة القدس وذهب الانكثار وأتباعه الي أنه لا يخاطر بدين النصرانية
ويرميهم في الجبل مع عدم المياه فان السلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس
من المياه وأنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على
ظهور الخيل وانهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم فأبيء أشاروا
به لا يخالفونهم . ولما كانت بكرة الاثين جاء المبشر يخبر أنهم رحلوا عأدين
الي جهة الرملة فهذا ماشاهدته من آثار استنباطه واخلاده الي الله تعالي
رحمه الله

— ذكر عدله رحمه الله تعالى —

(روي) أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال الوالي العادل
ظل الله في أرضه فمن نصحه في نفسه أو عباده أظلمه الله تحت عرشه يوم لا
ظل الا ظلمه ومن خانه في نفسه أو في عباد الله خذله الله يوم القيامة يرفع
لوالى العادل في كل يوم عمل ستين صديقا كلهم عابد مجتهد لنفسه
ولقد كان رحمه الله عادلاً رؤفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي . وكان

يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكين حتي يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سراً وحضراً. على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يرض عليه من القصص في كل يوم ويفتح باب العدل ولم يردّ قاصداً للحوادث والحكومات. وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يردّ قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه. ولقد كان رؤوفاً بارعية ناصراً للدين مواظباً على تلاوة القرآن العزيز عالماً بما فيه عاملاً به لا يمدوه أبداً رحمة الله عليه* وما استغاث اليه أحد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعانى بقصته. ولقدرأيته واستغاث اليه انسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه فأنفذ اليه ليحضر الى مجلس الحكم وكان تقي الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولكنه لم يجانه في الحق

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع انسان تاجر يدعي عمر الخلاطي وذلك اني كنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف اذ دخل على شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي معه كتاب حكيم يسأل فتحه فسألته من خصمك فقال خصمي السلطان وهذا بساط العدل وقد سمعنا أنك لا تحابي قلت وفي أي قضية هو خصمك فقال ان سنقر الخلاطي كان مملوكي ولم يزل على ملكي الي أن مات وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها فقلت له يا شيخ وما أقعدك الى هذه الغاية فقال الحقوق لا تبطل بالتأخر وهذا الكتاب

الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي الي أن مات فأخذت الكتاب منه
وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية - منقر الخلاطى وأنه قد اشتراه من
فلان التاجر بأرجيش اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا وأنه لم يزل
في ملكه الي أن شد عن يده في سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب
خروجه عن ملكه بوجه ما وتم الشرط الي آخره فتعجبت من هذه القضية
وقلت للرجل لا ينبغي سماع هذا بلا وجود الخصم وأنا أعرفه وأعرفك
ماعنده فرضي الرجل بذلك واندفع فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك
اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعادا عظيما وقال كنت نظرت في
الكتاب فقلت نظرت فيه ورأيت متصل الورد والقبول الي دمشق وقد
كتب عليه كتاب حكمي من دمشق وشهد به علي يد قاضي دمشق شهود
معروفون فقال مبارك نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل في القضية ما يقتضيه
الشرع * ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خلوة فقلت له هذا الخصم يتردد ولا بد
أن نسمع دعواه فقال أقم عني وكيفا لسمع الدعوى ثم يقيم الشهود شهادتهم
وأخر فتح الكتاب الي حين حضور الرجل هاهنا ففعلت ذلك ثم أحضر
الرجل واستدناه حتى جالس بين يديه وكنت الي جانبه ثم نزل من طراحته
حتى ساواه وقال ان كان لك دعوي فاذا كرها فخرّ الرجل الدعوي على معنى
ما شرح أولا فاجابه السلطان أن سنقر هذا كان مملوكي ولم يزل على ملكي حتى
أعتقه وتوفي وخلف ما خلفه لورثته فقال الرجل لي بينة تشهد بما ادعيتيه ثم
سأل فتح كتابه ففتحته فوجدته كما شرحه فلما سمع السلطان التاريخ قال عندي
من يشهد أن سنقر هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر وأني
اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وأنه لم يزل

في يدي وملكي الى أن أعتقته ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرها والتاريخ كما ادعاه فأبأس الرجل فقلت له يا مولاي هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلبا لمرامح السلطان وقد حضر بين يدي المولى ولا يحسن أن يرجع خائبا للقصد فقال هذا باب آخر وتقدم له بجملة ونفقة بالغة قد شدنى متدارها. فانظر الى ما في طي هذه القضية من المعاني الزرية العجيبة والتواضع والانقياد الى الحق وارغام النفس والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمه الله تعالى رحمة واسعة

﴿ ذكر طرف من كرمه رحمه الله ﴾

قال صلى الله عليه وسلم اذا عثر الكريم فان الله آخذ بيده وفي الكرم احاديث * وكرمه قدس الله روحه كان اظهر من أن يسطر * وأشهر من أن يذكر لكن نهت عليه جملة * وذلك أنه ملك ما ملك ومات ولم يوجد في خزانته من الفضة الاسبعة وأربعون درهما ناصرية ومن الذهب الاجرم واحد صوري ما علمت وزنه وكان رحمه الله يهب الاقاليم وفتح آمد وطلبها منه ابن قره ارسلان فاعطاه اياه

ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف وكان قد عزم على التوجه الى دمشق ولم يكن في الخزانة ما يعطى الوفود فلم أزل أخاطبه في معانهم حتى باع أشياء من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد وكان رحمه الله يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة * وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئا من المال حذراً أن يفاجئهم مهم لعدوهم بأنه متى علم به أخرجه * وسمعتة يقول في معرض حديث جرى يمكن أن يكون في الناس

من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب فكانه أراد بذلك نفسه رحمه الله تعالى وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب فما سمعته قط يقول اعطينا انفلان . وكان يعطي الكثير ويبسط وجهه للطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً . وكان رحمه الله يعطي ويكرم اكثر مما يعطي وكان قد عرفه الناس فكانوا يستزيدونه في كل وقت وما سمعته قط يقول قد زدت مرارا فكم أزيد واكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني ويدي وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه من كثرة ما أطلبه لهم لعلمي بعدم مؤاخذته في ذلك وما خدمه أحد الا وأغناه عن سؤال غيره (وأما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها) فلا تطمع فيها حقيقة أصلا وقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لي قد تجارينا عطاياه فحصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا فكان عشرة آلاف فرس . ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر * اللهم انك ألهمته الكرم وأنت أكرم منه فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين

— ذكر شجاعته قدس الله روحه —

(روي) عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية * ولقد كان رحمه الله تعالى من عطاء الشجعان قوي النفس شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر ولقد رأيتُه يعطي دستورا في أوائل الشتاء ويبقى في شردمة يسيرة في مقابلة عددهم الكثير وقد سألت باليان بن بارزان وهو من كبار ملوك الساحل وهو جالس بين يديه رحمه الله يوم انعقاد الصلح عن عدتهم فقال الترجان عنه انه يقول كنت أنا وصاحب صيدا

وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرينا من صور فلما أشرفنا عليه تحازرناه فخرهم هو خمس مائة ألف وحزرتهم أنا بستمائة ألف أو قال عكس ذلك قلت فكم هلك منهم فقال أما بالقتل فقريب من مائة ألف وأما بالموت والفرق فلا نعلم وما رجع من هذا العالم الا الأقل

وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين اذا كنا قريباً منهم . ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركباً على عكا وأنا أهدهما من بعد صلاة العصر الي غروب الشمس وهو لايزداد الا قوة نفس

وكان رحمه الله تعالى اذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد عنى يده جنيب ويحرق العساكر من الميمنة الي اليسرة ويرتب الاطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها . وكان يشارف العدو ويجاوره رحمه الله . ولقد قريء عليه جزآن من الحديث بين الصفين وذلك اني قلت له قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ولم ينقل أنه سمع بين الصفين فان رأي المولي أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً فأذن في ذلك فأحضر جزءه كما أحضر من له به سماع فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين نمشي تارة ونقف أخرى

وما رأيته استكثر العدو أصلاً ولا استعظم أمرهم قط وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير تذكر بين يديه الاقسام كلها ويرتب على كل قسم بمقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه . ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقع الكؤوس والعلم وهو رضي الله عنه ثابت القدم في نفر يسير حتى انحاز الى الجبل يجمع الناس

ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلم على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس، ولم يزل رحمه الله مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة الى أن ظهر له ضعة المسلمين فصالح وهو مسئول من جانبهم فان الضعف والهلاك كان في أكثر ولكنهم كانوا يتوقون النجدة ونحن لانتوقعها وكانت المصلحة الصالح وظهر ذلك لما أبدت الاقضية الالهية والاقدار ما في مكنونها. وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط وتترأى النارا ونسمع منهم صوت الناقوس ويسمعون منا صوت الاذان الى ان انقضى الواقعة على أحسن حال وأيسره قدس الله روحه ونور ضريحه

﴿ ذكر اهتمامه بأمر الجهاد ﴾

قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع الحسني ونصوص الجهاد كثيرة. ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه عظيم الاهتم به ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه الى الجهاد ديناراً ولا درهما الا في الجهاد أو في الارفاد لصدق وبر في يمينه . ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً بحيث ما كان له حدين الا فيه ولا نظر الا في آله ولا كان له اهتمام الا برجاله ولا ميل الا الى من يذكر ويحث عليه . ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة . ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا فلم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك الا رغبة ومصابرة واهتماماً . وكان الرجل

إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روي في فضله وشرحت غريبها . وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الافضل عز نصره * ولأحكيين عنه ما سمعته منه وذلك انه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة وأعطى العسكر دستورا وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر وكان مقدمها أخاه الملك العادل عز نصره فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف حرسه الله تعالى وسرنا في خدمته . ولما صلي العيد في القدس وقع له أن يمضى إلى عسقلان ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية التي عكا ويرتب أحوالها فأشاروا عليه أن لا يفعل فان العساكر اذا فارقتنا نبق في عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة فلم يلتفت رحمه الله وودع أخاه والعسكر بعسقلان ثم سرنا في خدمته إلى الساحل طالبي عكا . وكان الزمان شتاء والبحر هائجا شديداً وموجه كالجبال كما قال تعالى وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي ان جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا لما كنت أفعل واستخسفت رأي من ركب البحر رجاء دينار أو درهم واستحسن رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهده من حركة البحر فبينما أنا في ذلك اذ التفت إلي رحمه الله . وقال أما أحكي لك شيئاً في نفسي انه متي ما يسر الله تعالى فتج بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره واتبعتهم فيها حتى لا أبقى على وجه الارض من يكفر بالله أو أموت فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان خطري وقلت له

ليس في الارض أشجع نفساً من المولي ولا أقوى منه نية في نصره دين الله تعالى فقال فكيف فقت أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهوله . وأما نصره دين الله فهو ان المولي ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الارض حتي تطهر جميع الارض منهم واستأذنت أن أحكي له ما كان خطري فخكيت له ثم قلت ما هذه الانية جميلة ولكن المولى يسير في البحر العساكر وهو سور الاسلام ومنعته فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه فقال أنا أستفتيك ما أشرف الميتين فقت الموت في سبيل الله فقال غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتين فانظر الى هذه الطوية ما أطهرها . والي هذه النفس ما أشجعها وأجرأها رحمة الله عليه اللهم انك تعلم انه بذل جهده في نصره دينك وجاهد رجاء رحمتك فارحمه

﴿ صبره واحتسابه رحمة الله عليه ﴾

قال الله سبحانه وتعالى ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم . ولقد رأيت رحمة الله بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دما ميل كانت ظهرت عليه من وسطه الى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس وانما يكون منكبا على جانبه ان كان بالحيمة وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس وكان يأمر أن يفرق على الناس وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبا من العدو وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبا تعبية القتال وكانت مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الي صلاة المغرب يطوف على الاطلاب صابرا على شدة الالم وقوة ضربان الدامل وأنا أتعجب من ذلك فيقول اذا ركب يزول عني ألمها حتي انزل وهذه عناية ربانية *

ولقد مرض رحمة الله ونحن على الحرنوبة وكان قد نأخر عن تل الحجل

لسبب مرضه فبلغ الافرنج نخرجوا طمعا في أن ينالوا شيئا من المسلمين وهي نوبة النهر نخرجوا في مرحلة الآبار التي تحت التل فامر رحمه الله بالثقل حتى يتجاوز بالرحيل والتأخر عن جهة الناصرة. وكان عماد الدين صاحب سنجار متعرضا أيضا فاذن له أن يتأخر مع الثقل وأقام هو ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطابنا فركب على مضض ورتب العسكر للقاء القوم تعبئة الحرب وجعل طرف الميمنة الملك العادل وطرف الميسرة تقي الدين وجبل ولده الملك الظاهر والملك الافضل عز نصرهما في القلب ونزل هو وراء القوم يظهرهم واول ما نزل من التل احضر بين يديه أفرنجي قد أمر من القوم بأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الاسلام عليه وإيائه عنه وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستديرا الي ورائهم حتى يقطع بينهم وبين خيامهم وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ويتظلل بمندبل على رأسه من شدة وقع الشمس ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفا ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم الي أن دخل الليل ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت الي محل المصاراة وأن يبتوا تحت السلاح وتأخر هو ونحن في خدمته الي قمة الجبل فضربت له خيمة لطيفة وبتنا تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشأغله وهو ينام تارة ويمتيطظ أخرى حتى لاح الصباح ثم ضرب البوق وركب هو وركبت العساكر واحدقت بالعدو ورحل العدو عائدا الي خيامهم من الجانب الغربي من النهر وضايقتهم المسلدون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا وجميع من حضر منهم ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده الا أنا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الاعلام والبيارق لاغير فيظن الرأي لها عن بعد

ان تحتها خلقا عظيما ولم يزل العدو سائرا والقتل يعمل فيهم وكلما قتل منهم شخص دفنوه وكلما جرح منهم رجل حملوه حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه وهم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتد بهم الامر ونزلوا عند الجسر وكان الافرنج متى نزلوا الى الارض أيس المسلمون من بلوغ غرض منهم لانهم يجتمعون في حالة النزول جماعة عظيمة وبقى رحمه الله في موضعه والساكر على ظهور الخيل قبالة العدو الى آخر النهار ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم وعدنا الى منزلنا في الليلة الماضية وعاد العسكر في الصباح الى ما كان عليه بالامس من مضايقة العدو ورحل العدو وسار على ماضى من القتل والقتال حتى دنا الى خيامه وخرج اليه منها من أنجده حتى وصلوا الى خيامهم *

فانظر الى هذا الصبر والاحتساب والى أي غاية بلغ هذا الرجل . اللهم انك ألهمته الصبر والاحتساب ووفقته له فلا تحرمه ثوابه يأرحم الراحمين * ولقد رأيت رحمته الله تعالى وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ يسمى اسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرف أحداً ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه *

واقدر رأيت ليلة على صفد وهو يحاصرهما وقد قال لاننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه وكنا طول الليل في خدمته قدس الله روحه في الأذمفاكهة وأرغد عيش والرسل تتواصل تجربته بان قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا ومن المنجنيق الفلاني حتى أتى الصباح وقد فرغ منها ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها وكانت من أطول الليالي وأشدّها بردا ومطرا

ورأيته وقد وصل اليه خبر وفاة تقي الدين ابن أخيه ونحن في مقابلة الافرنج جريدة على الرملة وبيننا وبينهم شوط فرس لاغير فأحضر الملك العادل وعلم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين وأمر بالناس فطردوا من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سهم ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديداً حتى أبكنا من غير أن نعلم السبب ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه توفى تقي الدين فاشتد بكأؤه وبكاء الجماعة ثم عدت الى نفسي فقلت استغفروا الله تعالى من هذه الحالة وانظروا أين وفيم أتم وأعرضوا عما سواه فقال رحمه الله نعم استغفر الله وأخذ يكررها ثم قال لا يعلم أحد واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه ثم أشخص الطعام وحضر الناس ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو الى يافا وعدنا نحن الى النطرون وهو مقر ثقلنا* وكان رحمه الله شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه وكان صابراً على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتساباً لله تعالى اللهم انه ترك ذلك كله ابتغاء مرضاتك فارض عنه وارحمه *

﴿ ذكر نبد من حلمه وعفود رحمه الله ﴾

قال الله سبحانه وتعالى والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . لقد كان متجاوزاً قليل الغضب ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الافرنج الى عكا يسر الله فتحها وكان من عادته أن يركب في وقت الركوب ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس ثم ينهض الى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة وأنا في خدمته نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه* ولقد قرأ على كتاباً مختصراً بتصنيف الرازي يشتمل على الارباع

الاربعة من الفقه ونزل يوما على عادته ومد الطعام بين يديه ثم غزم على النهوض فقبل له ان وقت الصلاة قد قرب فعاد الى الجلوس وقال نصلى وننام ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلا المكان الامن لزم ففقد اليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين فقال له أنا الآن ضجران أخرها ساعة فلم يفعل وقدم القصة الى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرأها فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فرفه فقال رجل مستحق فقال يوقع المولى له فقال ليست الدواة حاضرة الآن وكان رحمه الله جالسا في باب الحركة بحيث لا يستطيع احد الدخول اليها والدواة في صدرها والحركة كبيرة فقال له الخاطب هذه الدواة في صدر الحركة وليس لهذا معنى الا أمره اياه باحضار الدواة لا غير فالتفت رحمه الله فرأى الدواة فقال والله لقد صدق ثم امتد على يده اليسرى ومد يده اليمنى فاحضرها ووقع له فقلت قال الله تعالي في حق نبيه صلى الله عليه وسلم وانك لبي خلق عظيم وما أرى المولى الا قد شاركه في هذا الخلق فقال ماضرنا شيأ قضينا حاجته وحصل الثواب ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وافرادهم لقام وقعد ومن الذي يقدر أن يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل ذلك وهذا غاية الاحسان والحلم والله لا يضيع أجر المحسنين* ولقد كانت طراحته تداس عند التزامه عليه لمرض القصص وهو لا يتأثر لذلك واتقد نفرت يوما بغاتي من الجمال وأنا راكب في خدمته فزحمت وركه حتى ألتته وهو يتبسم رحمه الله . ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير الى القدس الشريف وهو كثير الوحل فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أثلقت جميع ما كان عليه وهو يتبسم وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني* ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغظ ما يمكن أن يسمع

ويبقى ذلك بالبشر والقبول * وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها . وذلك انه كان قد اتجه اخو ملك الافرنج خذلهم الله الى يافا فان العسكر كان قد رحل عنهم وبعد وتراجع الى النظرون وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجد وثلاث معتادة وجمع رحمه الله العسكر ومضى الى قيسارية يلتقي نجدتهم عساه يبلغ منها غرضاً وعلم الافرنج الذين كانوا بيافا ذلك وكان بها الانكثار ومعه جماعة فجز معظم من كان عنده في المراكب الى قيسارية خشية على النجدة أن يتم عليها أمر وبقى الانكثار في نفر يسير لعلمهم ببدء رحمه الله عنهم وبعد العسكر * ولما وصل رحمه الله الى قيسارية ورأى النجدة قد وصلت الى البلد واحتتمت به وعلم انه لا ينال منهم غرضه سري من ليلته في أول الليل الى آخره حتى أتى يافا صباحاً والانكثار في سبعة عشر فارساً وثلثمائة راجل نازلاً خارج البلد في خيمة له فصبحه العسكر صباحاً فركب الملمون وكان شجاعاً باسلاً صاحب رأي في الحرب وثبت بن يدي العسكر ولم يدخل البلد فاستدار العسكر الاسلامي بهم الا من جهة البحر وتعبى العسكر تعبيرة القتال وأمر السلطان العسكر بالحملة انتهازاً للفرصة فأجابه بعض الاكراد بكلام فيه خشونة تعتب لعدم التوفير في اقطاعه فعطف رحمه الله عنان فرسه كالمغضب لعلمه أنهم لا يعملون في ذلك اليوم شيئاً وتركهم وانصرف راجعاً وأمر بخيمته التي كانت منصوبة انقلعت وانفضوا متيقنين ان السلطان في ذلك اليوم ربما صلب جماعة * ولقد حكى لي ولده الملك الظاهر أعز الله أنصاره أنه خاف منه في ذلك اليوم حتى أنه لم يتجاسر أن يقع في عينيه مع أنه حمل في ذلك اليوم وأوغل ولم يزل سائر أختي نزل بسازور وما من الأمراء الا من يرعد خيفة ومن يعتقد أنه مأخوذ

مسخوط عليه قال ولم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة منه حتى استدعاني قال فدخلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فأكهة كثيرة فقال اطلبوا الامراء حتى يأكلوا شيئاً قال فسررتني عني ما كنت أجده وطلبت الامراء فحضروا وهم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطأينة والامن والسرور وانصرفوا على عزم الرحيل كأن لم يجر شيء أصلاً فانظر الى هذا الخلم الذي لا يتأتى في مثل هذا الزمان ولا يحكي عن تقدم من أمثاله رحمة الله عليه *

﴿ ذكر محافظته على أسباب المروءة ﴾

قال النبي صلى الله عليه وسلم بعثت لأتمم مكارم الاخلاق وكان صلى الله عليه وسلم اذا صاحفه الرجل لا يترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك . ولقد كان السلطان كثير المروءة ندي اليد كثير الحياء . مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف لا يرى أن يفارقه الضيف حتى بطعم عنده ولا يخاطبه بشيء الا وينجزه وكان يكرم الوافد عليه وان كان كافراً . ولقد وفد عليه البرنس صاحب انطاكية فما أحس به الا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح في شهر شوال سنة ثمان وثمانين وخمس مائة عند منصرفه من القدس الي دمشق عرض له في الطريق وطلب منه شيئاً فأعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل وهو سنة أربع وثمانين *

ولقد رأيتُه وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة فاحترمه واكرمه واكل معه الطعام ومع ذلك عرض عليه الاسلام فذكر له طرفاً من محاسنه وحثه عليه *

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي
الاقدار وكان يوصينا بان لا تغفل عن مجتاز بالحيم من المشايخ المعروفين
حتى يحضرهم عنده وينالهم من احسانه . ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين
وخمس مائة رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوى الاقدار وأبوه
صاحب توريز فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل وحج ووصل
زائرا لبيت الله المقدس ولما قضى لبائته منه ورأى آثار السلطان رحمه الله
فيه وقع له زيارته فوصل الينا الي المعسكر المنصور فما أحسست به الا وقد
دخل على في الخيمة فلقيته ورحبت به وسألته عن سبب ذلك ووصوله
فأخبرني بذلك وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة
فعرفت السلطان بذلك في ليلة وصول هذا الرجل فاستحضره وروي عنه
حديثا ثم انصرفنا وبادت عندي في الخيمة فلما صليت الصبح أخذ يودعني
فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال قد
قضيت حاجتي منه ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته وانصرف من
ساعته ومضى على ذلك ليال فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله فظهر عليه آثار
الغضب كيف لم أخبره برواحه وقال كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف
عنا من غير احسان يمسه منا وشدد التكير على في ذلك فما وجدت بدا من
أن اكتب كتابا الى محيي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال
الرجل وايصال رقعة كتبها اليه طي كتابي أخبره فيها بانكار السلطان رواحه
من غير اجتماعه به وحسنت له فيها العود وكان بني وبينه صداقة تقتضي
مثل ذلك فما أحسست به الا وقد عاد الي فرحب به السلطان وانبسط
معه وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة وأعطاه مركبا لائقا وثيابا كثيرة

يحملها الى بنيه وأتباعه وجيرانه وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم
دعاء لأيامه *

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير افرنجي قد أصابه كرب بحيث انه
ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع فقال للترجمان من أي شيء يخاف فأجری
الله على لسانه أن قال كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له
وحضوري بين يديه أيقنت أنني ماأري الا الخير فرق له ومن عليه وأطلقه
ولقد كنت راكبا في خدمته في بعض الايام قبالة الافرنج وقد وصل بعض
اليزكية ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها
فقال اليزكي ان هذه خرجت من عند الافرنج فسألت الحضور بين يديك
وقد أتيناها فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها فقالت اللصوص المسلمون
دخلوا البارحة الى خيمتي وسرقوا ابنتي وبت البارحة استغيث الى بكرة النهار
فقال لي المملوك السلطان هو أرحم ونحن نخرجك اليه تطلبين ابنتك منه
فأخرجوني اليك وما أعرف ابنتي الا منك فرق لها ودعت عينه وحركته صرخته
وأمر من ذهب الى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع
له ثمنها ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه فما مضت ساعة
حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه فما كان الا أن وقع نظرها عليها فخرت
الي الارض تعفر وجهها في التراب والناس يبكون على ما نالها وهي ترفع
طرفها الي السماء ولانعلم ما تقول فسلمت ابنتها اليها وحملت حتى أعيدت
الي عسكرهم *

وكان لا يري الاساءة الي من صحبه وان أفرط في الحيانة ولقد أبدل في
مخزائنه كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالذواب

شياً سوى أن صرفهم من عملهم لا غير*

ولقد دخل البرنس أرناط صاحب الكرك مع ملك الافرنج بالساحل لما أسرها في واقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسة والواقعة مشهورة تجيء مشروحة في موضعها ان شاء الله تعالى وكان قد أمر باحضارها وكان أرناط هذا اللعين كافراً عظيماً جباراً شديداً وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة فغدرها وأخذها ونكل بهم وعذبهم وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة وذكروا له حديث الهدنة فقال قولوا لمحمدكم يخلصكم فلما بلغه رحمه الله ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه فلما أمكنه الله منه في ذلك اليوم قوي عزمه على قتله وفاء بنذره فأحضره مع الملك فشكا الملك العطش فأحضر له قدحاً من شراب فشرب منه ثم ناوله أرناط فقال السلطان للترجمان قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما أسقيه من شرابي ولا أطعمه من طعامي فقصد رحمه الله أن من أكل من طعامي فالروءة تقضي أن لا أؤذيه ثم ضرب عنقه بيده وفاء بنذره وأخذعكا وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير وأعطى كل واحد منهم نفقة يصل بها الي بلده وأهله . هكذا بانى على السنة جماعة لأنى لم أحضر هذه الواقعة *

وكان حسن العشرة لطيف الاخلاق طيب الفكاهة حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم حافظاً لأنساب خيلهم عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره *

وكان حسن الخلق يسأل الواحد مناه عن مرضه ومدواته ومطعمه ومشربه وتقبلت أحواله .

وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد الا بخير السمع فلا يجب أن يسمع عن أحد الا الخير وطاهر اللسان فما رأته ولع بشتم قط * وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم الا وترحم على مخلفيه وجبر قلبه وأعطاه وجبر مصابه وان كان له من اهله كبير يعتمد عليه سلمه اليه والا أبقى له من الخير ما يكف حاجته وسلمه الي من يعتمى بتربيته ويكفلها .

وكان لا يري شيئا الا ويرق له ويعطيه ويحسن اليه ولم يزل على هذه الاخلاق الي ان توفاه الله الي مقر رحمته ومكان رضوانه

فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه اقتصرت عليها خوف الاطالة والسآمة وما سطرت الا ما شاهدته أو أخبرني الثقة به وحققته وهذا بعض ما اطلعت عليه في زمان خدمتي له وهو يسير فيما اطلع عليه غيري ممن طالت صحبته وتقدمت خدمته ولكن هذا القدر يكفي الاديب في الاستدلال على طهارة تلك الاخلاق والحلال * وحيث نجح هذا القسم فشرع الآن في القسم الثاني من الكتاب في بيان تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته في تواريخها قدس الله روحه . ونور بنور رحمته ضريحه *

﴿ القسم الثاني في بيان تقلبات أحواله وفتوحاته في تواريخها ﴾

ذكر حركته الي مصر في الدفعة الاولى صحبة عمه أسد الدين * سبب ذلك أن شاور وزير المصريين كان قد خرج عليه انسان يقال له الضرغام وكان يروم منصبه ومكانه فجمع له جموعا كثيرة لم يكن له بها قبل وغلب عليه وأخرجه من القاهرة وقتل ولده واستولي على المكان وولى الوزارة . وكانت عادة المصريين أنه اذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه فان قوتهم انما كانت بعسكر

وزيرهم وهو ملقب عندهم بالسلطان وما كانوا يرون المكاشفة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال فلما قهر شاور وأخرج من القاهرة اشتد في طلب الشام قاصدا خدمة نور الدين ابن زنكي مستصر خابه مستصرا على أعدائه بمسكروه فتقدم نور الدين الي أسد الدين شيركوه بالخروج الي مصر المحروسة قضاء لحق الوافد المستصرخ وحفظا للبلاد وتطلعا الي أحوالها وذلك في شهور سنة ثمان وخمسين وخمسة فنهأب أسد الدين شيركوه وسار الي مصر فاستصحبه معه رحمه الله عن كراهية منه لمكان افتقاره اليه وجعله مقدم عسكريه وصاحب رأيه وساروا حتى وصلوا الي مصر وشاور معهم في الثاني من جمادي الآخرة سنة ثمان المذكورة . وكان لوصلهم الي مصر وقع عظيم وخافه أهل مصر ونصر شاور على خصمه وأعاده الي منصبه ومرتبته وقرر قواعده واستقر أمره وشاهد البلاد وعرف أحوالها وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد وعرف أنها بلاد بغير رجال * تمشي الامور فيها بمجرد الايهام والحال * وكان ابتداء رحلته عنها متوجها الي الشام في السابع من ذي الحجة سنة ثمان المذكورة . وكان لا يفصل أمرا ولا يقرر حالا الا بمشورته ورأيه لما لاح له من آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتران النصر بحركاته وسكناته فاقام بالشام مدبرا لامره مفكرا في كيفية رجوعه الي البلاد المصرية محدثا بذلك نفسه مقررا قواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين زنكي الي سنة اثنتين وستين وخمسة

﴿ ذكر عودته الي مصر في الوقفة الثانية وهي معروفة بوقفة البابين ﴾

ولم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور فداخله الخوف على البلاد من الأتراك وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد وأنه

لابد له من قصدتها فكتب الافرنج وقرر معهم أنهم يجيئون البلاد ويمكنهم
 تمكيننا كلياً ويعينونه على استئصال أعدائه بحيث يستقر قلبه فيها وبلغ ذلك أسد
 الدين والملك الدادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر ان ملكها الكفار
 واستولوا على البلاد كلها فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر
 وأزم السلطان رحمه الله المسير معه على كراهية منه لذلك . وكان توجههم
 في اثنى عشر ربيع الاول سنة اثنتين وستين وخمسمائة وكان وصولهم
 الى البلاد المصرية مقارناً لوصول الافرنج اليها واتفق شاور مع الافرنج
 على أسد الدين والمصريون بأسرهم وجرت بينهم حروب كثيرة
 ووقعات شديدة وانفصل الافرنج عن الديار المصرية وانفصل أسد الدين
 . وكان سبب عود الافرنج أن نور الدين جرّد العساكر الى بلاد الافرنج وأخذ
 المنيطرة وعلم الافرنج بذلك تخافوا على بلادهم وعادوا . وكان سبب عود أسد
 الدين ضعف عسكره بسبب موقعة الافرنج والمصريين وما عانوه من
 الشدائد وعانوه من الاهوال . وما عاد حتى صالح الافرنج على أن ينصرفوا
 كلهم من مصر وعاد الى الشام في بقية السنة وقد انضم الى قوّة الطمع في
 البلاد شدة الخوف عليها من الافرنج لعلمه أنهم قد كشفوها كما كشفها
 وعرفوها من الوجه الذي عرفها فأقام على مضض وقلبه مقلقل والقضاء
 يجره الى شيء قد قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك

« ذكر عوده الى مصر في الدفعة الثالثة وهي التي ملكوها ﴿ ﴾
 ﴿ فيها وجري ماجري في شهور سنة أربع وستين وخمسمائة ﴾

ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد سير أسد الدين في رجب وخرّب
 قلعة اكاف بالبرية . وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين

وزين الدين بجماء للفرقة وساروا الى بلاد الافرنج فخرجوا هونين في شوال منها . وفي ذي القعدة كان عود أسد الدين من مصر . وكان سبب ذلك أن الافرنج خذلهم الله جمعوا راجلهم وفارسهم وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد طمعا في البلاد فلما بلغ ذلك نور الدين وأسد الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا الي قصد البلاد * أما نور الدين فبالمال والرجال ولم يسر بنفسه خوفا على البلاد من الافرنج ولانه قد حدث نظره الي جانب الموصل بسبب وفاة زين الدين ابن بكتكين فانه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسة وتسلم ما كان في يده من الحصون الي قطب الدين ما عدا أربل فانها كلها كانت له من أتاك زكي رحمه الله فحدث لنور الدين الي ذلك الجانب الطمع بهذا السبب فسير العسكر . وأما أسد الدين فبسيفه وماله وأهله ورجاله ولقد قال لى السلطان قدس الله روحه كنت اكره الناس للخروج في هذه الواقعة وما خرجت مع عمي باختياري وهذا معنى قوله تعالى وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم . وكان شاور لما أحس بخروج الافرنج الي مصر على تلك القاعدة أنفذ الي أسد الدين يستصرخه ويستنجده فخرج مسرعا . وكان وصولهم الي مصر في أثناء ربيع الاول سنة أربع وستين وخمسة * ولما علم الافرنج وصول أسد الدين الي مصر عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين وعلى أعقابهم ناكثين . وأقام أسد الدين بها يتردد اليه شاور في الاحيان . وكان وعدهم بمال مقابلة ما خسروه من النفقة فلم يوصل اليهم شيأ وعلقت مخالب أسد الدين في البلاد وعلم أن الافرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد وترددهم اليها في كل وقت لا يفيدون شاور يلب بهم تارة وبالافرنج تارة أخرى

وعلموا أنه لا سبيل الى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور فأجمعوا أمرهم على قبضه ان خرج اليهم وكانوا هم يترددون الى خدمته دون أسد الدين وهو يخرج في بعض الاحيان الى أسد الدين يجتمع به . وكان يركب على قاعدة ووزرائهم بالطبل والبوق والعلم فلم يجاسر على قبضه من الجماعة الا السلطان بنفسه . وذلك أنه لما سار اليهم تلقاه راكبا وسار الى جانبه وأخذ بتلابيبه وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه فقروا ونهبهم العسكر وقبض على شاور وأنزل الى خيمة مفردة وفي الحال جاءه التوقيع من المصريين على يد خادم خاص لا بد من رأسه جريا على عادتهم في ووزرائهم في تقرير قاعدة فيمن قوى منهم على صاحبه فحزت رقبة وأنفذ رأسه اليهم وأنفذ الى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها وسار ودخل القصر ورتب وزيراً وذلك في سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسة ودام أمراً ناهياً والسلطان رحمه الله مباشر الامور مقرر لها وزمام الامر والنهي مفوض اليه لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه وسياسته الي الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة

﴿ ذكر وفاة أسد الدين ومصير الامر الي السلطان ﴾

وذلك أن أسد الدين كان كثير الاكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة وتواتر عليه التخم والحوائق وينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة وفوض الامر بعده الي السلطان واستقرت القواعد واستتبّت الاحوال على أحسن نظام وبذل المال . وملك الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر

والاجتهاد وما عاد عنه ولا ازداد الاّ جدّاً الى أن توفاه الله الى رحمته * ولقد سمعت منه يقول لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي * ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الافرنج الي الكرك والشوبك وبلادها وغشى الناس من سحائب الافضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام هذا كله وهو وزير متابع القوم ولكنه مقوم لمدّهب السنة غارس في أهل البلاد العلم والفقّه والتصوف والدين والناس يهرعون اليه من كل صوب ويفدون عليه من كل جانب وهو لا يخيب قاصداً * ولا يعدم وافداً * ولما عرف نور الدين استقرار السلطان بمصر أخذ حصص من نواب أسد الدين وذلك في رجب من سنة أربع وستين *

﴿ ذكر قصد الافرنج دمياط حرسها الله تعالى ﴾

ولما علم الافرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم وما تم للسلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية خانوا أن يملك بلادهم ويخرّب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك فاجتمع الافرنج والروم جميعاً وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر ولعلمهم أنها ان حصات لهم حصل لهم مغرس قدم فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات والجروح وآلات الحصار وغير ذلك ولما سمع إفرنج الشام بذلك اشتد أمرهم فسرقوا حصن عكا من المسلمين وأسروا صاحبها وكان مملوكاً لنور الدين يسمى خلطخ العلم دار وذلك في ربيع الآخر منها . ولما رأى نور الدين ظهور أمر الافرنج وبلغه نزولهم على دمياط قصد شغل

قلوبهم فنزل على الكرك محاصر لها في شعبان من هذه السنة فقصده افرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يتف لهم على أثر ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بجلب وكانت وفاته في شهر رمضان سنة خمس وستين فاشتغل قلبه لانه كان صاحب أمره فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة بجلب التي أخربت كثيراً من البلاد المذكورة فسار يطلب حلب فبلغه موت قطب الدين أخيه بالموصل وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة وبلغه الخبر وهو بتل باشر فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل ولما علم السلطان شدة قصد العدو دمياط انفذ الى البلد وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات السلاح ما من معه عليه ووعده المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات وابعاد العدو عنهم ان نزل عليهم ثم نزل الافرنج في التاريخ المذكور واشتدزحفهم عليها وقتالهم لها وهو يشن الغارات عليهم من خارج والعساكر تقاتلهم من داخل ونصر الله المسلمين وأيدهم وحسن قصدهم في نصر دين الله وأسعدهم وأنجدهم حتى بان للافرنج الحسرة . وظهر على الكفر الايمان . ورأوا أنهم ينجون برؤسهم . ويسلمون بنفوسهم . فرحلوا خائبين خاسرين فخرقت مناجيتهم ونهبت وقتل منهم خلق كثير وسلم البلد بحمد الله ومنه عن قصدهم وظهر بتوفيق الله فلّ حدهم * واستقرت قواعد السلطان *

﴿ ذكر طلبه والده ﴾

ثم أنفذ في طلب والده ليكمل السرور به ويتم الجبور وتجرى القصة مشاكلة لما جرى للنبي يوسف صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء أجمعين * فوصل والده نجم الدين اليه في أثناء جمادى الاخرى من سنة خمسة وستين

وسلك معه من الأدب ما كان عادة وألبسه الامر كله فإني أن يلبسه وقال
ياولدي ما اختارك الله لهذا الامر الا وأنت كفتؤ له * ولا ينبغي أن يغير موقع
السعادة فحكاه في الخزان بأسرها ولم يزل الساطان وزيرا محكما حتى مات
العاقد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين .

وأما نور الدين فانه أخذ الرقة في المحرم سنة ست وستين وسار منها
الي نصيبين فأخذها في بقية الشهر وأخذ سنجار في ربيع الآخر منها ثم قصد
الموصل وقصد أن لا يقانها فعبه بعسكره من مخاضة بلد وسار حتى خيم قبالة
الموصل على تل يقال له الحصن وراسل ابن أخيه عز الدين غازي صاحب
الموصل وعرفه صحة قصده فصالحه ودخل الموصل في ثالث عشر جمادى الاولى
وقرر صاحبها فيها وزوجه ابنته واعطى عماد الدين ابن أخيه سنجار وخرج من
الموصل قاصداً نحو الشام فدخل حلب في شعبان من هذه السنة

﴿ ذكر موت العاقد ﴾

وكان موته في يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة سبع وستين واستقر الملك
للسطان وكان خطب ابني العباس في أواخر أمر العاقد وهو حي وكانت الخطبة
ابتدأها للمستضيء بأمر الله واستمرت القواعد على الاستقامة وهو كلما استولى
على خزانة من المال وهبها وكلما فتح له خزائن ملك أنهبها ولا يبقى لنفسه
شيأ وشرع السلطان في التأهب للغزاة وقصد بلاد العدو وتعبية الأمر
لذلك وتقرير قواعده * وأما نور الدين فانه عزم على الغزاة واستدعي صاحب
الموصل ابن أخيه فوصل بالعساكر الى خدته وكانت غزاة عرفا واخذها
في المحرم سنة سبع وستين

﴿ ذكر اول غزوة غزاها من الديار المصرية ﴾

ولم يزل على قدم بسط العدل ونشر الاحسان واقامة الانحسان على الناس الى سنة ثمان وستين فعند ذلك خرج بالعساكر يريد بلاد الكرك والشوبك وانما بدأ بها لأنها كانت أقرب اليه وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو فاراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة نخرج قاصدا لها فحاصرها وجري بينه وبين الافرنج وقعات وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء في تلك الواقعة وحصل ثواب القصد * وأما نور الدين فانه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة وأخذ بهسا في ذي الحجة منها

﴿ ذكر وفاة والده نجم الدين ﴾

ولما عاد السلطان من غزاته بلغه قبل وصوله الى مصر وفاة أبيه نجم الدين فشق عليه ذلك حيث لم يحضر وفاته . وكان سبب وفاته وقوعه عن الفرس وكان رحمه الله شديد الركض ولما بلغ الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت الا من وقوعه عن ظهر الفرس وكانت وفاته في شهر سنة تسع وستين ورأى السلطان قوة عسكره وكثرة عدد اخوته وقوة بأسهم وكان بلغه أن باليمن انسانا استولي عليها وملك حصونها وهو يخطب لنفسه يسمي بعبد النبي بن مهدي ويزعم أن ينتشر ملكه في الارض كلها ويستتب الامر له فرأى أن يسير اليها أخاه الاكبر شمس الدولة الملك المعظم تورانشاه وكان كريما أريخيا حسن الاخلاق سمعت منه رحمه الله الشناء على كرمه وحسن أخلاقه وترجيحه على نفسه . وكان توجهه اليها في أثناء رجب سنة تسع

وستين فمضي اليها وفتح الله على يديه وقتل الخارجي الذي كان بها واستولى على معظمها وأعطى وأغني خلقاً كثيراً .

﴿ ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله ﴾

وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته أيضاً عجز الاطباء عن علاجها وتوفي يوم الاربعاء في الحادي والعشرين من شوال سنة تسع وستين وذلك في قلعة دمشق وأقام مقامه ولده الملك الصالح اسماعيل * ولقد حكى لي السلطان قال كان بلغنا عن نور الدين أنه قصدنا بالديار المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده اذا تحقق قصده وكنت وحدي أخالفهم وأقول لا يجوز أن يقال شيء من ذلك ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته .

﴿ ذكر مناقفة الكند بأسوان وذلك في شهور سنة تسع وستين ﴾

والكند انسان مقدم من المصريين كان قد نزع الي أسوان فاقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية وكان في قلوب القوم من مهاواة المصريين ما تستصغر هذه الافعال عنده فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر وقصدوا قوس واعمالها وانتهي خبره الي السلطان فجرد له عسكرا عظيما شاكى السلاح من الذين ذاقوا حلاوة المصرية وخافوا على فوت ذلك منهم وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين وسار بهم حتى أتى القوم فلقبهم بمصاف فكسرهم وقتل منهم خلقا عظيماً واستأصل شأفتهم وأخذ ثأرتهم وذلك في السابع من صفر سنة سبعين واستقرت قواعد الملك واستوت أموره والله الحمد والمنة *

﴿ ذكر قصد الافرنج ثغر الاسكندرية حرسها الله تعالى ﴾

وذلك أن الافرنج لماعلموا تغيرات الاحوال بالديار المصرية وتقلبات الدول بها داخلهم الطمع في البلاد وجردوا عساكرهم في البحر وكانوا في ستمائة قطعة ما بين شاني وطراة وبطسة وغير ذلك . وكانوا في ثلاثين ألفا على ما ذكر ونازلوا الثغر وذلك في أثناء صفر في السابع منه من هذه السنة وهي سنة سبعين فأمده السلطان بالعساكر المنصورة وتحرك وأدخل الله في قلوبهم من الخوف والرعب ما لم يمكنهم الصبر معه وعادوا خائين خاسرين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلوا قتالاً شديداً وعصمه الله منهم * ولما أحسوا بحركة السلطان نحوهم ما لبثوا أن خانوا مناجيةهم وراءهم وآلتهم فخرج أهل البلد الي نهبها وإحراقها وكان أمراء عظيماء ومن أعظم النعم على المسلمين وأمارة كل سعادة *

﴿ ذكر خروج السلطان الى الشام وأخذه دمشق ﴾

وأما نور الدين فانه خلف ولده الملك الصالح اسماعيل وكان بدمشق وكان بقلعة حلب ابن الداية شمس الدين على وشاذ بنخت . وكان قد حدث نفسه بأمور فسار الملك الصالح من دمشق الى حلب فوصل ظاهرها ثاني المحرم ومعه سابق الدين فخرج بدر الدين للقاءه فقبض على سابق الدين . ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه حسن وأودع الثلاثة السجن . وفي ذلك اليوم قتل ابن الحشاش أبو الفضل لفتنة جرت بحباب ذكروا أنه قتل قبل إمساك أولاد الداية بيوم لانهم تولوا ذلك * ولما تحقق السلطان وفاة نور الدين وكان ولده طفلا لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقل

بدفع عدو الله عن البلاد تجوز للخروج الى الشام اذ هو أصل بلاد الاسلام فتجوز بجمع كثير من المساكر وخلف في الديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ونظم أمورها وسياستها وخرج هو سائرا مع جمع من أهله وأقاربه وهو يكتب أهل البلاد وأمرائها واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح واختلت تدابيرهم وخاف بعضهم من بعض وقبض على جماعة منهم وكان ذلك سبب خوف الباقيين من فعل ذلك وسبباً لتنهير قلوب الناس عن الصبي فافتقر الحال أن كاتب شمس الدين بن المقدم السلطان ووصل البلاد مطالباً بالملك الصالح ليكون هو الذي يتولى أمره ويربّ حاله فيقوم له ما عوج من أمره فوصل دمشق ولم يشق عليه عصا ودخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين وتسلم قلعتها. وكان أول دخوله الى دار أبيه واجتمع الناس اليه وفي جوابه وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالا طويلا وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا الفرح به وصعد القلعة واستقر قدمه في ملكها فلم يلبث أن طلب حلب فنازل حمص فأخذ مدينتها في جمادي الاولى سنة سبعين ولم يشتغل بقلعتها وسار حتى أتى حلب ونازلها في يوم الجمعة سلخ الشهر المذكور وهي الواقعة الاولى

﴿ ذكر تسيير سيف الدين أخاه عز الدين الى لقائه ﴾

ولما أحس سيف الدين صاحب الموصل بما يجري علم ان الرجل قد استنحل أمره وعظم شأنه وعلت كلمته وخاف أنه ان غفل عنه استحوذ على البلاد واستقر قدمه في الملك وتعدي الامر اليه فجهز عسكرا وافرا وجيشا عظيما وقدم عليه أخاه عز الدين مسمودا وساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن البلاد. ولما بلغ السلطان ذلك رحل عن حلب

مستهل رجب من السنة المذكورة عائداً الى حماه وسار الى حمص فاشتغل بأخذ قلعتها فأخذها ثم وصل عز الدين الى حلب وانضم اليه من كان بها من العسكر وخرجوا بجمع عظيم . ولما عرف هو بسيرهم سار حتى وافاهم في قرون حماه وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصلحوه فما صلحوه ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الاكبر . والمقصود الاوفر . والقضاء يجر الى أمورهم بها لا يشعرون . وقام المصاف بين المسكرين بقضاء الله فانكسروا بين يديه وأسر جماعة منهم ومن عليهم وأطلقهم وذلك في تاسع عشر رمضان سنة سبعين أيضاً . ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية وصلحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وأخذ بارين وذلك في أواخر هذه السنة

﴿ ذكر مسير سيف الدين بنفسه ﴾

ولما وقعت هذه الواقعة كان سيف الدين على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين بقصد أخذها منه ودخوله في طاعته وكان قد أظهر أخوه الانتماء الى السلطان واعتصم بذلك واشتد سيف الدين في حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى أنهدم من سورته ثلث كثيرة وأشرف على الأخذ فبلغه وقوع هذه الواقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره فراسله الى الصالح فصالحه ثم سار من وقته الى نصيبين واهتم بجمع العساكر والانفاق فيها وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب الفرات الشامي وراسل كشتكين والملك الصالح حتى تسنقر قاعدة يصل عليها اليهم ووصل كشتكين اليه وجرت مراجعات كثيرة وعزم فيها الي العود مرارا حتى استقر اجتماعه بالملك الصالح وسمحوا به وسار ووصل حلب وخرج الملك الصالح الي

لقائه بنفسه فالتقاه قريب القلعة واعتنقه وضمه اليه وبكى ثم أمره بالعود الي القلعة فعاد اليها وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها مدة وعسكر حلب يخرج الي خدمته في كل يوم وصعد القلعة جريدة واكل فيها خبزا ونزل وسار راحلا الى تل السلطان ومعه الديار البكرية وجمع كثير والسultan قد أنفد في طلب العساكر من مصر وهو يترقب وصولها وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدايرهم وهم لا يشعرون أن في التأخير تديرا حتى وصل عسكر مصر فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماه فبلغهم انه قارب عسكره فأخرجوا اليزك وجهزوا من يكشف الاخبار فوجدوه قد وصل جريدة الي جناب التركان وتفرق عسكره يستقي فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً فصبوا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره واجتمعوا وتعبوا تعبىة القتال وأصبح القوم على مصاف وذلك في بكرة الخميس العاشر من شوال سنة احدى وسبعين فالتقى العسكران وتصادما وجري قتال عظيم وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين مظفر الدين فانه كان في ميمنة سيف الدين وحمل السلطان عليه بنفسه فانكسر القوم وأسر منهم جمعا عظيما من كبار الأمراء منهم نحر الدين عبد المسيح فمنّ عليهم وأطلقهم وعاد سيف الدين الي حلب المحروسة فأخذ منها خزائنه وسار حتى عبر القرات وعاد الي بلاده وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ونزل في بقية ذلك اليوم في خيام القوم فانهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه والمطابخ قد عملت ففرق الاصطبلات ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين نغروشاه وسار الي منبج وتسلمها في بقية الشهر المذكور . وسار حتى نزل على قلعة اعزاز يحاصرها وذلك في

رابع ذي القعدة سنة احدى وسبعين وعليها وثب الاسماعيلية عليه فنجاه الله من كيدهم وظفر بهم ولم يفل ذلك عزمه وأقام عليها حتى أخذها وذلك في رابع عشر ذي الحجة من السنة وسار حتى نزل على حلب في سادس عشر منه فأقام مدة ثم سار عنها فأخرجوا اليه ابنة نور الدين صغيرة وسألت منه اعزاز فوهبها اياها * وفي بقية الشهر أيضاً وصل شمس الدولة أخوه من اليمن الي دمشق وأقام بها مدة ثم عاد الي الديار المصرية وتوفى باسكندرية مستهل صفر سنة ست وسبعين * ثم ان السلطان عاد الي الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها وكان مسيره اليها في ربيع الاول من شهر سنة اثنتين وسبعين واستخلف أخاه شمس الدولة بدمشق فأقام رحمه الله بها يقرر قواعدها ويسد خلاها وأراح المسكر ثم تأهب للغزاة وخرج يطلب الساحل حتى وافى الافرنج على الرملة وذلك في أوائل جهادي الاولي سنة ثلاث وسبعين

﴿ ذكر كسرة الرملة ﴾

وكان مقدم الافرنج البرنس أرناط وكان قد بيع بحلب فانه كان أسيرا بها من زمن نور الدين وجرى خلل في ذلك اليوم على المسلمين . ولقد حكي السلطان صورة الكسرة في ذلك اليوم وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبوا تعبىة القتال ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة أن تعبر الميمنة الي جهة الميسرة والميسرة الي جهة الميمنة ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الافرنج وقدر الله كسرتهم فانكسروا كسرة عظيمة ولم يكن لهم حصن قريب يأوون اليه فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق وتبددوا واسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى وكان

وهنا عظيمًا جبره الله بوقعة حطين المشهورة والله الحمد *
وأما الملك الصالح فإنه تجبب أمره وقبض على كشتكين صاحب دولته وطلب
منه تسليم حارم إليه فلم يفعل فقتله . ولما سمع الافرنج بقتله نزلوا على حارم
طمعاً فيها وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين وقابل عسكر الملك
الصالح الساكر الافرنجية * ولما رأى أهل القلعة خطرهما من جانب الافرنج
سلموها الى الملك الصالح في العشر الاواخر من شهر رمضان من
السنة المذكورة

ولما علم الافرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ثم عاد الملك
الصالح الى حلب ولم يزل أصحابه على اختلاف ينيل بعضهم الى جانب السلطان
حتى بلغه عصيان عز الدين قليج بتل خالد فأخرج إليه العسكر وذلك في
عاشر المحرم سنة ست وسبعين ثم بلغه وفاة ابن عمه سيف الدين غازي صاحب
الموصل وكانت وفاته في ثالث صفر من هذه السنة وولي مكانه أخوه عز الدين
مسعود في الخامس منه وكانت وفاة شمس الدولة بالاسكندرية

﴿ ذكر عود السلطان الى الشام ﴾

ولما عاد السلطان بعد الكسرة الى الديار المصرية واقام بها ريثما لمّ الناس
شعهم وعلم تجبب الشام عزم على العود اليه وكان عوده للزاة فوصله رسول
قاييچ أرسلان يلتمس من السلطان الموافقة ويستغيث اليه من الارمن فأستقل
نحو ابن لاون لنصرة قاييچ أرسلان ونزل بقره حصار وأخذ عسكر حلب
في خدمته لانه قد اشترط في الصلح فاجتمعوا على النهر الازرق بين بهنسة
ودصن منصور وعبر منه الى النهر الاسود وطرف بلاد ابن لاون وأخذ
منهم حصنا واخر به وبذلوا له أسارى والتمسوا منه الصلح وعاد عنه ثم راسله

قليج أرسلان في صاح الشريين بأسرهم واستقر الصلح وحلف السلطان في
عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة
وديار بكر وكان ذلك على نهر سبخة سنجة وهو نهر يري الي الفرات وسار
السلطان نحو دمشق

﴿ ذكر وفاة الملك الصالح ووصول عز الدين الى حلب ﴾

وفي سنة سبع وسبعين مرض الملك الصالح بالقولنج وكان أول مرضه
في تاسع رجب وفي ثالث عشر منه غلق باب القاعة لشدة مرضه واستدعي
الامراء واحدا واحدا وحلفوا لعز الدين صاحب الموصل وفي الخامس والعشرين
منه توفي رحمه الله وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس * ولما توفي سارعوا
الي اعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك واعلامه بما جرى له من
الوصية اليه وتحليف الناس له فسارع سائرا الي حلب مبادرا خوفا من السلطان
وكان أول قادم من أمرائه الي حلب مظفر الدين ابن زين الدين وصاحب
سروج ووصل معهما من حلف جميع الامراء له وكان وصولهم في ثالث شعبان
من السنة المذكورة . وفي العشرين منه وصل عز الدين الي حلب وصعد القلعة
واستولي على خزائنها وذخائرها وتزوج أم الملك الصالح خامس شوال من
السنة المذكورة *

﴿ ذكر مقايضة عز الدين أخاه عماد الدين بالبلاد ﴾

ثم أقام عز الدين بقلعة حلب الي سادس عشر شوال وعلم انه لا يمكنه حفظ
الشام مع الموصل لحاجته الي ملازمة الشام لاجل السلطان وألح عليه الامراء
في طلب الزيادات ورأوا أنفسهم انهم قد اختاروه وضاق عطنه وكان صاحب

أمره مجاهد الدين قايماز وكان ضيق العطن لم يعتد بمقاساة أمراء الشام فرحل من قلعة حلب طالبا للرفة وخلف ولده ومظفر الدين بها وسار حتى أتى الرقة ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهم واستقر مقايضة حلب بسنجار وحلف عز الدين لآخيه على ذلك في الحادي والعشرين من شوال وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار وفي ثالث عشر محرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين الى قلعة حلب .

﴿ ذكر عود السلطان من مصر ﴾

وأما السلطان فانه لما وقع الصلح على فليج أرسلان صعد الى الديار المصرية واستخلف ابن أخيه عز الدين فخر وشاه واليا ولما بلغه وفاة الملك الصالح عزم على العود الى الشام خروفا على البلاد من الافرنج وبلغه أيضاً وفاة فخر وشاه فاشتد عزمه . وكان وصوله الى دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين ثم انشأ التأهب لغزاة بيروت فانه عبر على الافرنج في عوده من مصر مكابرة من غير صلح فقصده بيروت ونزلها ولم ينل منها غرضاً واجتمع الافرنج فرحلوه عنها ودخل الى دمشق وبلغه أن رسل الموصل وصلوا الى الافرنج يحثونهم على قتال المسلمين فعلم أنهم نكثوا اليمين وأنشأ العزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الاسلامية على عدو الله فاخذ في التأهب لذلك فلما بلغ ذلك عماد الدين سير الى الموصل يشعره بالخبير ويستحث العساكر وسار السلطان حتى نزل على حلب في ثامن عشر جمادى الاولى من هذه السنة وأقام ثلاثة أيام ورحل في الحادي والعشرين يطلب الغزاة واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين وكان صاحب حران وكان قد استوحش من

جانب الموصل وخاف من مجاهد الدين فالتجأ الي السلطان وعبر الي قاطع
الفرات وقوى عزمه على البلاد وسهل أمرها عنده ودخل الرها والركة
ونصيبين وسروج ثم شجن على الخابور واقطعه *

﴿ ذكر نزوله على الموصل ﴾

وكان نزوله عليه في هذه الوقعة في يوم الخميس حادي عشر شهر رجب
وكنت اذ ذاك في الموصل فسيرت رسولا الى بغداد قبيلاً بأيام قلائل
فسرت مسرعاً في الدجلة وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث
مستنجداً بهم فلم يحصل منهم سوى الانفاذ الي شيخ الشيوخ وكان في صحبته
رسول من جازهم يأمرونه بالحديث معه ويتلطف الخلال معه ويسير الي بهلوان
رسولاً من الموصل يستنجدونهم فلم يحصل من جانبه سوى شرط كان
الدخول تحته أخطر من حرب السلطان ثم أقام السلطان على الموصل أياماً وعلم
انه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه ورأى أن طريق
أخذه أخذ قلائع وما حوله من البلاد واضعافه بطول الزمان فرحل عنها ونزل
على سنجار في سادس عشر شعبان وأقام يحاصرها وكان فيها شرف الدين ابن
قطب الدين وجماعة واشتد عليه الامر حتى كان ثاني شهر رمضان فأخذها
عنوة وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين الي الموصل وأعطاهما
ابن أخيه تقي الدين ورحل عنها الي نصيبين

﴿ ذكر قصة شاه أرمن صاحب خلاط ﴾

وذلك ان أصحاب الموصل أنفذوا اليه واستنجدوا به وطرخوا أنفسهم
عليه فخرج من خلاط لنصرتهم ونزل بحرمز وسير الي عز الدين صاحب

الموصل أعلمه فخرج اليه وذلك في الخامس عشر من شوال فسار حتى اجتمع به صاحب ماردين ووصل جماعة من عسكر حلب كل ذلك للقاء السلطان وأرسل شاه أرمن بكتور الى السلطان يخاطبه في الصالح بتوسط شيخ الشيوخ فلم ينتظم بينهم حال ورحل السلطان الى عسكر شاه أرمن فلما سمع شاه أرمن بوصول السلطان ولى راجعاً الي بلاده وعاد عز الدين الى بلاده وتفرقوا وسار السلطان يطاب بلد آمد فنزل عليها وقتلها وأخذها في ثمانية أيام وذلك في أول محرم سنة تسع وسبعين وأعطاهما نور الدين بن قره أرسلان . ومن علي ابن نيسان بجميع ما كان فيها من الاموال وغيرها ثم سار يطلب الشام لقصد حلب . وفي هذه المدة خرج عماد الدين وخرب قلعة اعزاز وخرب حصن كفر لاثا وأخذها من بكمش فانه كان قد صار مع السلطان في الثاني والعشرين من جمادي الاولى من السنة المذكورة وقاتل باشر وكان صاحبها ولد رم الباروق قد صار مع السلطان فلم يقدر عليها وجرت غارات من الافرنج في البلاد بحكم اختلاف العساكر ودفعم الله تعالى وتسلم الكرزين ثم عاد الى حلب

﴿ ذكر عود السلطان الى الشام ﴾

ولما عاد الى الشام بدأ بتل خالد فنزل عليها وقتلها وأخذها في الثاني والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين ثم سار طالباً حلب فنزل عليها في السادس والعشرين . وكان أول نزوله بالميدان الاخضر واستدعي العساكر من الجوانب واجتمع خلق عظيم وقتلها قتالا شديداً وتحقق عماد الدين انه ليس له قبل وكان قد ضرس من اقتراح الامراء وجههم فأشار الى حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان في اعادة بلاده وتسلم حلب اليه واستقرت القاعدة ولم

يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتي تمّ الامر واستحكمت القاعدة واستفاض ذلك واستعلم العسكر منه ذلك فأعلمهم وأذن في تدبير أنفسهم وأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك النوري وزين الدين ففعدوا غتده الى الليل واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد وذلك في السابع عشر من صفر وخرجت العساكر الى خدمته الى الميدان الاخضر ومقدمو حلب وخلق عليهم وطيب فلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضى أشغاله وينقل أمشته وخزائنه والسلطان مقيم بالميدان الاخضر الى الثالث والعشرين من صفر وفيه توفي تاج الملوك أخوه من جرح كان أصابه وشق عليه أمر موته وجلس للعزاء وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين الى خدمته وعزاه وتقررت بينهما قواعد وأنزله السلطان في الحيمة وقدم له مقدمة سنوية وخيلا جميلة وخلق على جماعة من أصحابه . وسار عماد الدين من يومه الى قرار حصار سائرأ الى سنجاب وصعد السلطان قلعة حاب مسروراً منصوراً . وعمل له حسام الدين طمان دعوة سنوية وكان قد تخلف لاخذ ما تخلف لعماد الدين من قماش وغيره وكان قد أنفذ الي حارم من يستلمها ودافعهم الموالى وأنفذ الاجناد الذين بها يستحلفونه خلف لهم وسار من وقته الي حارم فوصلها في التاسع والعشرين من صفر وتسلمها وبات بها ليلتين وقرر قواعدها وولي فيها ابراهيم بن شرده وعاد الى حاب ودخلها في ثالث ربيع الاول ثم أعطى العساكر دستوراً وسار كل منهم الي بلاده وأقام يقرر قواعد حاب ويدبر أمورها

﴿ ذكر غزاة عين جالوت ﴾

ولم يبق في حلب الا الي الثاني والعشرين من ربيع الآخر وأنشأ عزماً الي الغزاة فخرج في ذلك اليوم مبرزاً نحو دمشق واستنفض العساكر فخرجوا

يتبعونه ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادي الاولى فأقام بها متأهباً الى السابع والعشرين منه ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الحشب وتبعته العساكر مبرزة فأقام به تسعة أيام ثم رحل في ثامن جمادي الآخرة وسار حتى أتى الفؤاد وتبعي فيه للحرب وسار حتى نزل القصير فبات به وأصبح على المحاض وعبر وسار حتى أتى بيسان فوجد أهلها قد رحلوا عنها وتركوا ما كان من ثقل الأثمة والفلال والامتعة بها فنهباها العسكر وغنموا وحرقوا ما لم يمكن أخذه وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عامرة وعندها عين جارية فخيم بها وكان قد قدم عز الدين جرديك وجماعة من المماليك النورية وجاولى مملوك أسد الدين حتى يكشفوا خبر الافرنج فاتفق انهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للافرنج فوقع أصحابنا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم زهاء مائة نفر وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعي بهرام الشاووش فوصل اليه في بقية يوم الكسرة وهو العاشر من جمادي الآخرة فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر * ولما كان السبت حادي عشر وصل الخبر اليه ان الافرنج قد اجتمعوا في صفورية فرحلوا الى القولة وهي قرية معروفة وكان غرضه المصاف فلما سمع بذلك تعسب للقاء ورتب الاطلاب يمنة ويسرة وقلباً وسار للقاء العدو وسار الافرنج طالبين المسلمين ووقعت العين في العين وأخرج السلطان الجاليش خمسمائة رجل معروفة فواقموا الافرنج وجري قتال عظيم وقتل من العدو جماعة وهم ينضم بعضهم الى بعض يحمي راجلهم فارسهم ولم يخرجوا للمصاف ولم يزلوا سائرين حتى أتوا العين ونزلوا عليها ونزل السلطان حولهم والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا الى المصاف وهم لا

يخرجون لحوفهم من المسلمين فانهم في كثرة عظيمة ولما رأى انهم لم يخرجوا رأى الانتزاع عنهم لعلمهم يرحلون فيضرب معهم مصاف فرحل نحو الطور وذلك في السابع عشر من هذا الشهر فنزل تحت الجبل مترقباً رحيهم ليأخذ منهم فرصة وأصبح الافرنج في الثامن عشر راحلين راجعين على أعقابهم ناكسين فرحل رحمه الله نحوهم وجري من رمى النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة فلم يخرجوا ولم يزل المسلمون حولهم حتى نزلوا القولة المقدم ذكرها راجعين الي بلادهم فلما رأى المسلمون ذلك اجتمعوا على السلطان وأشاروا بالعود لفراغ زادهم وكان قد نال منهم بالقتل والاسر وخربت عفر بلا وقلعة بيسان وزرعين وهي من حصونهم المذكورة وخربت عليهم قري عديدة فعاد منصوراً مظفراً مسروراً حتى نزل الفوار واعطى الناس دستوراً من أثر المسير ثم سار هو حتى أتى دمشق فدخلها فرحا مسروراً في يوم الخميس الرابع والعشرين من هذا الشهر . فانظر الى هذد المهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها بل كان غرضه الاستمئانة بالبلاد على الجهاد فالله يحسن جزاءه في الآخرة كما وفقه للأعمال المرضية في الدنيا

﴿ ذكر غزاة انشأها الي الكرك ﴾

ثم انه اقام بدمشق الي ثالث رجب سنة تسع وسبعين وخرج مرارا نحو الكرك وكان قد سير الي الملك العادل وهو بمصر يتقدم اليه بالاجتماع به على الكرك فبلغه خبر حركته من مصر فخرج للقاءه وسار حتى أتى الكرك ووافاه الملك العادل عليها وقد خرج معه خلق عظيم من تاجر وغير تاجر وذلك في رابع شعبان من هذه السنة وكان قد بلغ الافرنج خبر خروجه

فساروا برجلهم وفارسهم نحو الكرك للدفع عنه وما انتهى ذلك اليه سير الملك المظفر ثقي الدين الي مصر وذلك في خامس عشر شعبان . وفي السادس عشر منه نزلت الافرنج على الكرك وتزحزح السلطان عنه بعد ان قاتله قتالا عظيما وعليه قتل شرف الدين برغش النورى شهيدا

﴿ ذكر اعطائه اخاه الملك العادل حلب ﴾

ثم رحل السلطان مستصجبا اخاه الملك العادل معه الي دمشق لياسه عن الكرك بعد نزول الافرنج عليها فدخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان واعطي اخاه الملك العادل حلب بعده تمامه بدمشق الي ثاني يوم من شهر رمضان وكان بها ولده الملك الظاهر ومعه سيف الدين يازكج يدبر أمره وابن العميد في البلد . وكان الملك الظاهر من أحب الاولاد الي قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والنطنة والعقل وحسن السمات والشغف بالملك وظهور ذلك كله وكان أبر الناس بوالده وأطوعهم له ولكن أخذ منه حلب لمصاحبة رآها فخرج من حلب لما دخل الملك العادل هو ويازكج سائرين الي خدمة السلطان فدفع دمشق الثامن عشر من شوال فاقام في خدمة أبيه لا يظهر له الا الطاعة والانقياد مع انكسار في باطنه لا يخفي عن نظر والده وفي ذلك الشهر وردنا على السلطان رسلا من جانب الموصل وكنا قد توصلنا الي الخليفة الناصر لدين الله في انفاذ شيخ الشيوخ بدر الدين رسولاً وشفيعاً الي السلطان فسيره معنا من بغداد وكان غزير المروءة عظيم الحرمة في دولة الخليفة وفي سائر البلاد وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتردد اليه اذا كان عنده في معظم الايام *



﴿ ذكر وصولنا الى خدمته رسلاً ﴾

وكان الشيخ قد وصل الى الموصل وسار منها في صحبة القاضي محي الدين ابن كمال الدين وكان بينهم صحبة من الصبا وكنت مع القوم وسرنا حتى آتينا دمشق وخرج السلطان الى لقاء الشيخ ونحن في خدمته فلقيه عن بعد وكان دخولنا الى دمشق يوم السبت حادي عشر ذي القعدة من هذه السنة ولقينا من السلطان كل جميل فيما يرجع الي الاكرام والاحترام وأقمنا أياما نراجع في فصل حال فلم يتفق صلح في تلك الوقعة وخرجنا راجعين الى الموصل وخرج السلطان الي وداع الشيخ الي القصر واجتهد في ذلك اليوم أن ينقضى شغل فلم يتفق * وكان الوقوف من جانب محي الدين . فان السلطان اشترط أن يكون صاحبا اربل والجزيرة على خيرتهما في الانتماء اليه أو الي الموصل فقال محي الدين لا بد من ذكرهما في النسخة فوقف الحال . وكان مسيرنا سابع ذي الحجة وفي تلك الدفعة عرض على السلطان موضع البها الدمشقي بمصر على لسان الشيخ فاعتذرت ولم أفعل خوفا من أن يحال بوقف الحال على ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمر لم أعرفه الا بعد خدمتي له وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب فوصل رسول سنجر شاد صاحب الجزيرة فاستحلفه لنفسه في الانتماء اليه ورسول اربل وحلف لهما وسارا . ووصل اليه أخوه الملك العادل رابع ذي الحجة فاقام عنده وعيد وتوجه الي حلب المحروسة

﴿ ذكر غزاة أخري الى الكرك ﴾

وصل ابن قره أرسلان نور الدين الى حلب ثامن عشر صفر سنة

ثمانين فآكرمه الملك العادل آكراما عظيما وأصعده الى القلعة وبأسطه ورحل معه طالبا دمشق فى السادس والعشرين منه . وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله * ولما بلغه وصول قره أرسلان خرج الى لقائه وكان السلطان يكارم الناس مكارمة عظيمة فالتقاء على عين الجسر بالبقيع وذلك فى التاسع ربيع الاول ثم عاد الى دمشق وخلف نور الدين واصلامع الملك العادل فتأهب للزاة وخرج مبرزا الى جسر الحشب فى منتصف ربيع الاول وفى الرابع والعشرين منه وصل الملك العادل ومعه ابن قره أرسلان الى دمشق فاقاما بها أياما ثم رحلا يلتحقان بالسلطان من رأس الماء طالبا للكرك فاقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر الى التاسع عشر ربيع الآخر فوصل الى خدمته ومعه بيت الملك العادل وخزائنه فسيرهم الى الملك العادل وتقدم اليه والى بقية العساكر بالوصول اليه الى الكرك فتتابع العساكر الى خدمته حتى أحذقوا بالكرك وذلك فى رابع جمادى الاولى وركب المناجيق على المكان وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية أيضا مع قره أرسلان * ولما بلغ الافرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم الى الذب عن الكرك وكان على المسلمين منه ضرر عظيم فانه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج الامع العساكر الجمة الففيرة فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة الى مصر . ولما بلغ السلطان خروج الافرنج تعبأ للقاء وأمر العساكر أن خرجت ظاهر الكرك وسير الثقل نحو البلاد وبقي العسكر جريدة ثم سار السلطان يقصد العدو . وكان الافرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله وسارحتى نزل على قرية يقال لها حسبان قبالة الافرنج ورحل منها الى موضع يقال له ماء عين والافرنج مقيمون بالواله الى السادس والعشرين من جمادى الاولى ثم

رحلوا قاصدين الكرك فسار بهض العساكر وراءهم فقاتلهم الى آخر النهار . ولما رأي قدس الله روحه تصميم الافرنج على الكرك أمر العساكر ان يدخلوا الساحل لخلوه عن العساكر فهجموا نابلس ونهبوها وغنموا ما فيها ولم يبق فيها الا حصنها وأخذوا جانين والتحقوا بالسلطان برأس الماء وقد نهبوا وأسروا وأحرقوا وخربوا واتفق دخول السلطان دمشق يوم السبت سابع جمادي الاخرى ومعه الملك العادل ونور الدين ابن قره أرسلان فرحاً مسروراً وأكرمه واحترمه وأحسن اليه . وفي هذا الشهر وصل رسول الخليفة ومعه الخلع فلبسها السلطان وألبس أخاه الملك العادل وابن أسد الدين خلعا جاءت لهم . وفي الرابع عشر من هذا الشهر خلع السلطان خلعة الخليفة على ابن قره أرسلان وأعطاه دستورا وأعطاه العساكر . وفي ذلك التاريخ وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخا الى السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا مع مجاهد الدين قايماز على اربل وأنهم نهبوا وأحرقوا وأنه نصر عليهم وكسرهم

﴿ ذكر خروج السلطان الي جهة الموصل في الوفة الثانية ﴾

ولما سمع السلطان ذلك رحل من دمشق يطلب البلاد وتقدم الى العساكر فتبعته وسار حتى أتى حران على طريق البيرة والتي مع مظفر الدين بالبيرة في الثاني عشر من محرم سنة احدى وثمانين وتقدم السلطان الى سيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العسكر الى رأس العين ووصل السلطان حران الثاني والعشرين من صفر . وفي السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه وحديث كان بلذنه عنه رسول فلم يقف عليه وأنكره فأخذ منه قلعة حران والرهاثم أقام في الاعتقال تأديباً الى

مستهل ربيع الاول ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد اليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده وأعادته الى قانونه في الاكرام والاحترام ولم يتخلف له سوي فلعة الرها ووعدده بها ثم رحل السلطان ثاني ربيع الاول الى رأس العين ووصله في ذلك رسول قليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان ان لم يمد عن الموصل وماردين وأنهم على عزم ضرب المصاف معه ان أصر على ذلك فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصله ثامن ربيع الاول عماد الدين بن قره أرسلان ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين فالتقاهم واحترمهم ثم رحل من دنيسر حادي عشر نحو الموصل حتى نزل موضعاً يعرف بالاسماعيلان قريب الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جديدة يحاصر الموصل فبلغ عماد الدين بن قره أرسلان موت أخيه نور الدين فظاب من السلطان دستوراً طمعاً في ملك أخيه فأعطاه دستورا

﴿ ذكر موت شاه أرمن صاحب خلاط ﴾

ولما كان ربيع الآخر سنة احدى وثمانين توفي شاه أرمن صاحب خلاط وولى بعده غلامه بكتمر وهو الذي وصل رسولاً الى خدمة السلطان بسنجار فعدل وأحسن الي أهل خلاط وكان متصوناً في طريقته فأطاعه الناس ومالوا اليه * ولما ملك خلاط امتدت نحوه الاطماع لموت شاه أرمن فسار نحوه بهلوان بن الدكر . فلما بلغه ذلك سير الى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط اليه واندراجه في جملة واعطائه ما يرضيه فطمع السلطان في خلاط وارتحل عن الموصل متوجهاً نحوها وسير الى بكتمر الفقيه عيسى وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها فوصلت

الرسل وبهلوان قد قارب البلاد جداً فتخوف بهلوان من السلطان فطلب بهلوان اصلاحه وزوجه ابنة له وولاه وأعاد البلاد اليه واعتذر الى رسل السلطان وعادوا من غير زبدة * وكان السلطان قد نزل على ميا فارقين خاصرها وقتلها قتالاً شديداً ونصب عليها مجانيق وكان بها رجل يقال له الأسد وما قصر في حفظها لكن الأقدار لا تغلب فلملكها السلطان في التاسع والعشرين من جمادي * ولما أيس من أمر خلاط عاد الى الموصل فنزل بعيداً عنها وهي الوقعة الثالثة بموضع يقال له كفر زمار وكان الحر شديداً فأقام مدة . وفي هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة واجتمع به فأعاده الي بلده ومرض رحمه الله بكفر زمار مرضاً شديداً خاف من غائته فرحل طالباً حران وهو مريض وكان يتجد ولا يركب محفة فوصل وهو شديد المرض وبلغ الى غاية الضعف وأيس منه ورجف بموته فوصل اليه أخوه من حلب ومعه أطباؤه

﴿ ذكر صلح الموصله معه ﴾

وكان سبب ذلك ان عز الدين أتاك صاحب الموصل سيرني الى الخليفة يستنجده فلم يحصل منه زبدة فلما وصلت من بغداد ورددت جواب الرسالة أيس من نجدة فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلدوا سرعة انقياده ورقة قلبه في ذلك الوقت فندبوني لهذا الامر وبهاء الدين الريب وفوض اليّ أمر النسخة التي حلف بها وقالوا امضيا ما يصل اليه جهدكما وطاقتكما فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان وكان وصواننا في أوائل ذي الحجة فاحترمنا احتراماً عظيماً وجلس لنا وكان أول جلوسه من مرضه وحلف في يوم عرفة وأخذنا منه بين النهرين وكان

أخذها من سنجر شاه فأعطاها المواصلة وحلقته يمينا تامة وحلفت أخاه الملك العادل ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه وسرنا معه وهو بجران وقد تماثل ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص وكانت وفاته يوم عرفة وجلس الملك العادل للامراء * وفي تلك الايام كانت وقعة التركمان مع الاكراد وقتل بينهم خلق عظيم * وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان ابن الدكر وكانت وفاته في سلخ ذى الحجة

﴿ ذكر عود السلطان الى الشام ﴾

ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب وكان وصوله اليها رابع عشر محرم سنة اثنى عشر وثمانين وكان يوما مشهودا لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه فاقام بها اربعة ايام ثم رحل نحو دمشق ولاقه أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه بتل السلطان ومعه أخته وقد صحبه خدمة عظيمة فمن عليه بخص وأقام أياما يعتبر تركة أبيه ثم سار يطلب جهة دمشق وكان دخوله اليها في ثاني ربيع الاول وكان يوما لم ير مثله فرحا وسرورا ووقعت في هذا الشهر وقعات كثيرة بين الترك والاكراد بأرض نصيبين وغيرها وقتل من الفئتين خلق عظيم وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصا بالراوند فكتب الي عسكر حلب أن حاصروه * وفي ثاني جمادى الأولى وصل معين الدين من الراوند وقد سلمها الي علم الدين سليمان ثم مضى الي خدمة السلطان * وفي سابع عشر وصل الملك الافضل الي دمشق ولم يكن قد رأى قبل ذلك الشام



﴿ ذكر مسير الملك العادل الي مصر ووصول الملك الظاهر الي حلب ﴾

وذلك أن السلطان رأي ذهاب الملك العادل الي مصر فانه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر ايزبل تقاويضها بذلك وهو على حران مريض وقد حصل ذلك في نفس الملك العادل فانه كان يحب الديار المصرية فلما عاد السلطان الي دمشق ومن الله بما فيته سير يطلب الملك العادل الي دمشق نخرج من حلب جريدة في الرابع والشرين من ربيع الأول وسار حتي اتي دمشق فاقام بها في خدمة السلطان تجرت بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرير الي جمادى الآخرة واستقرت القاعدة على عود الملك العادل الي مصر وتسليم حلب وسير الصنيعة لاحضار أهله من حلب وكان الملك الظاهر أيده الله والملك العزيز بدمشق في خدمة والدهما فلما استقرت القاعدة على عود الملك العادل الي مصر استقرت على ان يكون أتابك الملك العزيز وسلده والده اليه يربي أمره وسلم الملك العادل حلب الي الملك الظاهر * ولقد قال لي الملك العادل انه لما استقرت عليه هذه القاعدة واجتمعت بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر وجلست بينهما قات للملك العزيز يامولاي ان السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك الي مصر وأنا أعلم أن المفسدين كثير وغدا لا يخلون ممن يقول عني ما لا يجوز ويخوفونك مني فان كان لك أذن تسمع فقل لي حتي لا أجيء فقال لا أسمع وكيف يكون ذلك * ثم التفت وقات للملك الظاهر أنا اعرف أن أخاك ربما يسمع في أقوال المفسدين وأنا فإلى الا أنت متي ضاق صدري من جانبه فقال مبارك وذكر كل خير * ثم ان الملك الظاهر سيره والده الي حلب ليعلمه أن حلب هي اصل الملك وجرثومته وقاعدته ولهذا دأبت في طلبها ذلك الدأب * ولما حصلت أعرض عما عداها من بلاد المشرق وقنع منهم بالطاعة

والمعونة على الجهاد فسلمها اليه علما منه بمحذاقته وحزمه وحفظه وثباته وعلو همته فسار اليها حتى العين المباركة وسير في خدمته الشحنة حسام الدين بشارة وواليا عيسى بن بلاشوا فنزل بعين المباركة وخرج الناس الي لقائه في بكرة تاسع جمادى الاخرى وصعد القلعة ضحوة نهار وفرح الناس به فرحا شديداً ومد على الناس من جناح عدله . وأفاض عليهم وابل فضله * وأما الملك العزيز والملك الدايل فان السلطان قرر حالتها وكتب الي الملك المظفر يخبره بمسير الملك العزيز وهو صبيبة عمه ويأمره بالوصول الى الشام وشق ذلك عليه حتى أظهر للناس وعزم على المسير الى ديار الغرب الي برقا فقبج ذلك عليه جماعة من اكابر الدولة وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده في الحال والله أعلم بما يكون منه بعد ذلك فرأي الحق بعين البصيرة وأجاب بالسمع والطاعة وسلم البلاد ورحل واصلا الي خدمة السلطان فسار السلطان الي لقائه وفرح بوصوله فرحا شديداً وذلك في الثالث والعشرين من شعبان وأعطاه حماه وسار اليها وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتم ذلك ودخل بها في السادس والعشرين من شهر رمضان ودخل الملك الافضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوال من السنة المذكورة المباركة

﴿ ذكر غزاة انشأها الي الكرك ﴾

ولما كان محرم سنة ثلاث وثمانين عزم على قصد الكرك فسير الي حلب من يستحضر العسكر وبرز من دمشق في منتصف محرم فسار حتى نزل بارض نيطرة منتظرا اجتماع العساكر المصرية والشامية وأمر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارات على ما في طريقهم من البلاد الساحلية ففعلوا ذلك وأقام بارض الكرك حتى وصل الحاج الشامي الي الشام وأمنوا غائلة العدو

ووصل قفل مصر الشتوي ووصل معه بيت الملك المظفر وما كان له بالديار المصرية وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالافرنج بارض الارمن من بلاد ابن لاون وذلك انه قد مات ملك الافرنج ووصى لابن أخيه بالملك وكان الملك المظفر بجماه وبلغ السلطان الخبر فأمرهم بالدخول الى بلاد العدو واخذوا ثأرتهم وسار الملك المظفر بعسكر حلب الي حارم فأقام بها ليعلم العدو ان هذا الجانب ليس بمهمل فعاد السلطان الي الشام ونزل بعشرا في السابع عشر من ربيع الاول ولقيه ولده الملك الافضل ومظفر الدين ابن زين الدين وجميع العساكر . وكان قد تقدم الى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي مع الافرنج ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد فصالحهم في العشر الاواخر من ربيع الاول وتوجه الى حماه يطلب خدمة السلطان للغزاة التي عزم عليها فسار ومن اجتمع به من العساكر الشرقية في خدمته وهم عسكر الموصل مقدمتهم مسعود ابن الزعفراني وعسكر ماردين فلقبهم السلطان في العشر الاوسط من ربيع الآخر فأقرهم واکرمهم وفي منتصف هذا الشهر عرض السلطان العسكر لامر قد عزم عليه على تل يعرف بتل تيسيل تيسل وتقدم الى أصحاب الميمنة بحفظ موضعهم والى أصحاب الميسرة بذلك والى القلب بمثله

﴿ ذكر وقعة حطين المباركة على المؤمنين ﴾

وذلك أن السلطان رأي ان نعمه الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله اياه في البلاد وانقياد الناس لطاعته ولزومهم قانون خدمته ليس لها شكر سوي الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد الي اقامة قانون الجهاد فسير الى سائر العساكر واستحضرها واجتمعوا اليه بعشرا في التاريخ المذكور

وعرضهم ورأيهم واندفع قاصداً نحو بلاد العدو المخذول في نهار الجمعة سابع عشر ربيع الآخر وكان أبدأً يقصد بوقعاته الجمع سيما أوقات صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فر بما كانت أقرب الي الاجابة فسار في ذلك الوقت على تعبئة الحرب وكان بلغه أن العدو لما بلغهم انه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بارض عكا وقصدوا نحو المصاف معهم فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصبيرة ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبئة الحرب منتظرا أن الافرنج اذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من منزلهم وكان نزوله في هذه المنزلة يوم الاربعاء الحادي والعشرين فلما رأهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب بحالها قبالة وجه العدو ونازل طبرية وزحف عليها فهجمها وأخذها في ساعة من نهار وامتدت الايدي اليها بالنهب والأسر والحرق والقتل واحتمت القلعة وحدها . ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية لم يأخذهم الصبر دون اجابة الحمية فرحلوا من وقهم وساعتهم وقصدوا طبرية للدفع عنها فأخبرت الطلائع الاسلامية الامراء بحركة الافرنج فسيروا الي الساطان من عرفه ذلك فترك على طبرية من يحفظها وقلعتها ولحق المسكر هو ومن معه فالتقى المسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها وذلك في أواخر الخميس الثاني والعشرين وحال الليل بين الثنين فتبايتا على مصاف شاكى السلاح الي صبيحة الجمعة في الثالث والعشرين فركب المسكران وتصادما وعملت الجاليشية وتحركت الاطلاب والتجم القتال واشتد الامر وذلك بارض قرية تسمى اللويا وضاق الخناق بالقوم هذا وهم سارون كأنما يساقون الي الموت وهم ينظرون * وقد أيقنوا بالويل والثبور * وأحست أنفسهم أنهم

في غد زوار القبور * ولم يزل الحرب يلتحم * والفارس مع قرنه يصطدم
 * حتي لم يبق الا الظفر * ووقع الوبال على من كفر * فخال بينهما الليل
 وظلامه وجري في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة . والامور الجسيمة . ما لم
 يحك عن تقدم وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة وقد
 أقعده التعب عن النهوض * وشغله نصب عن الجبو فضلا عن الركوض .
 حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه فطلب كل من الفريقين مقامه وعلمت
 كل طائفة ان المكسورة بينهما مدحورة الجنس معا ومة النفس . وتحقق
 المسلمون ان من ورائهم الاردن ومن بين أيديهم بلاد القوم وان لا ينجيهم الا الله
 تعالى وكان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسره * وأجره على وفق ما قدره * فحملت
 الاطلاب الاسلامية من الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد
 فالتى الله الرعب في قلوب الكافرين . وكان حقا علينا نصر المؤمنين * وكان
 القومص ذكي القوم وأطغاهم فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه ولم
 يشغله ظن محاسنة حذسه عن تعبته ^(١) فهرب في أوائل الامر قبل اشتداده
 وأخذ طريقه نحو صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجوا وحده . وأمن الاسلام
 كيده واحتاط أهل الاسلام باهل الكفر والطغيان من كل جانب واطلقوا
 عليهم السهام وعاملوهم بالصفاح وانهزمت منهم طائفة فتبعوا أبطال المسلمين
 فلم ينج منها واحد واعتصمت الطائفة الاخرى بتل يقال له تل حطين وهي
 قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الانبياء
 فضايقتهم المسلمون على التل واشعلوا حوائهم النيران وقتلهم
 العطش وضاق بهم الامر حتى كانوا يستسلمون للاسر خوفاً من

القتل فأسر مقدموهم وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم الملك جفري والبرنس أرناط وأخو الملك والبرنس هو صاحب الشوبك وابن الهنفرى وابن صاحب طبرية ومقدم الداوية وصاحب حبيل ومقدم الاستبار وأما الباقون من المقدمين فأنهم قتلوا وأما الادوان فأنهم قسموا الى قبيل وأسير ولم يسلم منهم الا من أسر وكان الواحد العظيم منهم يخذل الى الاسر خوفاً على نفسه ولقد حكى لي من اثق به انه لقي بحوران شخصاً واحداً معه طنّب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم * فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم * أما القومص الذي هرب فانه وصل الى طرابلس وأصابته ذات الجنب فاهلكه الله بها . وأما مقدم الاستبار والداوية فان السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة أبيهم . وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر انه اذا ظفر به قتله وذلك انه كان عبر به بالشوبك قافلة من الديار المصرية في حالة الصلح فنزلوا عنده بالامان فغدر بهم وقتلهم فنادوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم وبلغ ذلك السلطان فحملة الدين والحمية على انه نذر إن ظفر به قتله . ولما فتح الله بالنصر والظفر جلس السلطان في دهليز الخيمة فأنها لم تكن نصبت والناس يتقربون اليه بالاسرى ومن وجدوه من المقدمين ونصبت الخيمة وجلس فرحاً مسروراً لما أنعم الله به عليه ثم استحضر الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط وناول الملك جفري شربة من حلاب بثاج فشرب منها وكان على أشد حال من العطش ثم ناول بمضها البرنس أرناط فقال السلطان للترجمان قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته وكان على عادة جميل العرب

وكريم أخلاقهم ان الاسير اذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن بذلك جرياً على مكارم الاخلاق ثم أمرهم بمسيرهم الي موضع عين لنزولهم فوضوا واكلوا شيئاً ثم عادوا فاستحضرهم ولم يبق عنده سوي بعض الخدم وأقعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس أرناط وأوقته على ما قال وقال له ها أنا انتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل ثم سل النجاة وضربه بها فحل كفته وتم عليه من حضر وعجل الله بروحه الي النار فأخذ ورمى على باب الخيمة فلما رآه الملك قد خرج به على تلك الصورة لم يشك أنه يثني به فاستحضره وطيب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك * وأما هذا فانه تجاوز حدّه فجرى ماجري * وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور . واكل حبور . ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح في يوم الاحد وتسلم قدس الله روحه في بقية ذلك اليوم فلعة طبرية وأقام بها الي يوم الثلاثاء * ثم رحل طالباً عكا وكان نزوله عليها يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر وقائلها يوم الخميس مستهل جمادي الاولى فاخذ واستمقذ من كان فيها من الاسارى وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر واستولي على ما فيها من الاموال والذخائر والبضائع والتجائر فانها كانت مظنة التجار ونفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والاماكن المنيعه واخذوا نابلس وحينفا وقيسارية وصفورية والناصره وكان ذلك لخلوها عن الرجال بالفتك والأسر * ولما استقرت قواعد عكا واقتسم الغانمون اموالها وأسارها سار يطب تبين فنزل عليها يوم الاحد ثاني عشر جمادي الاولى وهي قلعة منيعه فنصب عليها المناجيق وضيق عليها بالزحف الخناق وكان بها رجال ابطال شديدون في

ديهم فاحتاجوا الى معاناة شديدة ونصره الله عليهم وتسلمها ثامن عشر عنوة وأسر من بقي بها بعد القتل ثم رحل منها الي صيدا فنزل عليها ومن الغد تسلمها وأقام عليها بحيث قرر قاعدتها * ثم سار حتى اتى بيروت فنازلها في الثاني والعشرين فركب عليها القتال والزحف وضيق عليهم الامر حتى أخذها في التاسع والعشرين وتسلم أصحابه حبيلا وهو على بيروت * ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ولم ير الاشتغال بصور بعد ان نزل عليها ومارسها لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل وذهب كل انسان يأخذ لنفسه شيأ وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب وكان قد اجتمع في صور كل افرنجي بقي في الساحل فرآى قصد عسقلان لان أمرها كان أيسر ونازلها في السادس والعشرين من جمادى الآخرة وتسلم في طريقه مواضع كثيرة كالرمة وبيننا والدارون وأقام عليها المنجنقات وقانها قتالا شديدا وتسلمها سلخ هذا الشهر وأقام عليها الي أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبرين والنظرون بغير قتال وكان بين فتوح عسقلان وأخذ الافرنج لها من المسلمين خمسة وثلاثون سنة فان العدو ملكها في سبعة وعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسةائة

﴿ ذكر فتوح القدس الشريف حرسها الله تعالى ﴾

ولما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده واجتمعت عليه العساكر التي كانت منفردة في الساحل بعد انقضاء لباتها من النهب والغارة فسار نحوه معتمدا على الله مفوضاً أمره اليه منتزاً فرصة فتح باب الخير الذي حث عليه صلي الله عليه وسلم بقوله من فتح باب خير فليتمزه فانه لا يدري متى يفتاق دونه وكان نزوله عليها في الخامس عشر

من رجب سنة ثلاثة وثمانين المباركة فنزل بالجانب الغربي وكان مشحونا بالمقاتلة والحيلة والرجالة * ولقد تحازر اهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفا ما عدا النساء والصبيان * ثم انتقل رحمه الله لمصاحبة رآها الى الجانب الشمالي ونصب عليه المجانيق وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية * ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الامر الذي لا يندفع عنهم وظهرت لهم امارات نصرة الحق على الباطل وكان قد التقي في قلوبهم الرعب مما جرى على ابطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ علموا أنهم الى ما صاروا اليه صائرون * وبالسيف الذي قتل به اخوانهم مقتولون فاستكانوا وأخذوا الى طاب الامان واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين وكان تساهه القدس قدس الله روحه في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليلة كانت ليلة المراج المنصوص عليها في القرآن المجيد . فانظر الى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده الى أيدي المسلمين في مثل زمان الاسراء بنبيهم صلى الله عليه وسلم وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى وكان فتوحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم ومن أرباب الحرف والطرق وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل وشاع قصده القدس قصده العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور وارتفعت الاصوات بالضحيج والدعاء والتهليل والتكبير وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه . وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة وكان شكلا عظيما ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر * وكانت قاعدة الصلح انهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير وعن

كل امرأة خمسة دنانير صورية وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً فمن أحضر القطيعة سلم نفسه والا أخذ أسيراً وفرج الله عن من كان أسيراً من المسلمين وكان خلقاً عظيماً زهاء ثلاثة آلاف أسير وأقام رحمه الله يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء وإيصال من دفع قطيعته منهم إلى مأمته وهو صور . ولقد بلغني أنه رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك الملك شيء وكان مئتي الف دينار وعشرين الف دينار وكان رحيله يوم الجمعة الخامسة والعشرين من شعبان

﴿ ذكر قصده صور ﴾

ولما ثبت قدم السلطان بملك القدس والساحل قويت نفسه على قصد صور وعلم أنه إن أخر أمرها ربما اشتد فرحل سائراً إليها حتى عكا فنزل عليها ونظر في أحوالها ثم رحل متوجهاً إلى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان وسار حتى أشرف عليها ونزل قريباً منها ينتظر وصول آلات القتال وكان لما تحرر عزمه على قصد صور سير إلى ولده الملك الظاهر يستحضره وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب لاشتغاله هو بأمر الساحل فقدم عليه في الثامن عشر على تلك المنزلة وسر بوصوله سروراً عظيماً * ولما تكاملت عنده آلات القتال من المناجيق والمدببات والستائر وغير ذلك نزل عليها في الثامن والعشرين وضائقها وقتلها قتالاً عظيماً واستدعى اسطول مصر وكان يحاصرها من البحر والسكر من البر وكان قد خلف أخاه الملك العادل بالقدس يقرر قواعده فاستدعاه فوصل إليه في خامس شوال وسير من حاصر هونين فسلمت في الثالث والعشرين من شوال

﴿ ذكر كسرة الاسطول ﴾

وذلك انه قدم على الاسطول انسان يقال له الفارس بدران وكان ناهضاً جلدأً في البحر وكان رئيس البحريين يقال له عبد المحسن وكان قد اكد عليهم الوصية وأخذ حذرهم وتيقظهم لئلا تنهز منهم فرصة نخالفوه وغفلوا عن أنفسهم في الليل فخرج أسطول الكفار من صور وكبسوهم وأخذوا المقدمين مع خمسة قطع وقتلوا خلقاً عظيماً من الاسطول الاسلامي وذلك في السابع والعشرين من شوال فلما علم السلطان ماتم على المسلمين ضاق عطنه وكان قد هجم الشتاء وتراكت الامطار وامتنع الناس من القتال من شدة المطر فجمع الامراء واستشارهم فيما يفعل فاشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر جزءاً من الراحة ويستعدوا لهذا الامر استعداداً جديداً فرأى ذلك رأياً ورحل عنها بعد أن رمي المنجنيقات وسيرها وأحرق ما لا يمكن نقله وكان رحيله ثانی ذی القعدة من هذه السنة ففرق العساكر وأعطاهما دستوراً وسار كل قوم الى بلادهم وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين

﴿ ذكر نزوله على كوكب ﴾

ولما دخلت عليه هذه السنة المباركة رأى الاشتغال بالحصون الباقية لهم مما يضعف قلوب من في صور وينهى أمرها به فاشتغل بذلك ونزل على كوكب في أوائل محرم وكان سبب بداءته بكوكب أنه قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن تدخل اليهم قوة فخرج الافرنج ليلاً وأخذوا غرتهم وكبسوهم بعفر بلا وقتلوا مقدمهم وكان من الامراء يعرف بسيف الدين أخى

الجالولي وأخذوا أسلحتهم فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن معه من خواصه فإنه كان قد أعطى العساكر دستوراً وعاد أخوه الى مصر وولده الى حلب واتي في طريقه شدة من الثلج والبرد فحملته مع ذلك الحمية على النزول عليها وأقام يقاتلها مدة . وفي تلك المنزلة وصلت الي خدمته فاني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين وكانت وقعة ابن المقدم وجرح يوم عرفة على عرفة لحلف جري بينه وبين أمير الحاج طستكين على ضرب الكوس والبدبدة فان أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدم وكان من اكبر أمراء الشام وكان كثير الغزاة فقدر الله أن جرح بعرفة يوم عرفة ثم حمل الي منى مجروحاً ومات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الاكبر وصلى عليه في مسجد الحيف في بقية ذلك اليوم ودفن بالاملا وهـذا من أتم السادات وبلغ ذلك السلطان فشق عليه ثم اتفق لى العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته والجمع بين زيارة النبي صلي الله عليه وسلم وزيارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فوصلت الى دمشق ثم خرجت الي القدس فبلغته خبر وصولي فظن اني وصلت من جانب الموصل في حديث فاستحضرني عنده وبلغ في الاكرام والاحترام . ولما ودعته ذاهباً الى القدس خرج لى بعض خواصه وأبلغني تقدمه الي بأن أعود أتمثل في خدمته عند العود من القدس فظننت أنه يوصيني بهم الي الموصل وانصرفت الي القدس يوم رحيله عن كوكب ورحل لأنه علم أن هذا الحصن لا يؤخذ الا بجمع العساكر عليه وكان حصنا قوياً وفيه رجال شداد من بقايا السيف وميرة عظيمة فرحل الي دمشق وكان دخوله اليها في سادس ربيع الاول . وفي ذلك اليوم اتفق دخولي اليها عائداً من القدس وأقام بها خمسة أيام فكان له عنها ستة عشر شهراً وفي اليوم

الخامس بلغه خبر الافرنج انهم بحبيلا واغتالوها فخرج مسرعاً ساعة بلوغ الخبر وكان قد سير الي العساكر يستدعيها من سائر الجوانب وسار يطلب حبيلا فلما عرف الافرنج بخروجه كفوا عن ذلك وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين الي حلب قاصدين الخدمة للفرقة فصار نحو حصن الاكراد في طلب الساحل النوقاني

﴿ ذكر دخوله الساحل الأعلى وأخذه اللاذقية وجبله وغيرها ﴾

ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قبالة حصن الاكراد ثم سير الي الملك الظاهر والملك المظفر ان يجتمعا وينزلا بتبرين قبالة انطاكية ليحفظ ذلك ابواب وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت لخدمة السلطان في هذه المنزلة ووصلت اليه بها على عزم المسير الي الموصل متجهزاً لذلك فلما حضرت عنده فرح بي واكرمني وكنت قد جمعت له كنباً في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها يجمع أحكامه وآدابه فقدمته بين يديه فأعجبه وكان يلزم مطالبته ومازات أطلب دستوراً في كل وقت وهو يدافعني عن ذلك ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت ويلمني على السنة الحاضرين ثناءه على وذكره اياي بالجميل فأقام في منزله ربيعاً الآخر جميعه وصعد في أثناءه الي حصن الاكراد وحاصرها يوم مجيئه بها فما رأى الوقت يحمل حصاره واجتمعت العساكر من الجوانب وأغار على بلد طرابلس في الشهر دفتين ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر ويقويه العساكر بالغنائم ثم نادى في الناس في أواخر الشهر انا داخلون الساحل وهو قليل الأزواد والعدو يحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر ثم سير الي مع الفقيه عيسى وكشف الي انه ليس في عزمه ان يمكنني من الود

الى بلادي وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيتُه وحبه الجهاد فأحبيته
لذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادي الاولي سنة أربع وثمانين وهو يوم
دخوله الساحل وجميع ما حكيتُه قبل إنما هو روايتي عن أُنق به ممن شاهدته
* ومن هذا التاريخ ماسطرت الا ماشاهدته أو أخبرني به من أثنى به خبراً
يقارب العيان والله الموفق * ولما كان يوم الجمعة رابع جمادي الاولي رحل
السلطان على تعبئة لقاء العدو ورتب الاطلاب وسارت الميمنة أولاً ومقدمها
عماد الدين زنكي والقلب في الوسط والميسرة في الآخر ومقدمها مظفر الدين
وسار الثقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل فبنينا تلك الليلة في بلد العدو
ثم رحل ونزل على الدريمة فلم يقاتلها ولم يتعرض لها ووصل في السادس
الى أنطرسوس فوقف، قبالتها ينظر اليها وكان في عزمه الاجتياز فانه كان له
عمل بجبله فاستهان بأمرها ففزم على قتلها فسير من رد الميمنة وأمرها
بالنزول على جانب البحر وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر
ونزل هو في موضعه وصارت العساكر محذقة بها من البحر الى البحر وهي
مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين حصينان وركب هو وقارب
البلد وأمر الناس بالزحف والقتال فابسوا الامة الحرب والقتال والزحف
وضايقتهم فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور وأخذوها بالسيف
وغنم العسكر جميع من بها وما بها وخرج الناس والاسري وأموالهم بأيديهم
وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالذهب والكسب ووفى بقوله نتغدى
بانطرسوس ان شاء الله وعاد الى خيمته فرحاً مسروراً . وحضرنا عنده للهناء
بما جري ومد الطعام وحضر الناس واكلوا على عادتهم ورتب على البرجين
الباقين الحصار فسلم أحدهما مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخرجه وأخذ

من كان فيه وأمر السلطان باخراب سور البلد وقسمه على الامراء وشرعوا في اخراجه وأخذوا يحاصرون الآخر . وكان حصناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت وقد اجتمع من كان فيها من الحيلة والبطارقة والمقاتلة فيه وخندقه يدور فيه الماء وفيه فروج كثيرة يخرج الناس منها عن بعد وليس له قدر يخرج عليه مسلم فرأى السلطان تأخير أمره والاشتغال بما هو أهم منه فاشتد في اخراب السور حتى أتى عليه وخرب البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم مجوج اليها من أقطار بلادهم وأمر بوضع النار في البلد فأحرق جميعه حتى كان تتأجج النار في ارزده وبيوته والاصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير فأقام عليها يخربها الي الرابع عشر وسار يريد جبلة وكان عرض له ولده الملك الظاهر في أثناء طريق جبلة فانه طلبه وأمره أن يحضر معه جميع العساكر التي كانت بتبرين

﴿ ذكر فتوحه جبلة واللاذقية ﴾

ووصل الى جبلة في الثامن عشر وما استتم نزول العساكر حتى أتى البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع وبقيت القلعة ممتنعة فاشتغل بقتالها فقاتل قتالا يقيم عذراً لمن كان فيها وسلمت بالامان في التاسع عشر وأقام عليها الي الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقية وكان نزوله عليها في الرابع والعشرين وهي بلد مايح خفيف على القلب غير مستور . وله ميناء مشهور دوله قلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد فنزل محققاً بالبلد وأخذ المسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما الامن ناحية البلد واشتد القتال وعظم الزحف وارتفعت الاصوات وقوي الضجيج الي آخر اليوم المذكور . وأخذ البلد دون القلعتين وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فانه كان بلد التجار ففرق بين الناس الليل وهجومه واصبح

يوم الجمعة مقاتلاً مجتهداً في أخذ النقب وأخذت النقب من شمالي القلاع وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ما حكى لي من ذرعه ستين ذراعاً وعرضه أربعة أذرع واشتد الزحف عليهم حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة باليد فلما رأى عدو الله ما حل بهم من الصغار والبور استغاثوا بطلب الامان عشية الجمعة الخامسة والعشرين من الشهر وطلبوا قاضي جبلة يدخل اليهم ليقرر لهم الامان فأجيبوا الى ذلك . وكان رحمه الله متى طلب منه الامان لا يبخل به رفقاً فماد الناس عنهم الي خيامهم وقد أخذ منهم التعب فباتوا الي صبيحة السبت ودخل قاضي جبلة اليهم واستقرّ الحال معهم على انهم يطلقون بنفوسهم وذرائعهم وأموالهم خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب وأطلق لهم دواب يركبونها الي ما منهم ورقي عليها العلم الاسلامي المنصور في بقية ذلك اليوم وأقنا عليها الي السابع والعشرين

﴿ ذكر فتوح صهيون ﴾

ورحل عن اللاذقية طالبا صهيون واستدارت العساكر بها من سائر نواحيها في التاسع والعشرين ونصب عليها ستة مناجيق وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة وليس لها خندق محفور الا من جانب واحد مقدار طوله ستون ذراعاً أو أكثر وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سور دون ربضها وسور دون القلعة وسور القلعة وكان على قلمتها علم طويل منصوب فحين أتبل العسكر الاسلامي شاهده قد وقع فاستبشر المسلمون بذلك وعلموا أنه النصر والفتح واشند القتال عليها من سائر الجوانب فصرها بمنجنيق الملك الظاهر صاحب حلب وكان نصب

منجنيقا قريبا من سورها فقطع الوادي وكان صائب الحجر فلم يزل يضرها حتى هدم من السور قطعة عظيمة يمكن الصاعد في السور الترقى اليه منها ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادي الآخرة عزم السلطان وتقدم وأمر المنجنيقات ان تتوالي بالضرب وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل وما كان الاساعة حتى رقي المسلمون على الاسوار التي للربض واشند الزحف وعظم الامر وهجم المسلمون الربض * ولقد كنت اشاهد الناس وهم يأخذون التمدور وقد استوى فيها الطعام فيا كانوا هم يقاتلون وانضم من كان في الربض الى القلعة ويحملون ما أمكنهم ان يحملوا من أموالهم ونهب الباقي واستدارت المقاتلة حول اسوار القلعة ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الامان ووصل خبرهم الى السلطان فبذل الامان وأنعم عليهم على ان يسلموا بأنفسهم وأموالهم ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير ومن المرأة خمسة وعن الصغير ديناران وسلمت القلعة وأقام السلطان عليها حتى سلم عدة قلاع كالعيد وفيجه وبلاطيس وغيرها من القلاع والحصون تسلمها النواب

﴿ ذكر فتوح بكاس ﴾

ثم رحل وسرنا حتى أتينا سادس جمادي الآخرة بكاس وهي قلعة حصينة على جانب العاصي ولها نهر يخرج من تحتها وكان المنزل على شاطئ العاصي وصعد السلطان جريدة الى القلعة وهي على جبل يطل على العاصي فأحرق بها من كل جانب وقتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزحف المضايق الى تاسع الشهر ويسر الله فتحها عنوة وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ما كان فيها وكان لها قلعة تسمى الشمر قريبة منها يدبر اليها منها بحسر وهي في غاية المنعة ليس اليها طريق فسلطت عليها المنجنيقات من

الجوانب ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا الامان في الثالث عشر وسألوا ان يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بانطاكية فأذن في ذلك وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني عليها يوم الجمعة سادس عشر ثم عاد السلطان الى الثقل وسير ولده الملك الظاهر الي قلعة سرمانية فقاتلها قتالاً شديداً وضايقها مضايقة عظيمة وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر فاتفقت فتوحات الساحل من جبلة الي سرمانية في أيام الجمع وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر لنا الله التتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتواليه ولم ينسني مثلها في تاريخ *

ذكر فتوح برزية

ثم سير السلطان جريدة الي قلعة برزية وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج والمسلمين يحيط بها اودية من سائر جوانبها وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها واستدعى الثقل وكان نزول الثقل وبقية المسكر تحت جبلها في الرابع والعشرين من الشهر وفي بكرة الخامس والعشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار الي الجبل فأحذقت بالقاعة من سائر نواحيها وركب القتال من كل جانب وضرب اسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً وفي السابع والعشرين قسم العساكر ثلاثة أقسام ورتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار ثم يستريح ويسلم القتال للقسم الآخر بحيث لا يفتقر القتال عنها أصلاً وكان صاحب النوبة الاولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتلها قتالاً

شديداً حتى استوفى نوبته وضرس الناس من القتال وتراجعوا واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه وركب وتحرك خطوات عدة وصاح في الناس فحملوا عليها حملة الرجل الواحد وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن الا بعض ساعة حتى رقي الناس على الاسوار وهجموا القلعة وأخذت القلعة عنوة فاستغاثوا الأمان وقد تمكنت الايدي منهم فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ونهب جميع ما فيها وأسر جميع من كان فيها وكان قد أوى اليها خلق عظيم وكانت من قلاعهم المذكورة وكان يوماً عظيماً وعاد الناس الى خيامهم غانمين وعاد السلطان الى الثقل فرحاً مسروراً وأحضر بين يديه صاحب القلعة وكان رجلاً كبيراً منهم وكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً فنّ عليهم ورق لهم وأنفذهم الي صاحب انطاكية استمالة له فانهم كانوا يتعلقون به ومن أهله

﴿ ذكر فتوح دربساك ﴾

ثم رحل حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً وسار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن عشر رجب وهي قلعة منيعة قريبة من انطاكية فنزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً بالمجنقات وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة ووقف في الثغرة رجال يحمونها ممن يصمد فيها ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه وهم قيام في عرض الجدار مكشفون فاشتد بهم الامر حتى طلبوا الامان واشتروطوا مراجعة انطاكية وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم ووثاب أبدانهم لا غير ورق عليها العلم الاسلامي في الثاني والعشرين من رجب وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر وسار عنها في الثالث والعشرين منه

﴿ ذكر فتوح بغراس ﴾

وهي قلعة منيعة أقرب الي انطاكية من دربساك وكانت كثيرة العدة
والرجال فنزل العسكر في مرج لها واحدى العسكر بها جريدة مع انا
احتجنا الي يزك في تلك المنزلة يحفظ جانب انطاكية لئلا يخرج منها من
يهاجم العسكر فضرب يزك الاسلام على باب انطاكية بحيث لا يشد عنه من
يخرج منها وانا ممن كان في اليزك في بعض الايام لرؤية البلد وزيارة حبيب
النجار المدفون فيها ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الامان
على استئذان انطاكية ورتي العلم الاسلامي عليها في ثاني شعبان . وفي بقية ذلك
اليوم عاد رحمه الله الي الخيم الاكبر وراسله أهل انطاكية في طلب الصلح
فصالحهم لشدة ضجر العسكر وقوة نلق عماد الدين صاحب سنجار في طلب
الاستور وعقد الصلح بيننا وبين انطاكية من بلاد الافرنج لا غير على أن يطلقوا
جميع أسارى المسلمين الذين عندهم وكان الي سبعة أشهر فان جاءهم من
ينصرهم والا ساموا البلد الي السلطان . ورحل يطلب دمشق فسأله ولده
الملك الظاهر أن يجتاز به فاجابه وسار حتى أتى حلب حادي عشر شعبان وأقام
بقلعتها ثلاثة أيام وولده يقوم بالضيافة حق القيام ولم يبق من العسكر الامن ناله
من نعمته منال واكثر ظنى أنه أشفق عليه والده وسار من حلب يريد دمشق
فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين واصعه الي قلعة حماه واصطنع له
طعاما حسنا وأحضر له سماع الصوفية وبات فيها ليلة واحدة وأعطاه جبلة
واللاذقية وسار على طريق بملبك حتى أتاها وأقام بمرجها يوما ودخل الي
حماها وسار منها حتى دخل رمضان وما كان يري تخلية وقته عن الجهاد مهما
امكنه وكان قد بقى له القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها

كصفد وكوكب فرأى ان يشغل الوقت بفتح المكاين في الصوم

﴿ ذكر فتح صفد ﴾

ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد ولم يلتفت الى مفارقة
 الامل والاولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الانسان أين كان فيجتمع
 فيه بأهله . اللهم انه احتمل ذلك ابتغاء مرضاتك فآته أجرا عظيما . فسار حتى
 أتى صفد وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوارها فاحدق
 العسكر بها ونصب عليها المناجيق في أثناء شهر رمضان المبارك وكانت
 الامطار شديدة والوحول عظيمة ولم يمنعه ذلك عن جده * ولقد كنت عنده
 في خدمته ليلة وقد عين مواضع خمس مناجيق فقال ما ننام حتى تنصب الخمسة
 وسلم كل منجنيق الى قوم ورسله تتواتر اليهم يعرفونهم وكيف
 يصنعون حتى أظله الصبح وقد فرغت المنجنيقات ولم يبق التركيب خنازيرها
 فيها فرويت له الحديث المشهور في الصحاح وبشرته بمقتضاه وهو قوله صلي
 الله عليه وسلم « عيمان لاتمسهما النار عين باتت تحرس في سبيل الله وعين بكت
 من خشية الله » * وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب
 صاحبها وخلصود بها من الاسر وكان قد أسرف في وقعة حطين المباركة ثم لم
 يزل القتال على صفد متواصلا بالبون مع الصوم حتى ساءت بالامان في
 رابع عشر شوال

﴿ ذكر فتوح كوكب ﴾

ثم سار يريد كوكب فنزل على الجبل وجرده العسكر وأحدق بالقامة
 وضائقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوز نواب العدو ونباله حائطا من

حجر وطين يستتر وراءه حتى لا يقدر احد يقف على باب خيمة الآ ان كان
 ملبساً وكانت الامطار متواترة والوحول عظيمة وعانى شدائد وأهوالاً من
 شدة الرياح وتراكم الامطار وكون العدو مسايطاً عليهم بملو مكانه وقتل وجرح
 جماعة ولم يزل راكباً مركب الجدد حتى تمكن النقب من سورها * ولما
 أحس العدو المخدول انه مأخوذ طلب الامان فاجابهم الى ذلك وأمنهم وتسلمها
 في منتصف ذي القعدة ونزل على الفور الى الثقل وكان قد انزله من شدة
 الوحل والريح في سطح الجبل فاقام بقية الشهر يراجعه أخوه الملك العادل
 في أشغال شخصية حتى هلّ هلال ذي الحجة وأعطى الجماعة دستوراً وسار
 مع أخيه يريد القدس لزيارته ووداع أخيه فانه كان عائداً الى مصر فوصلا
 اليه يوم الجمعة ثامن ذي الحجة وصاينا الجمعة في قبة الصخرة الشريفة وصلينا
 صلاة العيد الاعظم بها أيضاً يوم الاحد وسار حادى عشر طالباً عسقلان
 لينظر في حالها فاقام بها أياماً يلم شعها ويصالح أحوالها فودع أخاه وأعطاه
 الكرك وأخذ منه عسقلان وعاد يطلب عكا على طريق الساحل ويمر على
 البلاد فيقتدأحوالها ويودعها الرجال والعدد حتى أتى عكا فاقام بها معظم محرّم
 سنة خمسة وثمانين ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بعمارة السور
 والاطناب فيه ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق مستهل صفر
 سنة خمسة وثمانين

﴿ ذكر توجهه الى شقيف أرنون وهي السفرة المتصلة بواقعة عكا ﴾

وأقام بدمشق حتى دخل في ربيع الاول ثلاثة أيام ووصله في أثناء ربيع
 الاول رسل الخليفة الناصر لدين الله يأمره بالحطبة لولده وليّ العهد فخطب
 له وجدد عزمه على قصد شقيف أرنون وهو موضع حصين قريب من

بانياس وكان تبريزه في الثالث فسار حتى نزل مرج برغوث وأقام به ينتظر
العساكر الى حادي عشرة ورحل حتى أتى بانياس ثم رحل منها حتى أتى
مرج عيون في السابع عشر فخيم به وهو قريب من شقيف أرنون بحيث يركب
كل يوم يشارفه والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب فاقمنا أياما
نشرف كل يوم على الشقيف والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح مترابدة
العدد والعدد وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة فرأى ان
اصلاح حاله معه قد تعين طريقاً الى سلامته فنزل بنفسه وما أحسننا به الا
وهو قائم على باب خيمة السلطان فاذن له فدخل فاحترمه واکرمه وكان من
كبار الافرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شيء من
التواريخ وبلغني انه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وكان عنده ثاب فحضر بين
يدي السلطان وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر له انه مملوكه وانه تحت
طاعته وانه يسلم المكان اليه من غير تعب واشترط أن يعطي موضعاً يسكنه
بدمشق فانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج واقطاعا بدمشق يقوم
به وباهله وان يمكن من الإقامة بموضعه وهو يتردد الى الخدمة ثلاثة اشهر
من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخلص اهله وجماعته من صور
فاجيب الي ذلك كله واقام يتردد الى خدمة السلطان في كل وقت وينظره في
دينه ويناظره في بطلانه وكان حسن المحاورة ومتأدبا في كلامه وفي اثناء ربيع
الاول وصل الخبر بتسليم الشوبك وكان قد أقام السلطان عليه جمعاً عظيماً
يحاصرونه مدة سنة حتى فرغ زادهم وسلموه بالامان

﴿ ذكر اجتماع الافرنج تقصد عكا ﴾

وكان السلطان اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان انه ان أمر الملك

بتسليمها اطلقه فامرهم بتسليمها وسلموها فطالبه الملك باطلاقه فاطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن الاكراد من انطرسوس واشترط عليه أن لايشهر في وجهه سيفاً أبداً ويكون غلامه ومملوكه وطليقه أبداً فنكث لعنه الله فجمع جموعاً وأتى صور يطلب الدخول اليها فخيم على بابها يراجع المركيس الذي كان بها في ذلك الوقت وكان المركيس اللعين رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد في دينه وصرامة عظيمة فقال انني نائب للملوك الذين وراء البحر وما أذنوا لي في تسليمها اليك وطالت المراجعة واستقرت القاعدة بينهما على ان يتفقوا جميعاً على المسلمين وتجمع العساكر بصور وغيرها من الافرنجية على المسلمين وعسكروا على باب صور

﴿ ذكر الواقعة التي استشهد فيها أبك الأخرش ﴾

وذلك انه لما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الاولى من السنة المذكورة بلغ السلطان من اليزك ان الافرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وبقيت الارض التي نحن عليها فركب السلطان وصاح الجاوش فركب العسكر يريدون نحو اليزك فوصل العسكر وقد انفصلت الواقعة وذلك ان الافرنج عبر منهم جماعة الجسر فنهض لهم اليزك الاسلامي وكانوا في قوة وعدة فقاتلوهم قتالاً شديداً وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجرحوا اضعاف ما قتلوا ورموا في النهر جماعة ففرقوا ونصر الله الاسلام وأهله ولم يقتل من المسلمين الامملوك للسلطان يعرف بأبك الأخرش فانه استشهد في ذلك اليوم وكان شجاعاً باسلاً مجرباً في الحرب فارساً تقنطربه فرسه فلجأ الي صخرة فقاتل بالنشاب حتي فني ثم بالسيف حتي قتل جماعة ثم فكأثروا عليه فقتلوه ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته وعاد السلطان الي خيم

كانت قد ضربت له قريب المكان جديدة

﴿ ذكر واقعة ثانية استشهد فيها جمع من رجالة المسلمين ﴾

وأقام في تلك الحميم الي التاسع عشر وركب يشرف على القوم على عادته فتبع انسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة وحرص في ردهم فلم يفعلوا ولقد أمر من ضربهم فلم يفعلوا وخاف عليهم فان المكان كان حرجا ليس للرجال فيه ملجأ ثم هجم الرجالة الي الجسر وناوشوا العدو وعبر منهم جماعة اليهم وجري بينهم قتال شديد واجتمع بهم من الافرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان فانه كان بعيدا عنهم ولم يكن معه عسكر فانه لم يخرج بتعبية قتال وانما ركب مستشرفا عليهم على العادة من كل يوم ولما بان له الواقعة وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الامر قد فرط والافرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفرة عظيمة وجري بينهم وبين السرية قتال شديد وأسرجاعة من الرجالة وقتلوا جماعة وكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفرا وقتل أيضا من الافرنج عدة عظيمة وغرق أيضا منهم عدة وكان ممن قتل منهم مقدم الألمانية وكان عندهم عظيما محترما واستشهد من المعروفين من المسلمين ابن البصاروا وكان شابا حسنا شجاعا واحتسبه والده في سبيل الله ولم تقطر من عينه عليه دمعة على ما ذكر جماعة لازموه وهذه الواقعة لم يتفق للافرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدها ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه العدة في هذه المدة



﴿ ذكر مسير جريدة الي عكا وسبب ذلك ﴾

ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في تلك الواقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقدر معهم انه يهجم على الافرنج ويعبر الجسر ويقتلهم ويستأصل شأقتهم وكان الافرنج قد رحلوا من صور ونزلوا قريب الجسر وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ فلما صمم العزم على ذلك أصبح يوم الخميس سابع عشر وركب وسار وتبعه الناس والمقاتلة والعساكر ولما وصل أواخر الناس الى أوائلهم وجدوا اليزك عائداً وخيامهم قد قلعت فستلوا عن سبب ذلك فذكروا ان الافرنج رحلوا راجعين الي صور ملتجئين الي سورها معتصمين بقربها وأنهم لما بلغهم ذلك عادوا ولما رأى السلطان ذلك منهم رأى أن يسير الي عكا ليلحظ ما بنى من سورها ويحث على الباقي فضى الي عكا ورتب أحوالها وأمر بتمتة عمارة سورها واتقانه وإحكامه وأمرهم بالاحتياط والاحتراز وعاد الي العسكر المنصور الي مرج عيون منتظراً مهلة صاحب الشقيف لعنه الله

﴿ ذكر وقعة أخرى ﴾

ولما كان يوم السبت سادس جهادى الآخرة بلغه ان جماعة من رجاله العدو يسطون ويصلون الي جبل تبنين يحتطبون وفي قلبه من رجاله المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم فرأى أن يقرر قاعدة وكينا يرتبه لهم ويأخذهم فيه وبلغه انه يخرج وراءهم أيضاً خيلاً تحفظهم فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع ثم أنفذ الي عسكر تبنين وتقدم اليهم أن يخرجوا في نفر يسير غاثرين على تلك الرجالة وأن خيل العدو اذا تبعتهم ينهزمون الي جهة عينها

لهم وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة وأرسل الي عسكر
عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو حتى اذا تحركوا في نصرة أصحابهم
قصدوا خيمهم وركب هو وجفله سحر يوم الاثنين شاكى السلاح متجردين
ليس معهم خيمة الى الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبين ورتب العسكر ثمانية
أطلاب واستخرج من كل طلب عشرين فارساً من الشجعان الجياد الخيل
وأمرهم أن يترأوا للعدو حتى يظهروا اليهم ويناشوهم وينهزموا بين أيديهم
حتى يصلوا الي الكمين ففعلوا ذلك وظهر لهم من الافرنج معظم عسكرهم
يقدمهم الملك وكان قد بلغهم الخبر وتعبوا تعبية القتال وجرى بينهم وبين هذه
السرية اليسيرة قتال شديد والتزمت السرية القتال وأنفوا عن الانهزام بين
أيديهم وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان ولقائهم العدو الكثير بذلك الجمع
اليسير واتصل الحرب بينهم الى أواخر نهار الاثنين ولم يرجع منهم أحد الي
العسكر ليخبرهم بما جرى واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الامر وقد هجم
الليل فبعث اليهم بعوثاً كثيرة حين علم ضيق الوقت عن المصاف وفوات
الامر ولما بصر الافرنج بأوائل المدد قد لحق السرية عادوا منهزمين ناكسين
على أعقابهم بعد ان جرت مقتلة عظيمة من الجانبين وكانت القتلى من الافرنج
على ما ذكر من حضر فاني لم أكن حاضرها زهاء عشرة أنفس ومن المسلمين
سته أنفار اثنان من اليزك وأربعة من العرب منهم الامير رامل وكان شابا
تاما حسن الشباب مقدم عشيرته . وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه
فقاده ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضاً وأسر هو وثلاثة من أهله . ولما
بصر الافرنج بالمدد للعسكر قتلوهم خشية الاستمقاذ وجرح خلق كثير من
الطائفتين وخيل كثيرة . ومن نوادر هذه الوقعة أن مملوك السلطان أنخن

بالجراح حتي وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دمًا وبات ليلته أجمع على تلك الحالة الى صبيحة يوم الثلاثاء ففقد أصحابه فلم يجدوه فعرفوا السلطان فقده فأنفذ من يكشف خبره فوجدوه بين القتلي على مثال هذه الحالة فحملوه ونقلوه الى المخيم على تلك الحال وعافاه الله وعاد السلطان الي المخيم يوم الاربعاء عاشر الشهر منصوراً* فرحاً مسروراً

﴿ ذكر أخذ أصحاب الشقيف وسبب ذلك ﴾

ثم استفاض بين الناس ان صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لانه صادق في ذلك وانما قصده فيه تدفع الزمان وظهر لذلك مخائل كثيرة من الحرص في تحصيل الميرة واتقان الابواب وغير ذلك فرأى السلطان أن يصعد الى سطح الجبل ليقرب من المكان ويرسل سرا من يمنع من دخول النجدة والميرة اليه وأظهر أن سبب ذلك شدة حرّ الزمان والفرار من وخم المرج. وكان انتقاله الى سطح الجبل ليلة الثاني عشر من الشهر وقد مضى من الليل ربه فما أصبح صاحب الشقيف الا والحية مضروبة وبقى بعض العساكر بالمرج على حاله فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه وعلم انه بقي من المدة بقية جمادي الآخرة حدثه نفسه أنه ينزل الي خدمة السلطان ويستعطفه ويستزيده في المدة وتخيل له بما رأى من أخلاق السلطان واطافته ان ذلك يتم فنزل الي الخدمة وعرض المكان وقال المدة لم يبق منها الا اليسير وأي فرق بين التسليم اليوم أو غداً وأظهر أنه بقي من أهله جماعة بصور وأنهم على الخروج منها في هذه الايام وأقام في الخدمة ذلك اليوم الي الليل وصعد القلعة ولم يظهر له السلطان شيئاً وأجراه على عادته وتقضي مدته ثم عاد ونزل بعد أيام وقد قرب انتهاء المدة والفراغ منها وطلب الخلو بالسلطان وسأل منه أن

يمهله تمام السنة تسعة أشهر فاحس السلطان منه الذدر فباطله وما أيسره
وقال نتفكر في ذلك ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم وما ينفصل الحال عليه
نذر ذلك وضرب له خيمة قريبة من خيمته وأقام عليه حرساً لا يشعربهم وهو
على غاية من الاكرام والاحترام له والمراجعة والمراسلة بينهم في ذلك الفن
مستمرة حتي انقضت الايام وطولب بتسليم المكان فكشف له أنك أضمرت
الذدر وجددت في المكان عمائر * وحملت اليه ذخائر فانكر ذلك واستقرت
القاعدة على ان ينفذ من عنده ثقتة وينفذ السلطان ثقة يتسلم المكان وينظر
هل تجدد فيه شيء من البناء أم لا فوضوا اليه فلم يلتفت أصحابه المقيمون فيه اليهم
ووجدوه قد جدد بابا للسور لم يكن فاقم الحرس الشديد عليه واطهر ذلك
ومنع من الدخول الي الخدمة وقيل له قد انقضت المدة ولا بد من التسليم
وهو يغالط عن ذلك ويدافع عن الجواب عنه * ولما كان الثامن عشر من جمادى
الآخرة وفيه اعترف بانتهاء المدة قال أنا أمضى واسلم المكان وسار معه جمع
كثير من الامراء والاجناد حتى أتى الشقيف وأمرهم بالتسليم فأبوا فخرج اليه
قسيس وحدثه بلسانه ثم عاد واشتد امتناعهم بعد عود القسيس اليهم فظن
انه أكد الوصية على القسيس في الامتناع وأقام ذلك اليوم والحديث يتردد
فلم يلتفتوا واعيد الي الخيم المنصور وسير من ليانته الي بانياس واحيط عليه
بقلعها فاحدق المسكر بالشقيف مقاتلين ومحاصرين وأقام صاحب الشقيف
بانياس الي سادس رجب واشتد حنق السلطان على صاحب الشقيف بسبب
تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره ولم يعملوا فيها شيئاً فاحضر الي الخيم
وهدد ايلة وصوله بأمور عظيمة فلم يفعل وأصبح السلطان ثامن رجب وورقي
الي سنام الجبل مخيمه وهو موضع مشرف على الشقيف من المكان الذي كان

فيه أولى وأبعد من الوخم وكان قد تغير مزاجه * ثم بلغنا بعد ذلك ان
الافرنج بصور مع الملك قد ساروا نحو النواكير يريدون جهة عكا وان بعضهم
نزل بالاسكندرونة وجرى بينهم وبين رجاله المسلمين مناوشة وقتل منهم
المسلمون نفرا سيرا وأقاموا هناك

﴿ ذكر وقعة عكا ﴾

وذلك انه لما بلغ السلطان حركة الافرنج الي تلك الجهة عظم عليه
ولم ير المسارعة خوفا من ان يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف لا قصد
المكان فاقام مستكشفاً للحال الي ثانی عشر رجب فوصل قاصد آخر ان
الافرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصة ووصل أوائلهم الي الزيت
فعظم ذلك عندد وكتب الي سائر أرباب الاطراف يتقدمون بالعساكر
الاسلامية بالمسير الي الخيم المحروس وعاد في د الكتب والحث وتقدم الي الثقل
أن سار بالليل وأصبح هو صبيحة الثالث عشر سائراً الي عكا على طريق طبرية
اذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر الا هو وسير جماعة على طريق تبنين
يستظلمون العدو ويواصلون باخباره وسرنا حتي آتينا الحولة منتصف النهار
فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى آتى موضعاً يقال له المنية
صباح الرابع عشر وفيه بلغنا نزول الافرنج على عكا يوم الاثنين الثالث عشر
وسير صاحب الشقيف الي دمشق بعد الاهانة الشديدة على سوء صنيعة
وسار هو جريدة من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على
طريق تبنين بمرج صفورية فانه كان واعدهم اليه وتقدم الي الثقل ان يلحقه
الي مرج صفورية ولم يزل حتى شارف العدو من الحروبة وبعث بعض العسكر
ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ولم يزل يبعث اليها بعثا بعد

بعث حتى حصل فيها خلق كثير وعدد وافر ورتب العسكر ميمنة وميسرة
وقلباً وسار من الحروبة وكان قد نزل عليها خامس عشر الشهر فسار منها
حتى أتى تل كيسان في أوائل مرج عكا وأمر الناس أن ينزلوا به على تلك
التعبية وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو وآخر الميمنة مقارب تل
العياضية فاحتاط العسكر الاسلامي المنصور بالمدو والمخدول وأخذ عليهم الطرف
من الجوانب وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت ورتب اليزك الدائم
والجاليش في كل يوم مع العدو وحصر العدو في خيامه من كل جانب
بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحداً ولا يخرج أو يقتل وكان معسكر العدو
على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلين قريباً من باب البلد وكان
عدد رايكهم ألفي فارس وعدد راجلهم ثلاثين الفا وما رأيت من أنقصهم عن
ذلك ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ومددهم من البحر لا ينقطع
وجري بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والمسلمون يتهافنون على
قتالهم والسلطان يمنعهم من ذلك الى وقته والبعوث من العساكر الاسلامية
تتواصل والملوك والامراء من الاقطار تتتابع فأول من وصل الامير الكبير
مظفر الدين بن زين الدين* ثم قدم بعده الملك المظفر صاحب حماه وفي أثناء
هذا الحال توفي حسام الدين سنقر الاخلاطي وأسف المسلمون عليه اسفاً
شديداً فإنه كان شجاعاً ديناً* ثم ان الافرنج لما تكاثروا واستفحل أمرهم
استداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج وذلك في يوم الخميس سلخ
رجب* ولما رأى السلطان ذلك عظم لديه وضاق صدره وثارت همته
العلية وفتح الطريق الى عكا لتستمر السابلة اليها بالميرة والنجدة وغير ذلك
فأحضر أمراءه وأصحاب الرأي من دولته وشاورهم في مضايقة القوم وانفصل

الحال على انه يضايقهم مضايقة شديدة بحيث ينفضل أمرهم بالكفاية ويفتح الباب والطريق الي عكا فباكرهم صبيحة الجمعة مستهل شعبان وسارمع العسكر وقد رتبته للقتال ميمنة وميسرة وقلبا وضايقهم مضايقة شديدة وكانت الحملة بعد صلاة الجمعة اغتناما لدعاء الخطباء على المنابر وجرت حملات عظيمة وقلبات كثيرة واتصل الحرب الى أن حال بين الثنتين هجوم الليل وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكي السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الطائفة الاخرى

﴿ ذكر فتح الطريق الي عكا ﴾

ولما كانت صبيحة السبت أصبح الناس على القتال وأنفذ السلطان طائفة من شجمان المسلمين الى البحر من شمالي عكا ولم يكن هناك للعدو خيم لكن العسكر كان قد امتدجريدة الى البحر فحملوا عليهم فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعا كثيرا وانكف السلمون منهم الى خيامهم وهجم المسلمون خلفهم الى أوائل خيامهم وانفتح الطريق الي عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى باب قراقوش الذي جدده وصار الطريق مهيمعا يمر فيه السوق ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة واليزك بين الطريق وبين العدو مانعا من يخرج من عسكرهم أو يدخل ودخل السلطان في ذلك اليوم الى عكا ورقى على السور ونظر الى عسكر العدو تحت السور وفرح المسلمون بنصر الله وخرج العسكر الذي كان بها في خدمة السلطان واستدار العسكر الاسلامي حول العسكر الانرنجي وأحدقوا بهم من كل جانب * ولما استقر به ذلك تراجع الناس عن القتال وذلك بعد الظهر لسقى لدواب وأخذ الراحة وكان نزولهم على أنهم اذا أخذوا حظا من الراحة عادوا

الى القتال لمناجزة القوم وضاق الوقت وأخذ الضجر والتعب من الناس فلم يرجعوا الى القتال في ذلك اليوم وبات الناس على أنهم يصبحونهم بكرة الأحد الى القتال رجاء المناجزة بالكافية واختفى العدو في خيامهم بحيث لم يظهر منهم أحد . ولما كانت بكرة الاحد ثالث شعبان تعبي الناس للقتال وأحدقوا بالمدو وعزموا على مهاجمة القوم وعلى أن يترجل الامراء ومعظم العسكر ويقاتلوا العدو في خيامه فلما تهيأوا لذلك رأى بعض الأمراء تأخير ذلك الي بكرة الاثني رابع شعبان وأن يدخل الراجل كله الي داخل عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من أبواب البلد على العدو من ورائه وتركب العساكر الاسلامية من خارج من سائر الجوانب ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان يوالي هذه الامور بنفسه ويكافها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الشكى * ولقد أخبرني بعض أطبائه انه بقى من يوم الجمعة الي يوم الاحد لم يتناول من الغذاء الا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه وفعولوا ما كان عزم عليه واشتدت منعة العدو وحمى نفسه في خيامه ولم ترل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفاس * وتمطر سماء حربها الرؤس من كل رئيس ومترأس حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان

﴿ ذكر تأخر الناس الى تل العياضية ﴾

ولما كان الثامن عزم العدو على الخروج بجمعهم نخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التناول وساروا الهوينا غير مفرطين في أنفسهم ولا خارجين من راجلهم حيث كانت الرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضا حتى قاربوا خيام اليزك . ولما رأى المسلمون ذلك واقدم العدو عليهم شدوا

وتنازعت الشجعان * وتنازلت الكهامة الى الاقران * وصاح السلطان بالمساكر
الاسلامية يا للاسلام فركب الناس بأجمعهم ووافق فارسهم راجلهم وشابهم
شيخهم وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخذول فعادنا كصاً على عقبيه
والسيف يعمل فيهم والسلم منهم جريح . والعاجب طريق مشتدون هزيمة
يعبر جريحهم بقتيلهم ولا تلوى الجماعة منهم على قتيلهم حتى لحق الخيام من
سلم منهم وانكفوا عن القتال أياماً وكان رأيهم ان يفظوا نفوسهم * ويحرسوا
رؤسهم * واستقر فتح طريق عكا وانسلمون يترددون اليها وكنت ممن
دخل ورقى على السور ورمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور ودام
القتال بين القشتين متصلاً الليل والنهار حتى كان الحادي عشر من شعبان
ورأى السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون الي مصارعهم فنقل
الثقل الى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلين مشرف على عكا وخيام
العدو * وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين ظمان وكان من الشجعان ودفن في
سفح هذا التل وصايت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان وقد
مضى من الليل هزيع رحمه الله

﴿ ذكر واقعة جرت للعرب مع العدو ﴾

وكان سبب ذلك انه بلغنا ان جمعا من العدو يخرجون للاحتشاش من
طرف النهر مما يثبت عليه فاكمن السلطان لهم جماعة من العرب وقصد
العرب لحقتهم على خيلهم وأمنه عليهم نخرجوا ولم يشعروا بهم فهاجموا عليهم
وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا جماعة وأحضروا رؤساء عديدة بين يديه
نخلع عليهم وأحسن اليهم وكان ذلك في السادس عشر * وفي عشية ذلك
اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيم قتل فيه جمع عظيم من

الطائفتين فطال الامر بين الفئتين وما بخلوا يوماً من قتل وجرح وسي ونهب وأنس البعض بالبعض بحيث ان الطائفتين كانا يتحدثان ويتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ثم يرجعون الي القتال بعد ساعة * وكان الرجال يوماً من الطائفتين قد سئموا من القتال فقالوا الي كم نقاتل الكبار وليس للصغار حظاً نريد ان يتصارع صبيان منا ومنكم فأخرج صبيان من البلد الي صبيين من الافرنج واشتد الحرب بينهم فوثب أحد الصبيين المسلمين الي أحد الكافرين فاخطفه وضرب به الارض وقبضه أسيراً فاشتراه بعض الافرنج بدينارين وقالوا هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه وهذه نادرة غريبة ووصل للفرنج مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر وما زال يسبح وهم حوله يردونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون

﴿ ذكر المصاف الاعظم على عكا ﴾

وذلك انه لما كان يوم الاربعاء الحادي والعشرون تحركت عساكر الافرنج حركة لم تكن لهم بمثلاً عادة فارسهم ورجالهم وكبيرهم وصغيرهم فاصطفوا خارج خيبتهم قلباً وميمنة وميدرة وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمولاً مستوراً بثوب أطلس مغطى يمسكه أربعة أنفوس بأربعة أطراف وهم يسرون بين يدي الملك وامتدت الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الاسلام من أولها الي آخرها وكذلك ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا الي آخرها وملكوا رؤس التلال وكان طرف ميمنتهم الي النهر وطرف ميسرتهم الي البحر . وأما العسكر الاسلامي المنصور فان السلطان أمر الجاويش ان نادى في الناس يا اسلام وعساكر الموحدين فركب الناس وقد باعوا أنفسهم

بالجنة ووقفوا بين أيدي خيامهم وامتدّت الميمنة الى البحر والميسرة الى النهر كذلك أيضاً وكان رحمة الله قد أنزل الناس في الحميم ميمنة وميسرة وقلبا تعبئة الحرب حتى اذا وقعت صيحة لا يحتاجون الي تجديد ترتيب وكان هو في القلب وفي ميمنة القاب ولد الملك الافضل ثم عسكر المواسلة يقدمهم ظهر الدين ابن البانكري ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين ابن نور الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس ثم الطواشي قايماز النجمي وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر * وأما أوائل الميسرة فكان مماليلي القلب سيف الدين على المشطوب وعلى بن أحمد من كبار ملوك الاكراد ومقدميهم والامير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية ومجاهد الدين برتقش مقدم عسكر سنجار وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكج ورسالان بغا وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل ومقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه * هذا والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه يحثهم على القتال * ويدعوهم الي النزال * ويرغبهم في نصر دين الله ولم يزل القوم يتقدمون * والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى فيه مقدار أربع ساعات وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين فأخرج لهسم الملك المظفر الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على الملك المظفر وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيأ اطماعاً لهم عليهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً فلما رأى السلطان ذاك ظن به ضعفاً وأمدّه باطلاب عدة من القلب حتى قوى جانبه وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت

على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب
ومن خرج منه من الاطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة
القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم ولتمد رأيت الرحالة
تسير سير الخيالة وهم يسبقتون حينما وجاءت الحملة على الديار البكرية كما
شاء الله تعالى وكان بهم غرعة عن الحرب فتحركوا بين يدي العدو وانكسروا
كسرة عظيمة وسري الامر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المهزمن
الى العياضية فانهم استداروا حول التل وصعد طائفة من العدو الى خيمة
السلطان فقتلوا طشت داركان هناك * وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل
المكبس وابن رواحة رحمها الله * وأما الميسرة فانها نبتت لأن الحملة لم تصادفها
واما السلطان فاخذ يطوف على الاطلاب فينهضهم ويعددهم الوعود الجميلة
ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم يا لاسلام ولم يبق معه الا خمسة أنفس وهو
يطوف على الاطلاب ويخرق الصفوف ويأوي الى تحت التل الذي كان
عليه الخيام * وأما المهزمنون من العسكر فانهم بلغت هزيمتهم الى الفخوانة
قاطع جسر طبرية وأم منهم قوم محروسة دمشق فاما المتبعون لهم فانهم
اتبعوهم الى العياضية فلما رأوهم قد صعدوا الى الجبل رجبوا عنهم وجاؤا
عائدين الى عسكرهم فلقبهم جماعة من الفلمان والخريندية والساسة
مهنزين على بغال الحمل فقتلوا منهم جماعة ثم جاؤا على رأس السوق
فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة فان السوق كان عظيما ولهم
سلاح * واما الذين صعدوا الى الخيام السلطانية فانهم لم يلتمسوا فيها
شيأ أصلا سوي أنهم قتلوا من ذكرنا وهم ثلاثة نفر رأوا ميسرة
الاسلام ثابتة فعلموا ان الكسرة لا تتم فعادوا منحدرين من التل يطالبون

عسكرهم * واما السلطان فان كان واقفاً تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا الي الحملة على العدو فلما رأوا الافرنج نازلين من التل ارادوا اللقاءهم فأمرهم بالصبر الي أن ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم فصاح في الناس فحملوا عليهم فطرحوا منهم جماعة فاشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم والطرده وراءهم فلما رأوهم منهزمين والمسلمون وراءهم في عدد كثير ظنوا أن من حمل منهم قد قتل وانهم انما نجوا منهم هذا النصر فقط وان الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الحرب والهزيمة وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتجمعت الرجال وتداعت وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ونصر الايمان وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح الي ان اتصل المنهزمون السلمون الي عسكرهم فهجم عليهم في الخيام فخرج منهم اطلاب كانوا أعدوها خشية من مثل هذا الامر مستريحة فردوا المسلمون وكان التعب قد اخذ من الناس والعرق قد أجمعهم فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم الي خيامهم فرحين مسرورين وعاد السلطان في ذلك اليوم الي خيمته فرحاً مسروراً وجلسوا في خيمته يتداركون من فقد من الغلمان وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائة وحسين نقرأ ومن المعروفين استشهد ظير الدين أخو الفقيه عيسى ولقد رأيتاه وهو جالس يضحك والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول هذا يوم الهناء لا يوم الدزاء وكان هو قد وقع عن فرسه واركبه فرأيتاه وقتل عليه جماعة من أقاربه وقتل في ذلك اليوم الامير محلي . هذا الذي قتل من المسلمين وأما من العدو المخذول فخرر قتلاهم بسبعة آلاف نفر ورأيتهم وقد

حملوهم الى شاطئ النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف * ولما تم على
 المسلمين من الهزيمة ماتم ورأى الغلمان خلو الخيام عن يترض عليهم
 فان العسكر انقسم الى قسمين منهزمين ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد وراءنا
 فظنوا ان الكسرة تتم وان العدو ينهب جميع ما في الخيام فوضعوا أيديهم في
 الخيام ونهبوا جميع ما كان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة وكان ذلك
 أعظم من الكسرة وقعا . ولما عاد السلطان الى الخيم ورأى ما قدم على الناس
 من نهب الاموال والهزيمة سارع الى الكتب والرسل في رد المنهزمين وتتبع
 من شد من العسكر والرسل تتابع في هذا المعني حتى بلغت عقبة فيتق
 وأخذوهم بالكره الي عسكر المسلمين فعادوا وأمر بجمع الاقمشة من اكف
 الغلمان الي خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي بين يديه في خيمته وهو جالس
 ونحن حوله وهو يتقدم الى كل من عرف شيأ وحلف عليه يسلم اليه وهو
 يلقي هذه الاحوال بقلب صلب . وصدر رحب . ووجه منبسط . ورأى
 مستقيم غير مختبط . واحتساب لله تعالي وقوة عزم في نصره دين الله * وأما
 العدو المخذول فانه عاد الي خيمه وقد قتل شجعانهم وطرحت مقدموهم
 وفقدت ملوكهم فأمر السلطان ان يخرج من عكا عجل يسحبون عليه القتلي منهم
 الى طرف النهر ليلقوا فيه * ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل انه أخذ
 خيطا وكان كلما أخذ قتيلا عقد عقدة فبلغ عدد قتلي الميسرة أربعة آلاف
 ومائة وكسور وبقى قتلي الميمنة وقتل القلب لم يعدهم فانه ولي أمرهم غيره وبقى
 من العدو بعد ذلك من حمى نفسه وأقاموا في مخيمهم لم يكثرثوا بحافل
 المسلمين وعساكرهم وتشتت من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة
 فانه ما رجع منها الا رجل معروف يخاف على نفسه والباقون هربوا في حال

سبيلهم وأخذ السلطان في جمع الاموال المنهوبة وأعادتها الى أصحابها وأقام
 المناداة في العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد وهو يتولى تفرقتها بنفسه
 بين يديه واجتمع من الاقشنة عدد كثير في خيمته حتى ان الجالس في أحد
 الطرفين لا يرى الجالس في الطرف الآخر وأقام من ينادى على من ضاع منه
 شيء فحضر الخلق وصار من عرف شيئاً وأعطى علامته حلف وأخذه من الجبل
 والمخلاة الى الهميان والجوهر ولقي من ذلك مشقة عظيمة ولا يري ذلك الا
 نعمة من الله تعالى يشكر عليها . ويسابق بيد القبول اليها . ولقد خضرت
 يوم تفرقة الاقشنة على أربابها فرأيت سوقاً للعدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم
 منها وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان وعند انقضاء هذه
 الواقعة وسكون نائرتها أمر السلطان بالثقل حتى تراجع الى موضع يقال له
 الخروبة خشية على العسكر من روائح القتلى وأثار الوحوم من البقعة وهو
 موضع قريب من مكان الواقعة الا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه
 بقليل وضربت له خيمة عند الثقل وأمر اليزك ان يكون مقيماً في المكان
 الذي كان نازلاً فيه وذلك في التاسع والعشرين واستحضر الامراء وأرباب المشورة
 في سلخ الشهر ثم أمرهم بالاصغاء الى كلامه وكنت من جملة الحاضرين ثم
 قال بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله . اعلووا ان هذا عدو الله وعدونا
 قد نزل في بلدنا وقد وطء أرض الاسلام . وقد لاحت لوائح النصر عليه ان
 شاء الله تعالى وقد بقي في هذا الجمع اليسير ولا بد من الاهتمام بقلعه والله
 قد أوجب علينا ذلك وأتم تعلمون أن هذد عساكرنا ليس وراءنا نجدة
 نتظرها سوي الملك العادل وهو واصل وهذا العدو ان بقي وطال أمره الي
 أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم فليجزنا كل

منكم ما عنده في ذلك* وكان ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية
وامتخضت الآراء وجري تجاذب في أطراف الكلام وانفصات آراؤهم على
ان المصلحة تأخير السكر الى الخروبة وان يبق السكر أياما حتى يستجيم من
حمل السلاح وترجع النفوس اليهم فقد أخذ أتعب منهم واستولي على
نفوسهم الضجر وتكليفهم أمرا على خلاف ما تحمله القوي لا تؤمن غائلته
. والناس لهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق الخيل والحيل قد ضجرت
من عرك اللجم وسئمت نفوسها ذلك . وعند أخذ حظ من الراحة ترجع
نفوسها اليها ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل وسعيد من شد
من العساكر ونجمع الرجالة ليقتنوا في مقابلة الرجالة وكان بالسلطان التياث
مزاجي قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وما ساءه من التعب بحمل السلاح
والفكر في تلك الايام فوق مآقاره ورأه مصلحة . وكان انتقال العسكر الى
الثقل ثالث رمضان وانتقال السلطان تلك الليلة وأقام يصلح مزاجيه ويجمع
العساكر وينتظر أخاه الى عاشر رمضان

﴿ ذكر وصول خبر الالمان ﴾

ولما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمسة واصل من
بجانب حلب كتب من ولده الملك الظاهر عز نصره يخبر فيها انه قد صح ان
ملك الالمان قد خرج الى القسطنطينية في عدة عظيمة قيل ما ساء ألف وقيل
مائتان وستون ألفا يريد البلاد الاسلامية فاشتد ذلك على السلطان وعظم عليه
ورأي استسيار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة فاستدعاني
لذلك وأمرني بالمسير الي صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل
وصاحب اربل واستدعاهم الى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم وأمرني بالمسير

الى بغداد لاعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة وكان الخليفة
اذ ذاك الناصر لدين الله أبا العباس أحمد بن المستضىء بامر الله وكان مسيرى
في ذلك المعنى في حادى عشر رمضان ويسر الله تعالى الوصول الى الجماعة
وابلاغ الرسالة اليهم فاجابوا بنفوسهم وسار عماد الدين زنكى صاحب سنجار
بعسكره ووجهه في تلك السنة وسار ابن أخيه صاحب الجزيرة سنجر شاه
بنفسه يجر عسكره وسير صاحب الموصل ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم
عسكره. وحضرت الديوان السعيد ببغداد وأنهايت الحال كما رسم ووعد بكل
حميل وعدت الى خدمته رحمة الله عليه وكان وصولي اليه في يوم الخميس خامس
ربيع الاول من شهور سنة ست وثمانين وكنت قد سبقت العساكر واخبرته
باجابتهم بالسمع والطاعة وباهتمامهم بالمسير فسرّ بذلك وفرح فرحاً شديداً

﴿ ذكر وقعة الرمل التي على جانب نهر عكا ﴾

ولما كان صفر من تلك السنة خرج السلطان يتصيد مطدثن النفس
بعبد المنزلة عن العدو فأوغل في الصيد وبلغ ذلك العدو فاخذوا غرة العسكر
واجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم على العسكر الاسلامي فأحس بهم الملك
العاقل فصاح بالناس وركبت العساكر من كل جانب وحمل على القوم وجرت
مقتلة عظيمة قتل وجرح بينهما منهم خلف عظيم ولم يقنل من
معروفى المسلمين الا مملوك للسلطان يقال له أرغش وكان رجلاً صالحاً
استشهد في ذلك اليوم وبلغ الخبر الى السلطان فماد منزعجاً فوجد الحرب قد
انفصل وعاد كل فريق الى حزبه وعاد العدو خائباً خائراً ولله الحمد والمنة .
وما مضى من الوقعات شاهدت منها ما يشاهد مثل وعرفت الباقي معرفة
خاصة في هذه الامور * ومن نوادر هذه الواقعة ان مملوكا كان للسلطان

يدعي قره سنقر وكاشجاءا قد قتل من أعداء الله خلقاً عظيماً وفتك فيهم
 فاخذوا في قلوبهم من نكايته فيهم وتجمعوا له وكنوا له وخرج اليه بعضهم
 وتراوا له فحمل عليهم حتى صار بينهم فوثبوا عليه من سائر جوانبه فأمسك
 واحد منهم بشعره وضرب الآخر رقبتة بسيفه فانه كان قتل له أقرباء
 فوقعت الضربة في يد المسك بشعره فقطعت يده وخلي سيده فاشتد هاربا
 حتى عاد الي اصحابه واعداً الله يشتدون عدوا خلفه لم يلحقه منهم أحد وعاد
 سالماً ورد الله الذين كفروا يغيظهم لم ينالوا خيراً

﴿ ذكر وفاة النقيه عيسى ﴾

وهي مما بلغني ولم اكن حاضرها وذلك انه مرض مرضاً يتعاهده وهو
 ضعيف النفس وعرض له اسهال اضعفه فلم تقطع صلابته ولم ينب ذهنه
 عنه الى أن مات وكان رحمه الله كريماً شجاعاً حسن المقصد كبير الزمام بقضاء
 حوائج المسلمين توفي رحمه الله طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذي القعدة من شهر
 سنة خمسة وثمانين

﴿ ذكر تسليم الشقيف سنة ستة وثمانين ﴾

ولما كان يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول علم الافرنج المستحفظون
 بالشقيق انهم لا عاصم لهم من أمر الله وأنهم ان أخذوا عنوة ضربت رقابهم
 فطلبوا الامان وجرت مراجعات كثيرة في قاعدة الاوان وكانوا قد علموا
 من حال صاحبهم انه قد عذب أشد العذاب فاستقرت القادة على ان الشقيف
 يسلم ويطلق صاحبه وجميع من فيه من الافرنج ويترك ما فيه من أنواع
 الاموال والذخائر وعاد صاحب صيدا والافرنج الذين كانوا بالشقيف الى صور.

ولما رأى السلطان من اهتمام الافرنج من أقطار بلادهم بالمكان وتصويب عزائمهم نحوه انتهم الشتاء وانقطاع البحر وجعل في عكا من الميرة والذخائر والعدد والرجال ما أمن معه عليها مع تقدير الله تعالي وتقدم الي النواب بمصر ان عمروا لها اسطولاً عظيماً يحمل خلقاً كثيراً وسار حتى دخل عكا مكابرة للعدو ومرانمة له واعطى العساكر دستوراً طول الشتاء يستجمعون ويستريحون وأقام هو مع نفر يسير قبالة العدو وقد حال بين العسكرين شدة انوحول وتعذر بذلك وصول بعضهم الي بعض

﴿ ظريفة ﴾

كان لما بلغ خبر العدو وقصده عكا جمع الامراء وأصحاب الرأي بمرج عيون وشاورهم فيما يصنع وكان رأيه ان قال المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول الى البلد والافان نزلوا جعلوا الرجالة سوراهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول اليهم وخيف على البلد منهم وكانت إشارة الجماعة انهم اذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعتهم في يوم واحد وكان الامر كما قال السلطان والله لقد سمعت هذا القول وشاهدت الفعل كما قال السلطان . وهو يوافق معنى قوله صلى الله عليه وسلم ان من أتى لمحدثين ومكلمين وان عمر لمنهم

﴿ ذكر وصول رسول الخليفة ﴾

ولم يزل السلطان مجدداً في الانفاذ الي عكا بالميرة والعدد والاسلحة والرجال حتى انقضى الشتاء وانفتح البحر وحان زمان القتال كتب الي العسكر يستدعيها من الاطراف * ولما تواصل اوائل العساكر وقبهي جيش الاسلام

رحل السلطان نحو العدو ونزل على تل كيسان وذلك في ثامن عشر شهر ربيع الاول سنة ست وثمانين ورتب العسكر قابلاً وميمنة وميسرة واخذت العساكر في التواصل والنجدة في التواتر فوصل رسول الخليفة وهو شاب شريف ووصل معه حملان من النفط وجماعة من النفاطين والزرايين ووصل معه من الديوان العزيز النبوي مجده الله تعالى رقعة تتضمن الاذن للسلطان ان يقترض عشرين الف دينار من التجار ينفقها في الجهاد ويحيل بها على الديوان العزيز فقبل جميع ما وصل مع الرسول واستغنى عن الرقعة والتشكيل بها * وفي ذلك اليوم بلغ السلطان ان الافرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه فركب اليهم لشغلهم بالقتال عن البلد وقتالهم قتالاً شديداً الي ان فصل بين الطائفتين الليل وعاد كل فريق الي اصحابه ورأي السلطان قوة العساكر الاسلامية وبعد المكان عن العدو نضاف ان لا يهجم البلديون عليه امر فرأى الانتقال الي تل العجول بالكليّة فانتقل بالعسكر والثقل في الخامس والعشرين وفي بيحة هذا اليوم وصلت كتب ان قد طم العدو بعض الخندق وقوي عزومه على منازلة البلد ومضايقته فجدد الكتب الي الساكر بالحث على الوصول وعي العسكر تعبياً القتال وزحف الي العدو ليشغله عن ذلك * ولما كان سحر ليلة الجمعة السابع والعشرين وصل ولده الملك الظاهر غياث الدين نازي صاحب حلب جريدة الي خدمته معاملة البر وتترك عسكره في المنزلة وخدم والده وبل شوقه منه وعاد الي عسكره في الثامن والعشرين وسار حتى وصل في ذلك اليوم بمحضله وقد اظفروا الزيتة ولبسوا الأمة الحرب وكثرت الاعلام والبيارق وضربت الكؤوسات ونعتت البوفات وعرض بين يدي والده وكان قد ركب الي لقائه في المرج وسار بهم حتي وقف بهم على العدو

وشاهدوا من جند الله ما ازعجهم وأقلتهم * وفي أواخر ذلك اليوم قدم مظفر الدين بن زين الدين جريدة أيضاً مسارعة للخدمة ثم عاد الي عسكره في لامة الحرب فريضهم السلطان حتى وقف بهم على العدو * وكان ما تقدم عسكر الا يعرضهم ويسيرهم الي العدو وينزل بهم في خيمته يمد لهم الطعام وينعم عليهم بما يطيب به قلوبهم اذا كانوا اًجانب ثم تضرب خيامهم حيث يأمر وينزلون بها مكرمين

﴿ لطيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر عز نصره ﴾

وذلك ان العدو كان قد اصطنع ثلاثة ابراج من خشب وحديد والبسها الجلود المسقاة بالخل على ما ذكر بحيث لا تنفذ فيها النيران وكانت هذه الابراج كأنها الجبال نشأ عندها من مواضعنا عالية على سور البلد وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل ويتسع سطحها لان ينصب عليه منجنيق وكان ذلك قد عمل في قنوب المسلمين واودعها من الخوف ما لا يمكن شرحه وأيس الناس من البلد بالكلية وتقطعت قلوب المقاتلة فيه وكان فرغ من عملها ولم يبق الاجرها الي قريب السور وكان السلطان قد اعمل فكره في احراقها واهلاكها وجمع الصناع من الزرايين والنفاطين وحشمهم على الاجتهاد في احراقها ووعدهم عليه بالاموال الطائلة والعطايا الجزيلة وضافت حيلهم عن ذلك وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي ذكر بين يديه ان له صناعة في احراقها وانه ان مكن من الدخول الي عكا وحصلت له الادوية التي يعرفها احرقها فحصل له جميع ما طلبه ودخل الي عكا وطبخ الأدوية مع الزنط في قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جرة نار * ولما كان يوم وصول الملك الظاهر ضرب واحداً بقدر فلم يكن الا ان وقعت

فيه فاشتعل من ساعته ووقته وصار كالجلبل العظيم من النار طالمة ذؤابته نحو السماء واستغاث المسلمون بالتهليل وعلاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب وبينما الناس ينظرون ويتعجبون اذ رمي البرج الثاني بالقدر الثانية فما كان الا ان وصلت اليه واشتملت كالتي قبلها فاشتد ضجيج الفئتين وانعدت الاصوات الي السماء وما كان الا ساعة حتى ضرب الثالث فالتهب وغشى الناس من الفرح والسرور ما حرك ذوى الاحلام والانهى منهم حركة الشباب الرعناوركب السلطان وركبت العساكر ميمنة وميسرة وقلبا وكان اواخر النهار وسار حتى أتى عسكر القوم وانتظر أن يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله صلى الله عليه وسلم من فتح له باب من الخير فلينتهزه فلم يظفر العدو من خيامهم وحال بين الطائفتين الليل وعاد كل فريق الي حربه ورأي الناس ذلك ببركة قدوم الملك الظاهر واستبشر والده بفرته وعلم ان ذلك بين صلاح سريرته واستمر ركوب السلطان اليهم في كل يوم وطلب نزالهم وقتلهم وهم لا يخرجون من خيامهم لعلمهم ببشائر النصر والظفر بهم والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل

﴿ ذكر وصول عماد الدين زكي صاحب سنجار وغيره ﴾

ولما كان الثاني والعشرون من ربيع الآخر وصل عماد الدين زكي بن مودود صاحب سنجار يجر عسكره ووصل بتجمل حسن وعسكر تام ولقيه السلطان بالاحترام والتعظيم ورتب له العسكر في لقائه وكان اول من لقيه من العسكر المنصور قضاته وكتابه ثم لقيه اولاده بعد ذلك ثم لقيه السلطان ثم سار به حتى أوقفه على العدو وعاد معه الي خيمته وأنزله عنده وكان صنع له طعاما لاثقا بذلك اليوم فخره وجميع أصحابه وقدم له من التحف واللطائف ما لا يقدر غيره عليه وكان قد اكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة الي جانبه

وبسط له ثوب أطلس عند دخوله وضرب له خيمة على طرف الميسرة على جانب النهر . ولما كان سابع جمادى الاولى من هذه السنة وصل سنجرشاه ابن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيرة ووصل في عسكر حسن فلقيه السلطان واحترمه واكرمه وأنزله في خيمته وأمر أن ضربت خيمته الى جانب عماد الدين . وفي تاسع الشهر وصل علاء الدين بن مسعود صاحب الموصل مقدماً على عسكره ففرح السلطان بقدمه فرحاً شديداً وتلقاه عن بعد هو وأهله واستحسن أدبه وأنزله عنده في الخيمة وكارمه مكارمة عظيمة وقدم له تحفاً حسنة وأمر بضرب خيمته بين ولديه الملك الافضل والملك الظاهر . وما من أهله الا من بسط له من ضيافته وجهاً مضيئاً * ولما كانت ظهيرة نهار ذلك اليوم ظهرت في البحر قلوع كثيرة وكان رحمہ الله في نظره وصول الاسطول من مصر فانه كان قد أمر بتعميره ووصوله فعلم انه هو فركب السلطان وركب الناس في خدمته وتعبى تعبىة القتال وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الاسطول * ولما علم العدو وصول الاسطول استعدوا له وعمروا أسطولا لقتاله ومنعه من دخول عكا وخرج أسطول العدو واشتد السلطان في قتاله من خارج وسار الناس على جانب البحر تقوية للاسطول وایناسا رجاله والتقى الاسطولان في البحر والعسكران في البر واضطرت نيران الحرب واستمرت وباع كل فريق روحه براحتة الاخرية * ورجع حياته الأبدية على حياته الدنيوية * وجرى بين الاسطولين قتال شديداً تشعب عن نصره الاسطول الاسلامي وأخذ من العدو الشواتي وقتل من به ونهب جميع ما فيه وظفر من العدو بمركب أيضاً كان واصلا من قسطنطينية ودخل الاسطول المنصور الى عكا

وكان قد صحبه سراكب من الساحل فيها مير وذخائر وطابت قلوب أهل البلد وانشرحت صدورهم فان الضائقة كانت قد أخذت منهم واتصل القتال بين العسكريين من خارج البلد الي أن فصل بينهما الليل وعاد كل فريق الي خيامه وقد قتل من عدو الله وجرح خلق كثير عظيم فانهم قاتلوا في ثلاثة مواضع فان أهل البلد اشتدوا في قتالهم ايشغلوههم عن الاسطول أيضاً والاسطولان يتقاتلان والعسكري يقاتلهم من البر وكان النصر للمسلمين في الاماكن كلها ثم كان وصول زين الدين صاحب اربل في العشر الأواخر من جمادي الاولي وهو زين الدين يوسف بن علي بن بكتكين قدم بعسكر حسن وتجميل جميل فاحترمه السلطان واكرمه وأنزله في خيمته واكرم ضيافته وأمر بضرب خيمته الي جانب خيمة أخيه مظفر الدين

﴿ ذكر خبر ملك الالمان ﴾

ثم تواترت الاخبار بوصول ملك الألمان الي بلاد قليج أرسلان وانه نهض للقائه جمع عظيم من الزنجان وقصدوا منعه من عبور النهر وأنه أعجزهم لكثرة خلقه وعدم مقدم لهم يجمع كلمتهم وكان قليج أرسلان أظهر شقاقة وهو في الباطن قد أضمر وفاقه ثم لما عبر الي البلاد أظهر ما كان أضمر ووافقه وأعطاه رهائن منه علي أن ينفذ معه من يوصله الي بلاد ابن لاون وأنفذ معه أدلاء . وعراهم في الطريق جوع عظيم حتى القوا بعض أمشتهم * ولقد بلغنا والله أعلم انهم جمعوا عدداً كثيرة من زرديات وخوذ وآلات سلاح عجزوا عن حملها وجعلوها سدرًا واحداً وأضرموا فيها النار لتلطف ولا ينتفع بها أحد وانها بقيت بعد ذلك تلامن حديد وساروا علي هذا الحال حتي أتوا الي بلد يقال لها طرسوس فأقاموا علي نهر ليعبروه . وأمام ملكهم

فمن له أن يسبح فيه وكان ماؤه شديد البرد وكان ذلك عقيب ما ناله من التعب والنصب والمشقة والخوف وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتد به الي أن قتله * ولما رأى ما حلّ به أوصي إلى ابنه الذي كان في صحبته ولما مات أجمعوا رأيهم إلى أن سلقوه في خل وجمهوا عظامه في كيس على أن يحموه إلى القدس الشريف حرسه الله ويدفنوه في القدس وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه فان ولده الأكبر كان قد خلفه في بلاده وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه واستقر قدم ولده الحاضر في تقدمه العسكر * ولما أحس ابن لاون بما جرى عليهم من الخلل وما حلّ بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم ما رأى أن يلقي بنفسه بينهم فانه لا يعلم كيف يكون الامر وهم إفرنج وهو أرمني فاعتصم هو عنهم في بعض قلاعه المنيعة

﴿ صورة كتاب الكايفكوس الارمنى ﴾

ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكايفكوس وهو مقدم الارمن وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات نسخة هذه ترجمتها * كتاب الداعي المخلص الكايفكوس ما أطلع به علم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الايمان . رافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين * سلطان الاسلام والمسلمين ادام الله اقباله * وضاعف جلاله . وصان مهجته وكل نهاية آماله . بعظمته وجلاله . من امر ملك الالمان وما جرى له عند ظهوره وذلك انه أول ما خرج من دياره ودخل بلاد الهنكر غصباً غصب ملك الهنكر بالاذعان والدخول تحت طاعته وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ثم انه دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها واقام بها واخرج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائمه ولده وأخاه واربعين نفرًا من خالصه وأخذ منه خمسين

قنطاراً ذهباً وخمسين قنطاراً فضة وثياب أطلس بمبلغ عظيم واغتصب المراكب وعاد بها الى هذا الجانب وصحبته الرهائن الي ان دخل حدود بلاد الملك قليج ارسلان ورد الرهائن وبقي سائراً ثلاثة أيام وتركبان الاوج يقونه بالاغنام والبقر والحيل والبضائع فداخلهم الطمع وجمعوا جموعاً من جميع البلاد ووقع القتل بين التركبان وبينه وضائقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج ارسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافعاً عظيماً فظفر به ملك الالمان وكسره كسرة عظيمة وسار حتى اشرف على قونية فخرج اليه جموع عظيمة من المسلمين فردهم مكسورين وهجم على قونية بالسيف وقتل منهم عالماً عظيماً من المسلمين والفرس وأقام بها خمسة أيام فطلب قليج ارسلان منه الامان فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة وأخذ الملك منه رهائن عشرين من اكابر دولته وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل وقبل منه وقبل وصوله الي هذه الديار اختياراً أو كرها اقتضى الحال انفاذ المملوك حاتم وصحبته ماسأل ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك وجواب كتابه وكانت الوصية أن يروا به على بلاد قليج ارسلان ان أمكن فلما اجتمعوا بالملك الكبير واعادوا عليه الجواب عرفوه الاحوال بالانحراف ثم كثرت عليه العساكر والجموع ونزل على شط بعض الانهار واكل خبزاً ونام وانتهت فتاقت نفسه الي الاستحمام في الماء البارد ففعل ذلك وخرج وكان من امر الله أن تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد فمكث أياماً قلانل ومات * وأما ابن لاون فانه كان سائراً يلقي الملك فلما جري هذا الجري هرب الرسل من العسكر وتقدموا اليه واخبروه في الحال فدخل في بعض حصونه واحتتمى هناك . وأما ابن الملك

فكان أبوه منذ توجه الي قصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه واستقرت القاعدة وبلغه هرب رسل ابن لاون فانفذوا استعطفهم وأحضرهم وقال ان أبي كان شيخاً كبيراً وما قصد هذه الديار الا لأجل حج بيت المقدس وأنا الذي دبرت الملك وعانيت المشاق في هذه الطريق فمن اطاعني والا قصدت دياره واستعطف ابن لاون واقتضي الحال الاجتماع ضرورة * وبالجملة فهو في عدد كثير * ولقد عرض عسكره فكان اثنين واربعين مجفجفاً وأما الرجالة فما يحصى عددهم وهم اجناس متفاوتة على قصد عظيم وجد في أمرهم وسياسة هائلة حتى ان من جنى منهم جناية فليس له جزاء الا أن يذبح مثل الشاة * ولقد بلغهم عن بعض اكابرهم انه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه فاجتمعت القسوس للحكم فاقتضي الحال والحكم العام ذبحه وشفع الي الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت الي ذلك وذبحه وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى ان من بلغهم عنه بلوغ لذة هجره وعزروه كل ذلك كان حزناً على البيت المقدس . ولقد صح عن جمع منهم انهم هجروا الشيا ب مدة طويلة وحرموا ما حلّ ولم يلبسوا الا الحديد حتى انكر عليهم الاكابر ذلك وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم . طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعد ذلك يطالع به ان شاء الله تعالى * هذا كتاب الكايفكوس ومعنى هذا اللفظ الخليفة واسمه بركري كور بن باسيل

﴿ ذكر مسير العساكر الى أطراف البلاد في طريق ملك الالمان ﴾

ولما تحقّق السلطان وصول ملك الروم الى بلاد ابن لاون وقربه الى البلاد الاسلامية جمع أمراء دولته وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع فاتفق الرأي على ان العسكر بعضه يسير الى البلاد المتاخمة لطريق عسكر

العدو الواصل وان يقيم على منازلة العدو باقى العسكر المنصور وكان أول من سار صاحب منبج وهو ناصر الدين بن تقي الدين ثم عز الدين بن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما ثم مجد الدين صاحب بعلبك ثم صاحب شيزر سابق الدين ثم الباروقية من جملة عسكر حلب ثم عسكر حماه . وسار ولده الملك الافضل مع مرض عرض له ثم بدر الدين شحنة دمشق مع مرض عرض له أيضاً وسار بعد ذلك ولده الملك الظاهر الى حلب لابانة الطريق وكشفاً لأخباره وحفظاً لما يليه من البلاد وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد وتدير أمر العدو المجتاز * ولما سارت هذه المساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها فأمر رحمه الله الملك العادل ان ينتقل الى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة وكان عماد الدين زنكى في طرف الميسرة * ووقع في العسكر مرض عظيم فرض مظفر الدين صاحب حران وشفي ومرض بعده الملك الظافر وشفي ومرض خلق كثير من الاكابر وغيرهم الا أن المرض كان سليماً بحمد الله وكان المرض عند العدو اكثر وأعظم وكان مقروراً بموتان عظيم وأقام السلطان مصابراً على ذلك مرابطاً للعدو

﴿ ذكر تمام خبر ملك الالمان ﴾

وذلك ان ولده الذى قام مقامه مرض مرضاً عظيماً أقام بسببه بموضع من بلاد ابن لاون وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأربون داويا وجهاز عسكره نحو انطاكية حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ثم ان الفرقة الاولى اجتازت تحت قلعة بفراس يقدمها كند عظيم عندهم وان عسكر بفراس مع قلته أخذ منهم مئتي رجل قهرا ونهبوا وكبت جزؤ منهم بالضعف العظيم والمرضى

الشديد وقلة الخيل والظهور والعدد والآلات * ولما اتصل هذا الخبر بالنواب في البلاد الشامية أنفذوا اليهم عسكريا يكشف أخبارهم فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوقة فأغاروا عليهم غارة عظيمة وقتلوا وأسروا وكان مقدار ما أخذوه وقتلوه على ما ذكره المخبرون في الكتب زهاء خمسمائة نفس * ولقد حضرت رسالة رسول ثان من كبغا الفرس بين يدي السلطان وهو يذكر خبرهم ويقول هم عدد كثير لكنهم ضعاف قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمر وخيل ضعيفة قال ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فبهر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رحا الا النادر فسألتهم عن ذلك فقالوا اقمنا بمرج وخم أياما فقل زادنا وأخطابنا وأوفدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم واحتجنا الى الخيل فذبجناها واكلناها وأوقدنا الرماح والعدد لاجواز الحطب . واما الكند الذي وصل الي انطاكية في مقدمة العسكر فانه مات وذكر ان ابن لاون لما أحس منهم بذلك الضعف طمع فيهم حتي انه عزم على أخذ مال الملك لارضه ورضفه وقله جمعه الذي تخلف معه وأن البرنس صاحب انطاكية لما أحس منهم بذلك ارسل الى ملك الالمان التقطه الي انطاكية طمعا في أن يموت عنده ويأخذ ماله ولم تزل اخبارهم تتواتر بالضعف والمرض الى أن وقعت وقعة العادل على طرف البحر

﴿ ذكر الوقعة العادلية ﴾

ولما كان يوم الاربعاء العشرون من جمادى الآخرة علم عدو الله ان العساكر قد تفرقت وان الميمنة قد خفت لان معظم من سافر كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدو فاجمعوا رأيهم واتفقت كلمتهم على انهم يخرجون بفتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة وتلاعبت بهم آمالهم فخرجوا ظهيرة

النهار وامتدوا ميمنة وميسرة وقلبا وانثوا في الارض وكانوا عددا عظيما واستخفوا طرف الميمنة وكان فيها مخيم الملك العادل فلما بصر الناس بهم قد خرجوا في تعبئة القتال صاح صائحهم وخرجوا من خيامهم كالاسود من آجامها وركب السلطان ونادي مناديه يا للاسلام وركبت الجيوش وطلبت الاطلاب (ولقد) رأته رحمه الله قد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه والناس لم يستم ركوهم وهو كالفائدة ولدها . الثاكلة واحدها . ثم ضرب الكؤوس واجابته كؤوس الامراء من اماكنها وركب الناس * واما الافرنج فانهم سارعوا في القصد الي الميمنة حتي وصلوا الي خيمة الملك العادل ودخلوا في طاقه وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا الي خيمة الخاص وأخذوا من شراب خاناتها شيئا * واما الملك العادل فانه لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قائماز النجمي ومن يجري مجراه من أسود الاسلام ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في الخيم ويستغلوا في النهب وكان كما ظن فانهم عاثت أيديهم في الحيام والاقمشة والفواكه والمطاعم فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه وحمل حملته من كان يليه من الميمنة واتصل الأمر بجميع الميمنة حتي وصل الصائح الي عسكر الموصل وهجموا على العدو هجمة الاسود على فريستها وامكنهم الله منهم ووقعت الكسرة فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين . وعلى اعقابهم ناكسين . وسيف الله فيهم يلتقط الارواح من الاشباح . ويفصل بين الاجساد والرؤوس . ويفرق بين الابدان والنفوس . ولما بصر السلطان باصطلاء الحرب قد ارتفع مما يلي خيام أخيه ثارت في قلبه نار الاشفاق وحركت الحمية اخوته * وانقضت

لزغبة في نصرة دين الله والخوف على أوليائه عزيزته * وصاح صائحاً في الناس يا للاسلام وابطل الموحدين هذا عدو الله قد أمكن الله منه وقد داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه فكان من المبادرين الى اجابة دعوته جماعة من مماليكه وخاصته وحلقته ثم طلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي وتتابعت العساكر وتجاوبت الابطال ووقف هو رحمه الله في القلب خشية ان يستضعف العدو القلب بحكم ما انفذ منه من العساكر فينال غرضاً فتواصلت العساكر واتصل الضرب وقامت سوق الحرب فلم يكن الا ساعة حتى رأيت القوم صرعى كأنهم أمجاز نخل خاوية وامتدوا مطروحين من خيام الملك العادل الى خيامهم أولهم في الخيم الاسلامية وآخرهم في خيم العدو صرعى على التلول والوهاد وشربت السيوف من دمائهم حتى رويت * وأكأت أسد الوغي باسنان الظفر منهم حتى شبعت * وأظهر الله كلمته * وحقق لعبدته نصرته * وكان مقدار ما امتد فيه القتلي فيما بين الخيامين فرسخاً وربما زاد على ذلك ولم ينبج من القوم الا النادر * ولقد خضت في تلك الدماء بداتي واجتهدت في أن أعدهم فاقدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقتهم وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين وحكي لي من شاهد أربعة نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فان السلطان كان أمر الناس أن لا يستبقوا أحداً . هذا كله في الميمنة وبعض القلب وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم الا وقد نبج الامر وقضي القضاء على العدو ما بين الظهر والعصر فارت العدو ظهر في قائم الظهيرة وانفصلت الحرب بعد صلاة العصر وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراءهم الى مخيمهم على ما قيل ولم يفقد من

المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين * ولما أحس جند الله بعكا بما جرى من الواقعة فانهم كانوا يشاهدون الواقعة من أعالي السور خرجوا الى مخيم العدو وجرت بينهم مقتلة عظيمة وكانت النصره للمسلمين بحيث هجموا خيام العدو ونهبوا منها جمعا من النسوان والاقمشة حتى القدور فيها الطعام ووصل كتاب من المدينة يخبر بذلك وكان يوما على الكافرين عسيرا. واختلف الناس في عدد القتلى منهم فذكر قوم انهم ثمانية آلاف. ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف اولها في خيم العادل وآخرها في خيم العدو. ولقد لقيت انسانا جنديا عاقلا جنديا يسعى بين صفوف القتلى ويعددهم فقلت له كم عددت فقال لي ها هنا أربعة آلاف ونيف وستون قتيلا وكان قد عد صنيز وهو في الصف الثالث لكن ما مضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقي وانجلي يوم الاربعاء المذكور بأحسن ما ينجلي عنه الاسلام. ولما كان يوم الخميس الحادي والعشرون من جمادي المذكورة ورد في عصره نجاب من حلب له خمسة أيام يتضمن كتابه ان جماعة عظيمة من العدو الشمالى خرجوا لنهب أطراف البلاد الاسلامية ونهض العسكر الاسلامي من حاب اليهم وأخذ عليهم الطريق ولم ينج منهم الا من شاء الله وكان وقع هذا الخبر عقيب هذه الواقعة المباركة وقعا عظيما وضربت البشائر ولم ير صبيحة لتلك العروس أحسن من هذه الصبيحة * وجاءنا بقية ذلك اليوم من اليزك قايماز الحراني وذكر ان العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل اليهم ليسمع منه حديثا في سؤال الصالح لضعف حل بهم ولم يزل عدو الله من حينه مكسور الجناح من الجانبين حتى وصلهم كنديقال له كندهرى *



﴿ ذكر وصول الكندهرى ﴾

وهذا المذكور من ملوكهم وأعيانهم وصل في البحر في مراكب عدة ومعه من الأموال والذخائر والميرة والأسلحة والرجال عدد عظيم فقوى بوصوله عزمهم واشتد أزرهم وحدثتهم نفوسهم بطلب العسكر الاسلامي المنصور ليلاً وكثر ذلك الحديث على السنة المستأمنين والجواسيس فجمع السلطان الامراء وأرباب الرأي واستشارهم فيما يفعل فكان آخر الرأي انهم يوسعون الحاققة ويتأخرون عن العدو رجاء أن يخرج العدو ويبعد عن خيمه فيمكن الله منهم ووافقهم السلطان على ذلك وأوقفه الله في قلبه فرحل الى جبل الخروبة بالعساكر بأسرها وذلك في السابع والعشرين من جمادي الاخرى وترك بقية من العسكر في تلك المنزلة كالأيزك مقدار ألف فارس يتناوبون لحفظ التوبة. هذا والكتب متواصلة من عكا ومنها اليها على أجنحة الطيور وأيدي السياح والمراكب اللطاف تخرج ليلاً وتدخل سرقة من العدو. هذا وأخبار العدو الواصل من الشمال متواصلة بقله خيله وعدده وما قد عراهم من الموت والمرض وانهم قد اجتمعوا بانطاكية وانهم قد بقوا رجالة وأن أصحابنا عسكر حلب يتخطفون حشاشتهم وعلاقتهم ومن يخرج منهم

﴿ ذكر كتاب وصل من قسطنطينية لیسر الله فتحها ﴾

وكان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة وكان وصل منه رسول الى الباب السلطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسة في جواب رسول كان أنفذه السلطان اليه بهد تقرير التواعد واقامة

قانون الخطبة في جامع قسطنطينية فمضى الرسول وأقام الخطبة واتي احتراماً عظيماً واكراماً زائداً وكان قد انفذ معه في المراكب الخطيب والمنبر وجمعا من المؤذنين والقراء وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوماً عظيماً من أيام الاسلام شاهده جمع كثير من التجار ورقى الخطيب المنبر واجتمع اليه المسلمون المقيمون بها والتجار واقام الدعوة الاسلامية العباسية ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبرنا بانتظام الحال في ذلك فاقام مدة . ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ أحسن مايفرض ان يكون من صور المشايخ وعليه زيهم الذي يختص بهم ومعه كتاب وتذكرة والكتاب مختوم بذهب ولما مات وصل الي ملك قسطنطينية خبر وفاته فانفذ هذا الرسول في تمة ذلك ووصل معه الكتاب في جواب ذلك * وصورة مافسر من الكتاب الواصل معه ووصفه انه كان كتاباً مدرجاً عرضاً وهو دون عرض كتاب بغداد مترجماً ظاهره وباطنه بسطرين بينهما فرجة وضع فيها الختم والختم من ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع على ختمه صورة ملك وزن الذهب خمسة عشر دينارا مضمون السطرين المكتوبين ما هذا صورته

« من ايساكيوس » الملك المؤمن بالمسيح الاله المتوج من الله المنصور العالي أبدا افقوس المدبر من الله القاهر الذي لا يغلب ضابط الروم بذاته انكلوس الي النسب ساطان مصر صلاح الدين والمحبة والمودة . قد وصل خط نسبك الذي أنفذت الي ملكي وقرأناه وعلنا منه ان رسولنا توفي وحرنا عليه حيث انه توفي في بلد غريب وما قدر ان يتم كل مارسم له ملكي وأمره ان يتحدث به مع نسبك ويقول في حضرتك ولا بد لنسبتك ان تهتم بانفاذ رسول الي ملكي مع رسولي المتوفي والتماش الذي خلفه ويوجد بعد موته

لنعطيه أولاده وأقاربه وما اظن انه يسمع من نسبتك أخباراً ودية وانه قد سافر في بلادي الالمات ولاعجب فان الاعداء يرفضون باشياء مكذوبة على قدر أغراضهم ولو تشهى أن تسمع الحق فانهم قد تأذوا وتمبوا كثيراً أكثر مما أؤذى فلا حو بلادك وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرجال ومات منهم وقتلوا وبالشدّة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادى وقد ضعفوا بحيث انهم لا يصلون الي بلادك فان وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كبيرة لا ينفعون جنسهم ولا يضرّون نسبتك . وبعد ذلك كيف نسيت الذى بنى وبينك وكيف ما عرفت للمكي شيئاً من المقاصد والمهمات . ما ربح ملكي من محبتك الاعداءة الافرنج وجنسهم * فوقف رحمه الله على هذه الترجمة واكرم الرسول وأحسن مثواه . وكان شيخاً حسن الخلق نبيا عارفاً بالعربية والرومية والافرنجية * ثم ان الافرنج شدوا في حصار البلد وضائقوه لما قد حدث لهم من القوّة بوصول الكندهرى فانه وصل على ما ذكر والله أعلم في عشرة آلاف مقاتل ووصلتهم نجدة أخرى في البحر قويت بها قلوبهم ونازلوا البلد بالقتال

﴿ ذكر حريق المنجنيقات ﴾

وذلك أن العدو لما أحس في نفسه بقوته بسبب توالى النجندات عليهم اشتد طمعهم في البلد وركبوا عليه المنجنيقات من كل جانب وتناوبوا عليها بحيث لا يتعطل رميها ليلا ولا نهارة وذلك في أثناء رجب . ولما رأى أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة العدو وتعلق طمعهم بهم حركتهم النخوة الاسلامية وكان مقدموه حينئذ اما والى البلد وحارسه فالامير الكبير بهاء الدين قراقوش * واما مقدم العسكر فالامير الكبير الاسفهلار حسام الدين

أبو الهيجاء وكان رجلاً ذا كرم وشجاعة وتقدم في عشيرته * ومضاه في عزيمته
فاجتمع رأيهم على أنهم يخرجون إلى العدو فارسهم ورجالهم على غرة وغفلة
منهم ففعلوا ذلك وفتحت الأبواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب ولم
يشعر العدو إلا والسيوف فيهم حاكم عادل * وسهم قدر الله وتضائه فيهم نافذ
نازل * وهجم الإسلام على الكفر في منازلهم * وأخذ بناصية مناضله ورأس
مقاتله * ولما ولج المسلمون لحيام العدو ذهلوا عن المنجنيقات وحياطها
وحراستها * وحفظها وسياستها * فوصات شهب الزرافين المقدوفة * وجاءت
عوائد الله في نصرته دينه المألوفة * فلم تكن ساعة حتى اضطربت فيها النيران
* وتحرق منها بيدها ما شيده الأعداء في المدة الطويلة في أقرب آن * وقتل
من العدو سبعون فارساً وأسر خلق عظيم وكان من جملة الأسرى رجل
مذكور منهم ظفربه واحد من أحاد الناس ولم يعلم بمكانته * ولما انفصل الحرب
سأل الأفرنج عنه هل هو حي أم لا فعرف الذي هو عنده عند سؤالهم أنه
رجل كبير فيهم وخاف أن يغلب عليه ويرد عليهم بنوع مصانعة أو على وجه
من الوجوه فسارع وقتله وبذل الأفرنج فيه أموالاً كثيرة ولم يزالوا يشتدون في
طلبه ويحرسون عليه حتى رثت لهم جثته فضربوا بنفوسهم الأرض وحثوا
على رؤوسهم النراب ووقعت عليهم بسبب ذلك خدمة عظيمة وكتبوا أمره ولم
يظهروا من كان واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم وهجم عليهم العرب من
كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون إلى ليلة نصف شعبان وكان
الكندهري قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشكل على ما نقل الجواسيس
والمستأمنون ألفاً وخمسمائة دينار وأعد له ليقدمه إلى البلد ومنع من حريقه في
ذلك اليوم كونه بعيداً عن البلد لم يقدم بعد إليه * ولما كانت الليلة المباركة

المدكورة خرج الزرقاين والمقاتلة تحفظهم من كل جانب والله يكلاًهم فساروا من تحت ستر الله حتى أتوا المنجنيق المذكور وأضرموا فيه النار فاحترق من ساعته ووقع الصياح من الطائفتين وذهل العدو فانه كان بعيداً من البلد وخافوا ان يكونوا قد أحيط بهم من الجوانب وكان نصراً من عند الله واحرق بابهيه منجنيقاً لطيفاً الى جانبه

﴿ ذكر الحيلة وادخال عكة بطسة عمرها وأودعها أربعاً بمائة ﴾

﴿ غرارة من القمح ووضع فيها الجبن والبصل ﴾

﴿ والغنم وغير ذلك من الميرة ﴾

وكان الافرنج خذلهم الله قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها من أن يدخلها مراكب المسلمين وكانت قد اشتدت حاجة من فيها الي الطعام والميرة فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين وتزيوا بزى الافرنج حتي حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث تري من بعد وعلقوا الصلبان وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا اليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم نراكم قاصدين البلد واعتقدوا انهم منهم فقالوا أولم تكونوا قد أخذتم البلد فقالوا لم نأخذ البلد بعد فقالوا نحن نرد القلوع الي العسكر وقد أتى بطسة أخرى في هوائنا فاندروهم حتى يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة افرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدة العسكر فنظروا فراؤها فقصدوها يندرونها فاشتدت البطسة الاسلامية في السير واستقامت لها الريح حتي دخلت ميناء الباد وسلمت والله الحمد . وكان فرحاً عظيماً فان الحاجة كانت قد أخذت من أهل الباد وكان

ذلك في العشر الاواخر من رجب

﴿ ذكر قصة العوام عيسى ﴾

ومن نوادر هذه الواقعة ومحاسنها ان عواما مسلما يقال له عيسى وصل الى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا على غرة من العدو وكان يفوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو وكان ذات ليلة شدّ على وسطه ثلاثة اكياس فيها ألف دينار وكتب للمسكر وعام في البحر فجري عليه أمر أهلكه وأبطأ خبره عنا . وكانت عادته اذا دخل البلد أطار طيراً عرفنا بوصوله فأبطأ الطير فاستشعرنا هلاكه . ولما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر في البلد اذا هو قد قذف شيئاً غريباً فنفقوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب وكان الذهب نفقة للجهادين فما روى من أدي الامانة في حال حياته وقد ردّها في مماته الا هذا الرجل وكان ذلك في العشر الآخر من رجب أيضاً

﴿ ذكر حريق المنجنيقات ﴾

وذلك أن العدو كان نصب على البلد منجنيقات هائلة حاكمة على السور وان حجارتها تواترت حتى أثرت في السور أثراً بيناً وخيف من غائلاتها فأخذ سهمان من سهام الجرخ العظيم فأحرق نصلهما حتى بقيا كالشعلة من النار ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه واجتهد العدو في اطفائهما فلم يقدر على ذلك وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالاً عظيماً واتصلت لهبته بالآخر فأحرقته واشتد نارهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتال في اطفائهما وكان يوماً عظيماً اشتد فيه فرح المسلمين وساءت عاقبة الكافرين

﴿ ذكر تمام حديث ملك الالمان والحيلة التي عملها المركيس ﴾

ولما استقرّ قدم ملك الالمان في انطاكية أخذها من صاحبها وحكم فيها وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره فأخذها منه غيلة وخديعة وأودعها خزائنه وسار عنها في الخامس والشرين من رجب متوجّهاً نحو عكا في جيوشه وجموعه على طريق اللاذقية حتى الي طرابلس وكان قد سار اليه من معسكر الافرنج يلتقيه المركيس صاحب صور وكان من أعظمهم حيلة وأشدّهم بأساً وهو الاصل في تهبيج الجموع من وراء البحر * وذلك انه صورّ القدس في ورقة وصور فيه صورة القمامة التي يحجون اليها ويعظمون شأنها وفيه قبة قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم وذلك القبر هو أصل حجهم وهو الذي يمتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم وصور على القبر فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه وقد وطئ قبر المسيح وبالفرس على القبر وأبدي هذه الصورة وراء البحر في الاسواق والجماع والقسوس يحملونها ورؤسهم مكشوفة وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور وللصور عمل في قلوبهم فانها أصل دينهم فهاج بذلك خلق لا يحصى عددهم الا الله وكان من جملتهم ملك الالمان وجنوده فلقبهم المركيس لكونه أصلاً في استدعائهم الي هذه الواقعة فلما اتصل به قوى قلبه ونصره بالطرق وسلك به الساحل خوفاً من انه اذا أتى على بلاد حلب وحمّة ثار لهم المسلمون من كل جانب وقامت عليهم كلمة الحق من كل صوب. ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم فان الملك المظفر قصدهم بعساكره وجمع لهم جموعاً وهجم عليهم هجوماً عظيماً أخذ فيه من أطراف عساكره وكان قد لحقهم باوائل مسكّره ولو لحقهم الملك الظاهر بعساكره لقضى

عليهم ولكن لكل أجل كتاب واختلف حزر الناس لهم . ولقد وقفت على كتب بعض المخبرين بالحرب فقد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد ان كانوا قد خرجوا على ما ذكر فانظر الى صنع الله مع أعدائه * ولقد وقفت على بعض الكتب فذكر فيه انهم لما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجدوا في أعقابهم نيفا وستين فرسا قد عطبت وانتزع لحمها ولم يبق فيها الا العظام من شدة الجوع ولم يزالوا سائرين وأيدى المسلمين تحفظهم من حولهم نهبا وقتلا وأسرا حتى أتوا طرابلس ووصل خبر وصوله بكرة الثلاثاء ثامن شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة هذا والسلطان ثابت الجاش راسخ القدم لا يردده ذلك عن حراسة عكا والحماية لها ومراصدة العسكر النازل بها وشن الغارات عليها والهجوم عليهم في كل وقت مفوضا أمره الى الله معتمدا عليه منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس مواصلا يسره من يفد اليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والادباء * ولقد كنت اذا بلغني هذا الخبر تأثرت حتى دخلت نليه واجد منه من قوة الله وشدة البأس ما يشرح صدري واتيقن معه نصره الاسلام وأهله

﴿ ذكر وصول البطس من مصر ﴾

ولما كان العشر الاوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش وهو والي البلد والمقدم على الاسطول والحاجب لؤلؤ يذكر ان السلطان انه لم يبق بالبلد ميرة الاقدر يكفي الى ليلة النصف من شعبان لا غير فأسرهما يوسف في نفسه ولم يدها لخاص ولالعام خشية الشيوخ والبلوغ الى العدو فتضعف به قلوب المسلمين وكان قد كتب الى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالاقوات والادم والمير وجميع ما يحتاج اليه في الحصار بحيث يكفيهم ذلك

طول الشتاء واقلمت البطس الثلاث من الديار المصرية ولججت في البحر تنوقى النوتية بها الريح حتى ساروا بالريح التي تحملها الي نحو عكا ولم يزالوا كذلك حتى وصلوا الي عكا ليله النصف من شعبان المذكور وقد فنى الزاد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم وخرج عليها اسطول العدو يقاتلها والعساكر الاسلاميه تشهد ذلك من الساحل والناس في تهليل وتكبير وقد كشف المسلمون رؤوسهم يتهلون الى الله تعالى في القضاء بتسليمها الي البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال ويدعو ربه بنصره وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره وفي قلبه ما في قلبه والله يثبتته ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح يشتد والاصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا سالمين الى ميناء البلد وتلقاهم أهل عكا تلتقي الامطار عن جذب وامتاروا ما فيها وكانت ليله بليال

﴿ ذكر محاصرة برج الذباب ﴾

ولما كان الثاني والعشرون من شعبان جهز العدو بطسا متعددة لمحاصرة برج الذباب وهو برج في وسط البحر مبنى على الصخر على باب ميناء يحرس به المينا ومتى عبره المراكب أمن غائله العدو فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ويمنع الدخول اليه بشيء من البطس فتنقطع الميرة عن البلد فجعلوا على صواري البطس برجا وملاؤه حطبا على انهم يسرون البطس فاذا قاربت برج الذباب ولاصقته احرقوا البرج الذي على الصارى والصقوه ببرج الذباب ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه وجعلوا في البطسة وقودا كثيرا حتى يلقى في البرج اذا اشتعلت النار فيه وعبوا بطسة ثانية

وملأوها حطباً ووقوداً على أنهم يدفعون بها الي ان تدخل بين البطس
الاسلامية ثم يهبونها فتحرق البطس الاسلامية ويهلك ما فيها من الميرة
وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يحصل لهم نشاب ولا
شيء من آلات السلاح حتي اذا أحرقوا ما أرادوا احرقه دخلوا تحت ذلك
القبو فأمنوا وقدموا البطسة نحو البرج المذكور وكان طمعهم يشتد حيث
كان الهواء مصعدا لهم فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا أن يحرقوا بطس المسلمين بها
والبرج الذي أرادوا ان يحرقوا به من على برج الذباب فاوقدوا النار وضربوا
فيها النفط انعكس الهواء عليهم كما شاء الله تعالي وأراد واشتعلت البطسة
التي كان بها باسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان فيها من
المقاتلة الا من شاء الله واحترقت البطسة التي كانت معدة لاحراق بطسنا
ووثبت أصحابنا عليها فاخذوها اليهم * وأما البطسة التي كانت فيها القبو فانهم
انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيما فانقلبت
وهلك جميع من كان بها لانهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها
وكان ذلك من أعظم آيات الله وأندر العجائب في نصرة دين الله * وكان
يوما مشهودا

﴿ ذكر وصول الالمان الي عسكرهم المخدول ﴾

عدنا الي حديث ملك الالمان وذلك أنه اقام بطرابلس حتى استجم
عسكره وأرسل الي النازلين على عكا يخبرهم بقدمه اليهم وقد حموا من
ذلك لان المركيس صاحب صور هورب مشورته وصاحب دولته * وكان
الملك جنري وهو ملك الساحل بالعسكر هو الذي يرجع اليه في الامور
فعلم انه مع قدوم الألماني لا يبتقى له حكم * ولما كان العشر الآخر من شعبان

ازمع رأيه على المسير في البحر لعله أنه ان لم يركب البحر نكب وأخذت عليه الطريق والمضائق فاعدوا المراكب وأنفذت اليه من كل جانب ونزل فيها هو وعسكره وخيلهم وعدتهم وساروا يريدون العسكر فلم تمض الساعة من النهار حتى قامت عليهم ريح عاصف وثار عليهم الموج من كل مكان واشرفوا على الهلاك وهلك منهم ثلاثة مراكب حمالة وعاد الباقون يرصدون هواء طيباً فاقاموا أياما حتى طابت لهم الريح وصاروا حتى أتوا صور فاقام المراكيس والالمانى بها وأنفذوا بقية المساكر الى المعسكر النازل عكا واقاما بصور الى ليلة السادس من رمضان وسار الالمانى وحده في البحر حتى وصل معسكرهم غروب الشمس من ذلك اليوم في نفر يسير * هكذا أخبر الجواسيس والمستأنون عنهم * ولقد كان لقدمه وقع عظيم من الطائفتين واقام أياما واراد أن يظهر لمجيئه أثر فوبخ القوم على طول مقامهم وحسن في رأيه ان يضرب مصاف مع المسلمين يخوفوه من الاقدام على هذا الامر وعاقبته فقال لا بد من الخروج على اليزك ليدوق قتال القوم ويعرف مراسهم ويتصربا مرهم فليس الخبر كالعيان فخرج على اليزك الاسلامي واتبه معظم الافرنج راجلهم وفارسهم وخرجوا حتى قطعوا الوهاد التي بين تلهم وتل العياضية وعلى تل العياضية خيم اليزك وهي نوبة الحلقة السلطانية المنصورة في ذلك اليوم فوقفوا في وجوههم وقتلوهم واذاقوهم طعم الموت وعرف السلطان ذلك فركب من خيمته بحفلة وسار حتى أتى تل كيسان فلما رأى المدو المساكر الاسلامية صوبت نحوه سهام قصدها وأتته من كل جانب كقطع من الليل المظلم عادنا كما على عقبه وقتل منهم وجرح خلق كثير والسيف يعمل فيهم من أقميتهم وهم هاربون حتى وصلوا الخيم غروب الشمس وهو لا يمتقد سلامة نفسه

من شدة خوفه وفصل الليل بين الطائفتين وقتل من المسلمين اثنان وجرح جماعة كثيرة وكانت الكسرة على أعداء الله * ولما عرف ملك الالمان ما جرى عليه وعلى أصحابه من اليزك الذي هو شذمة من العسكر وهو جزؤ من كل رأي ان يرجع الى قتال البلد ويشتغل بمضايقته فاتخذ من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ما هال الناظر اليه من شدة الخوف على البلد واستشعر أخذ البلد من تلك الآلات وخيف منها عليه فأحدثوا آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ملبسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل وفيها المقاتلة حتى ينطح بها الصور ولها رأس عظم برقبة شديدة من حديد وهي تسمى كبشا ينطح بها الصور بشدة عظيمة لانه يجرها خلق عظيم قهدهم بتكرار نطحها * وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال السحب لذلك الآن رأسها محدد على شكل السكة التي يجرث بها ورأس البرج مدور وهذا يهدم بثقله ونلك تهدم بجدتها وثقلها وهي تسمى سنورا . ومن الستائر والسلامم الكبار الهائلة . وأعدوا في البحر بطسة هائلة وضعوا فيها برجا بخرطوم اذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ويبقى طريقا الى المكان الذي ينقلب عليه تمشي عليه المقاتلة وعزموا على تقريبه الى برج الذباب ليأخذوه به

ذكر حريق برج الكبش وغيره من الآلات ﴿

وذلك أن العدو لما رأى آلاته قد تمت واستكملت شرع في الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب وأهل البلد كلما رأوا ذلك اشتدت عزائمهم في نصرة دين الله وقويت قلوبهم على المصابرة * ولما كان يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة وهي الذي قدمت فيه العساكر من الشام

في أحسن زي واجمل ترتيب واكمل عدة مع ولده صاحب حلب وسابق الدين صاحب شيزر ومجد الدين صاحب بعلبك وكان السلطان التأت مزاجة الكريم بحمي صفراوية فركب في ذلك اليوم وكان عيداً من وجوه متعددة وفي ذلك اليوم زحف العدو على البلد في خلق لا يحصى عددهم الا الله فأهلهم أهل البلد وشجعان المقاتلة الذين فيه وذوو الآراء المثقفة من مقدمي المسلمين حتي نشبت مخالب أطعمهم في البلد وسحبوا آلتهم المذكورة حتي قاربوا أن يلصقوها بالسور وتحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة واطلقوا عليهم سهام الجروح وأحجار المنجنيق واقواس الرمي والنيران وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد وفتحوا الابواب وباعوا نفوسهم لخالقها وبارئها * ورضوا بالصفقة الموعود بها وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوهم في الخنادق ووقع الله الرعب في قلب العدو وأعطى ظهره الهزيمة وأخذوا مشددين هارين * على أعقابهم ناكسين * يطلبون خيامهم والاحتماء بأسوارهم لكثرة ما شاهدوا وذاقوا من الجرح والقتل وبقي في الخندق خلق عظيم وقع فيهم السيف وعجل الله بأرواحهم الى النار * ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدو من الخذلان والهزيمة هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط وتمكنوا من حريقه فأحرقوه حريقاً شنيعاً وظهرت له لهبة عظيمة نحو السماء وارتفعت الاصوات بالتكبير والتهليل * والشكر للقوى الجليل * وسرت نار الكبش بقوتها الي السور فاحترق وعلق المسلمون في الكبش الكلاب الحديدية المصنوعة في السلاسل فسحبوه وهو يشتعل حتي حصلوه عندهم في البلد وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة ألقى الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام * وبلغنا من الزك ان وزن ما كان عليه من الحديد يبلغ مائة قنطار بالشامي والقنطار مائة رطل والرطل الشامي بالبغدادي

أربعة أرتال وربع رطل * ولقد أنفذ رأسه الى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكاه على مثل السفود الذي يكون بحجر المدار قيل انه ينطح به فيهدم ما يلاقيه * وكان ذلك من أحسن أيام الاسلام ووقع على العدو خذلان عظيم ورفعوا ما سلم من آلاتهم وسكنت حركاتهم التي ضيعوا فيها نفقاتهم وتحيرت أبصار حيلهم واستبشر السلطان بفرحة ولده واستبارك بها حيث وجد النصر مقرونا بقدومه مرة بعد أخرى * وثانية بعد أولي * ولما كان يوم الاربعاء الخامس عشر رمضان خرج أصحابنا من الثغر المحروس في شوان على بغتة من العدو وضربوا البطسة الممددة لاخذ برج الذباب بقوارير نفضت فاحترقت وارتفع لهبها في البحر ارتفاعا عظيما وحزن الالمان لذلك حزنا شديداً وغشيته كآبة عظيمة ووقع عليهم خذلان عميم * ولما كان يوم الخميس السادس عشر الشهر وصل كتاب طائر في طي كتاب وصل من حماه قد طار به الطائر من حلب يذكر فيه ان البرنس صاحب انطاكية خرج بعسكره نحو القري الاسلامية التي تليه لشن الغارات عليها فبصرت به العساكر ونواب الملك الظاهر فكمنت له الكمينات فلم يشعر بهم الا والسيف قد وقع فيهم فقتل منهم خمسة وسبعون نفرا وأسر خلق عظيم واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيجا حتى اندفوا ووسار الي بلده * وفي أثناء العشر الاوسط أقلت الريح بطستين فيها رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغم كثيرة قاصدين نحو العدو فغنمها المسلمون * وكان العدو قد ظفر منا بزورق فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول الى البلد فأخذوه فوق الظفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك وجابرآله ولم تزل الاخبار بعد ذلك تتواصل على السنة الجوايس والمستأمنين ان العدو قد عزم على الخروج الى العسكر الاسلامي خروج مصاف ومنافسة

والتا مزارع السلطان بحمي صفاوية فاقتضي الحال تأخر المسكر الى جبل
سفر عم * وكان انتقاله التاسع عشر رمضان فنزل السلطان على أعلى الجبل ونزل
الناس على رؤس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة من الوحل * وفي
ذلك اليوم مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل مرضاً
شديداً بحميين مختلفتي الاوقات واستأذن في الرواح فلم يؤذن له فاستأذن في
الانتقال الي الناصرة فأذن له في ذلك اليوم وأقام بالناصره أياما عديدة يمرض
نفسه فاشتد به المرض الي ليلة الثلاثاء ثامن عشري رمضان وتوفي رحمه الله
وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغر بته وأنتم
السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده واستنزله عن بلاده التي كانت في يده
وهي حران والرها وما يتبهما من البلاد والاعمال وضم اليه بلد شهرزور أيضاً
واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلاً مكانه
جابرًا لخلل غيبته وأقام مظفر الدين في نظرة قدوم تقي الدين * ولما كان
ضحاء نهار ثالث شوال قدم وقد عاد صحبة معز الدين

﴿ ذكر قصة معز الدين ﴾

وهذا معز الدين هو سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن
زنكي وهو صاحب الجزيرة اذ ذلك وكان من قصته انه حضر للجهاد وقد
ذكرت تاريخ وصوله وأنه أخذ منه الضجر والسامة والمقلق بحيث ترددت
رسله ورقاعه الي السلطان في طلب الدستور والسلطان يعتذر اليه بأن رسل
العدو متكررة في معنى الصلح ولا يجوز أن تنفض العساكر حتى تتميز على
ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب وهو لا يألو جهداً في طلب الدستور
الي ان كان يوم عيد الفطر من سنة ست وثمانين وحضر سحر ذلك

اليوم في باب الخيمة السلطانية فاستأذن في الدخول فاعتذر اليه بالتيث
كان قد عري مزاج السلطان فلم يقبل العذر وكرر الاستئذان فأذن له
في الدخول فلما مثل بالخدمة استأذن في الرواح شفاهاً فذكر له السلطان
العذر بذلك وقال هذا وقت تقدم العساكر وتجمعها لا وقت تفرقها فانكب
على يده وقبلها كالمودع له ونهض من ساعته وسار وأمر أصحابه أن أقوا
القدور فيها الطعام وقلعوا الخيم وتبعوه فلما بلغ السلطان صنيعه أمر بإنشاء
مكاتبه إليه يقول فيها « انك أنت قصدت الاتناء اليّ ابتداء وراجعتني في ذلك
مراراً وأظهرت الخيفة على نفسك وقلبك وبلدك من أهلاك فقبلتك
وأويتك ونصرتك وبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم واعراضهم
فانفدت اليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته واتفق وقوع هذه الواقعة
للاسلام فدعوناك فأبيت بمسكر قد عرفته وعرفه الناس وأتمت هذه المدة
المديدة وقلقت هذا الفلق وتحركت هذه الحركة وانصرفت عن خير طيب
نفس وغير فصل حال مع العدو . فانظر لنفسك وأبصر من تنتمى اليه
غيري واحفظ نفسك ممن يقصدك فما لي الى جانبك التناث» وسلم الكتاب
الى نجاب فلحقه قريباً من طبرية فقرأ الكتاب ولم يلتفت وسار على وجهه
. وكان الملك المظفر تقي الدين قد استدعى الى الغزاة بسبب حركة مظفر
الدين على ما سبق شرحه فلقبه في الطريق في موضع يسمى عقبة ميق فراه
محمّاً ولم ير عليه أمارات حسنة وسأله عن حاله فأخبره بأمره وتعتب على
السلطان كيف لم يخلع عليه ولم يأذن له ففهم الملك المظفر انفصاله من غير
دستور من السلطان وانه على خلاف اختياره فقال له المصلحة لك أن ترجع
الى الخدمة وتلازم الى ان يأذن لك وأنت صبي ولم تعلم غائلة هذا الامر

فقال ما يمكنني الرجوع فقال ترجع عن غير يد فليس في الرواح على هذا الوجه لك راحة أصلاً فأصر على الرواح فغشي عليه وقال ترجع من غير اختيارك وكان اتقى الدين شديد البأس مقداماً على الامور ليس في عينه من أحد شيء فلما علم انه قابضه ان لم يرجع باختياره رجع معه حتى أتى العسكر وخرج الملك العادل ونحن في خدمته الى لقاء الملك المظفر فوجدناه معه فدخلنا به على السلطان وسألاه الصفرح عنه وطلب ان يقيم في جوار اتقى الدين خشية على نفسه فأذن له فأقام في جواره الى حين ذهابه

﴿ ذكر طلب عماد الدين الدستور ﴾

وذلك ان عماد الدين زكى عم المذكور أتح في طلب الدستور وشكا هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له والسلطان يعتذر اليه بان الرسل متواترة بيننا وبين العدو في الصلح وربما انتظم فينبغي أن يكون انتظامه بحضوركم فالرأي مشترك واستأذن في ان يحمل اليه خيام الشتاء فلم يفعل وان يحمل اليه نفقة فلم يفعل وتكررت منه الرسل الى السلطان في المعنى والسلطان يكرر الاعتذار * ولقد كنت بينهم في شيء من ذلك وكان عند عماد الدين من العزم على الرواح ما يجاوز كل وصف وعند السلطان من إمساكه الى ان يفصل أمر بيننا وبينهم ما لا يحد وآل الامر الي ان يكتب عماد الدين بخطه ويطلب فيه الاذن في الرواح وتلين فيها وتحشن فأخذها السلطان وكتب في ظهرها بيده الكريمة * من ضيع مثلي من يده * فليت شعري ما استفاد * فوقف عماد الدين عليها وانقطعت مراجعته بالكلية

﴿ ذكر خروج العدو الى رأس الماء ﴾

وتواترت الاخبار بضعف العدو ووقوع الغلاء في بلادهم وعسكرهم حتى ان الفرارة من القمح بلغت في انطاكية ستة وتسعين دينارا صورية ولا يزيدم ذلك الاصبرا واصراراً وعناداً * ولما ضاق بهم الامر وعظم الغلاء وخرج منهم خلق عظيم مستأمنين من شدة الجوع عزموا على الخروج الينا وكان طمعهم بسبب مرض السلطان فظنوا أنه لا يستطيع النهوض * وكان خروجهم يوم الاثنين حادى عشر شوال بخيلهم ورجلهم حاملين ازوادا وخياما الى الآبار التي استحدثها المسلمون تحت تل الحجل لما كانوا نزولا عليه وأخذوا عليق أربعة أيام فاخبر رحمه الله بخروجهم على هذا الوجه فأمر اليزك ان يتراجع من بين أيديهم الي تل كيسان وكان اليزك على العياضية وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور وباتوا تلك الليلة واليزك حولهم جميع الليل فلما طلع الصبح جاء من اليزك من أخبره بانهم قد تحركوا للركوب وكان قد أمر الثقل في أول الليل ان يسيروا الى الناصرة والقيمون فرحل الثقل وبقي الناس وكنت في جملة من أقام في خدمته وأمر العسكر أن يركب يمئة وديرة وقلبا تعبية القتال وركب هو وصاح الجاويش بالناس فركبوا وسار حتى وقف على تل من جبال الخروبة وابتدأت الميمنة بالمسير فسارت حتى بلغ آخرها الجبل وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها النهر بقرب البحر فكان في الميمنة ولده الملك الافضل صاحب دمشق وولده الملك الظاهر صاحب حلب وولده الملك الظافر صاحب بصرى وولد عز الدين صاحب الموصل علاء الدين خرم شاه ثم أخوه في طرفها ويليه قريبا منه حسام الدين لاجين والطواشي قايماز النجمي وعز الدين جرديك النورى وحسام الدين

بشاره صاحب بانياس وبدر الدين دلدرد وجمع كثير من الامراء وكان في الميسرة عماد الدين زنكي صاحب سنجار وابن أخيه معزالدين صاحب الجزيرة وفي طرفها الملك المظفر تقي الدين ابن أخيه وكان عماد الدين زنكي غائباً مع الثقل لمرض كان ألم به وبقى عسكره وكان في الميسرة سيف الدين على المشطوب وجميع المهرانية والهكارية وخشترين وغيرهم من الامراء الاكراد وفي القلب الحلقة السلطانية . وتقدم السلطان ان يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش وان يدوروا حول العسكر واليزك منهم وأخفي بعض الاطالاب وراء التلال عساهم ان يجدوا غرة من العدو* ولم يزل عدو الله يسيرو الناس من جميع جوانبه وهو سائر على شاطئ النهر من الجانب الشرقي حتى رأس العين وداروا حوله حتى عبروا الجانب الزبى ونزلوا والقتال بتلطف منهم الابطال* ويصرع منهم الرجال . وكان نزولهم على تل هناك وضر بوأخيائهم هناك ممتدة منه الى النهر وجرح منهم في ذلك اليوم خلق عظيم وقل منهم أيضا جماعة وكانوا اذا جرح واحد منهم حملوه او قتل دفتوه وهم سائرون حتى لا يبين قتيلا ولا جريح وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر وتراجعت العساكر الى مواطن المصابرة ومواقف الحراسة وتقدم السلطان الى الميسرة ان تستدير بهم بحيث يقع آخرها على البحر والميمنة تستدير بالنهر من الجانب الشرقي والجاليش يقاثلهم بقربهم ويرميهم بالنشاب بحيث لا يقطع الشباب عنهم أصلا وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال وسار هو رحمه الله ونحن في خدمته الى رأس جبل الحروبة فنزل في خيمة لطيفة والناس حوله في خيم اطاف بمراى من العدو واجتاز العدو يتواصل ساعة فساعة الى الصبح . ولما كان يوم الاربعاء وصل من أخبر أنهم تحركوا للركوب فركب هو ورتب الاطالاب وسار حتى أتى أقرب جبال

الخروبة اليهم بحيث يشاهد أحوالهم. وكان رحمه الله ملتاث المزاج ضعيف القوى قوي القلب ثم بعث الي العساكر وأمرها بالمقاتلة والمضايقة والحملة عليهم من كل جانب وأمر الاطلاب أن تحيط بهم بحيث لا تكون قريبة ولا بعيدة لتكون وراء المقاتلة الي ان تضاحى النهار وسار العدو الى شاطئ النهر من الجانب الغربي يطلب جهة جهة والقتال يشتد عليهم من كل جانب الامن جانب النهر والتحم القتال فصرع منهم خلق عظيم وهم يدفنون قتلاهم ويحملون جرحاهم وقد جملوا رجالتهم سورا لهم تضرب الناس بالزنبرك والنشاب حتى لا يترك أحد يصل اليهم الا بالنشاب فانه كان يظهر اليهم كالجراد وخيالتهم يسيرون في وسطهم بحيث، لم يظهر منهم أحد في ذلك اليوم أصلا والكوسات تحفق والبوقات تنعروا واصوات بالتهليل والتكبير تملو هذا والسلطان يمد الجاليش بالاطلاب والعساكر التي عنده حتى لم يبق معه الا نفر يسير ونحن نشاهد الاحوال وعلم العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها وهي تسحب بالبغال وهم يذبون عن العلم وهو عال جدا كالمنارة خرقتة بياض ملمع بأحمر على شكل الصلبان ولم يزلوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهر قبالة جسر دعوق وقد أجهم العطش وأخذ منهم التعب واثنهم الحراج واشتد الأمر بهم من شدة الحر* ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالا شديدا وأعطوا الجهاد حقه وهجموا عليهم هجوما عظيما واستداروا بهم كالحلقة وهم لا يظهرن من رجالتهم ولا يحملون فكان الفعل معظمه للحلقة في ذلك اليوم فانهم اذا قوهم طعم الموت وجرح منهم جماعة كبار الطويل فانه قام في تلك الحرب العظيمة اعظم مقام وجرح جراحت متعددة وهو مستمر على القتال وجرح سيف الدين يازكوج جراحت متعددة وهو من فرسان الاسلام

وشجعانه وله مقامات متعددة وجرح خلق كثير ولم تزل الناس حولهم حتي
 نزلوا ظهر نهار ذلك اليوم عند جمر دعوق وقطعوا الجسر وأخربوه خوفا
 من عبور الناس اليهم ورجع السلطان الي تل الخروبة وأقام عليهم يزكا
 يحرسهم وأخبارهم تتواتر حتي الصباح وعزم في تلك الليلة على كسب
 بقيتهم وكتب الي البلد يعرفهم ذلك حتي يخرجوهم من ذلك الجانب
 فلم يصل من أهل البلد كتاب فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر
 الكتاب * ولما كان صباح الخميس رابع عشر الشهر وصل من أخبر أن العدو
 على حركة الرحيل فركب السلطان ورتب الاطلاب وكف الناس عن القتال
 خشية أن يفتالوا فان العدو كان قد قرب من خيمه وأداروا الاطلاب في
 الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل الي خيمه * وكان ممن
 خرج من مقدميهم في هذه السرية الكندهري والمركيس وتحلف ابن ملك
 الالمان في الخيم مع جمع كثير منهم * ولما دخل العدو الي خيمهم كان لهم فيها
 اطلاب مستريحة فخرجت الي اليزك الاسلامي وحملت عليه ونشب القتال
 بين اليزك وبينهم وجري قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم
 وقتل من المسلمين ثلاثة نفر وقتل من العدو شخص كبير فيهم مقدم عليهم
 وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد الي حافره وكان عليه لباس لم ير مثله
 وطابوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جثته وطلب رأسه فلم
 يوجد وعاد السلطان الي مخيمه وأعاد الثقل الي مكانه وعاد كل قوم الي
 منزلتهم وعاد عماد الدين وقد أقلعت حماه وبقى التياث مزاج السلطان وقد
 كان سبب سلامة هذه الطائفة مع كونه لا يقدر على مباشرة الأمر بنفسه
 ولقد رأيت وهويكي في حال الحرب كيف لم يقدر على مخالطته ورأيت وهو

بأمر أولاده واحداً بعد واحد بمكافحة الامر ومخالطة الحرب* ولقد سمعت منه وفائل يقول ان الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث ان الموت قد كثر في الطائفتين ينشد متمثلاً*

اقتلاني ومالكا* واقتلا مالكا معي

يريد بذلك اني قد رضيت أن أتلف أنا اذا تلف أعداء الله وحدث

بذلك قوة عظيمة في نفوس العسكر الاسلامي

﴿ ذكر وقعة الكمين ﴾

وفي الثاني والعشرين من شوال رأى الساطان ان يضع للعدو كميناً وقوى عزمه على ذلك فاخرج جمعا من كجاة العسكر وشجعانه وأبطاله وفرسانه وانتخبهم من خلق كثير وأمرهم أن يسيروا في الليل وبكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيد من عسكر العدو عنده كانت منزلة الملك العادل حين وقعت الواقعة المنسوبة اليه وان يظهر منهم للعدو نفر يسير وان يقصدوه في خيمه ويحركوه حتى اذا خرج انهزموا بين يديه نحو المسلمين ففعلوا ذلك وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلاً فكمنوا فيه . ولما تجلى نهار الثالث والعشرين خرج منهم نفر يسير على جيات من الخيل وساروا حتى أتوا خيم العدو ورموهم بالنشاب وحركوا حميتهم بالضرب المتواتر فانتخي لهم مقدار مائتي فارس وخرجوا اليهم شاكي السلاح على خيل جيد بعدة تامة وأسلحة كاملة وقصدوهم وليس معهم أحد راجل وداخلهم الطمع فيهم لقله عدتهم فانهزموا بين أيديهم وهم يقتلونهم ويقتلون حتى أتوا الكمين فثارت عند وصولهم الابطال وصاحوا صيحة الرجل الواحد وهجموا عليه هجمة الأسود على فراسها فثبتوا وصبروا وقتلوا قتالا شديداً ثم ولو انهزم من فتمكن أولياء الله منهم وأوقعوا

فيهم ضربا بالسيف حتى أفنوا منهم جمعا عظيما واستسلم الباقون للاسرفأسروهم وأخذوا خيلهم وعددهم وجاء البشير الي العسكر الاسلامي فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير وركب السلطان يتلّي المجاهدين وسار وكنت في خدمته حتى أتى تل كيسان فلقينا أوائل القوم فوقف هناك يتلّي العائدين من المجاهدين والناس يتبركون بهم ويشكرونهم على حسن صنيعهم وهو يعتبر الاسرى ويتصفح أحوالهم . وكان ممن أسر مقدم عسكر الافرنسيس فانه كان قد انفذ نجدة قبل وصوله وأسر خازن الملك أيضا وعاد السلطان بعد تكامل الجماعة الى مخيمه فرحا مسرورا وأحضر الاسرى عنده وأمر مناديا ينادى من أسر أسيرا فليحضره فأحضر الناس أسراهم وكنت حاضرا ذلك المجلس . ولقد أكرم المقدمين منهم وخلع عليهم وعلى مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاص وأمر لكل واحد من الباقين بفروة جرحية فان انبرد كان شديدا . وكان قد أخذ منهم وأحضر لهم طعاما أكلوه وأمر لهم بخيمة تضرب قريبا من خيمته وكان يكارمهم في كل وقت ويحضر المقدم على الخوان في بعض الاوقات وأمر بتنفيذهم وحملهم الي دمشق فحملوا مكرمين وأذن لهم في أن يرسلوا صاحبهم وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون اليه من الثياب وغيرها ففعلوا ذلك وساروا الي دمشق

﴿ ذكر عود العسكر عن الجهاد ﴾

ولما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدو أن يضرب مصاف وطلب البلد وحصاره من شدة الامطار وتواترها أذن السلطان للعساكر في الود الى بلادهم ليأخذوا نصيبا من الراحة وتجم خيولهم الي وقت العمل . وكان أول من سار عماد الدين صاحب سنجار لما كان عنده من القلق في طلب

الدستور . وكان مسيره خامس عشري شوال وسار عقبه في ذلك اليوم ابن أخيه سنجرشاه صاحب الجزيرة هذا بعد أن أفيض عليهما من التشریف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما . وسار عيلاء الدين ابن صاحب الموصل في مستهل ذي القعدة مشرفاً مكرماً معه التحف والطرائف وتأخر الملك المظفر الي أن دخلت سنة سبع وثمانين وتأخر أيضاً الملك الظاهر وسار تاسع المحرم سنة سبع وثمانين وسار الملك المظفر في ثالث صفر ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الامراء والحلقة الخاصة . وفي أثناء ذي القعدة سنة ست وثمانين وفد عليه زلفتنار فتلقاه وأكرم مشواه ووضع له طعاماً يوم قدومه وباسطه مباسطة عظيمة . وكانت حاجته أن يوقع له باعادة أملاك كانت في يده ثم اتزعت من أعمال نصيين والخابور فوقع باعادتها الي يده واجراء الامر فيها بعد ذلك على وفق الشريعة المطهرة وخلع عليه وشرفه وسار فرحاً مسروراً شاكر الأياديه

﴿ ذكر ارتحال السلطان لادخال البديل الي البلد ﴾

ولما هاج البحر وأمنت غائلة مراكب العدو ورفع ما كان له من الشواني في البحر الي البر اشتغل السلطان في ادخال البديل الي عكا وحمل البر والذخائر والنفقات والعدد اليها واخراج من كان بها من الامراء لمعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهاراً وكان مقدم الباد من البديل الداخل الامير سيف الدين على المشطوب دخل سادس عشر المحرم من شهور سنة سبع وثمانين وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الامراء وأعيان الخلق وتقدم الي كل من دخل أن يصحب ميرة السنة وانتقل الملك

العاذل بعسكره الي حيفا على شاطيء النهر وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب
فتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج اليه فاقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس
المير والذخائر لئلا يتطرق اليها من العدو من يترضاها وكان مما دخل اليها سبع بطس
مملوءة مسيرة وذنائر ونفقات كانت وصات من مصر مملوءة وتقدم السلطان
بتعبيتها من مدة مديدة وكان دخولها ثاني ذى الحجة من السنة الحالية فانكسر
منها مركب على الصخر الذي هو قريب من الميناء فانقلب كل من في البلد من
المقاتلة لتلقي البطس . ولما علم العدو ذلك أخذوا غرتهم وزحفوا الي البلد
في جانب البرزحفة عظيمة وقاربوا الاسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم
السلم كما شاء الله تعالى وتداركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا
خائبين خاسرين * وأما البطس فان البحر هاج هياجا عظيما وضرب بعضها على
الصخر فهلكت وهلك جميع من كان فيها * قيل كان عددهم ستين نفرا وكان فيها
ميرة عظيمة لو سلمت كفت البلد سنة كاملة وذلك بتقدير العزيز العليم ودخل
على المسلمين بذلك وهن عظيم واحرج السلطان بذلك حرجا عظيما فاستخلف
ذلك في سبيل الله تعالى وما عند الله خير وأبقى * وكان ذلك أول علامات
أخذ البلد والظفر به * ولما كانت ليلة السبت سابع ذى الحجة من السنة الحالية
قضى الله وقدر ان وقع من السور قطعة عظيمة وتلقاها على الباشورة فهدمت
أيضا منها قطعة عظيمة وهى العلامة الثانية وقد أخذ العدو الطمع وهاج الزحف
هياجا عظيما وجاءوا الي البلد كقطع الليل المدهم من كل جانب وثارت همم الناس
في البلد وقتلوا العدو قتالا شديدا حتى ضرسوا وأيسوا من ان ينالوا خيرا
فوقفوا على سد موضع القطعة الواقعة وجمعوا من في البلد من البنائين والصناع
ووضعوهم في ذلك الموضع وحموهم بالنشاب والمناجيق فما صرت الاليل يسيرة حتى

انتظمت وعاد بناؤها أحسن مما كان واقوى واتقن

﴿ ذكر الظفر بمراكب العدو ﴾

وكان قد استأن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا وقالوا
للسلطان نحن نخوض البحر في براكيس وبطس الى العدو ويكون الكسب
بيننا وبين المسلمين فاذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوسا وهو المركب الصغير
فركبوا فيه وظفروا بمراكب للتجار من العدو وهي قاصدة الى عسكرهم
وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة فوقع عليها البركوس وقاتلوهم
حتى أخذوهم واكتسبوا منهم مالا عظيما وأسروهم وأحضرهم وهم بين يدي
السلطان وذلك في ثالث عشر ذي الحجة من السنة المذكورة ولقد كنت حاضرا
ذلك المجلس وكان من جملة ما أحضروه مائة فضة وعليها مكبة مخرمة من
فضة فاعطاهم السلطان الجميع ولم يأخذ منهم شيئا وفرح المسلمون بنصر الله
عليهم بأيديهم *

﴿ ذكر موت ابن ملك الالمان ﴾

وذلك ان العدو لما دخل الشتاء عليهم وتواترت الانداء واختلفت
الاهواء وخم المريج وخما عظيما وقع معه موتان عظيم وانضم الي ذلك الغلاء
الزائد وانسد عليهم البحر الذي كان يجيئهم منه الميرة من كل جانب وكان
يموت منهم كل يوم المائة والمئتان على ما قيل وقيل أكثر من ذلك * ومرض
ابن ملك الالمان مرضا عظيما وعرض له مع ذلك مرض الجوف فهلك به في
الذاني والعشرين من ذي الحجة سنة ست وثمانين وحزن الافرنج عليه حزنا عظيما
واشملت له نيران هائلة بحيث لم يبق له خيمة الا واشملت فيها الناران والثلاثة

بحيث بقي عسكريهم كله نار وفرح المسلمون بذلك بمثل ما حزن الكفار بفقده
وهلاك منهم كبير يقال له الكند بالباط ومرض الكندهرى وأشرف على الهلاك
* وفي الرابع والعشرين منه أخذ منهم بركوسان فيهما نيف وخمسون نذرا
وفي الخامس والعشرين منه أخذ منهم أيضا بركوس وجميع ما فيه وكان من
جملة ما فيه ملوطة مكللة بالؤلؤ وهي من تفاصيل الملك وقيل كان في البركوس
ابن أخيه وأخذ أيضا

﴿ ذكر غارة أسد الدين ﴾

وهذا أسد الدين هو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين
شيركوه الكبير وهو صاحب حمص * وكان من حديثه ان السلطان كان قد
رسم له أن يأخذ حذر من الافرنج بطرابلس ويأخذ نفسه بحراسة المسلمين
والفلاحين في تلك الناحية وأنه قيل له ان افرنج طرابلس قد أخرجوا جشارهم
وخيلهم الي مرج هناك وبقارهم ودوابهم وانه قد قرر مع عسكريه قصدهم
نخرج على غرة منهم وهجم على جشارهم فأخذ منهم من الخيل أربعمائة راس
ومئة من البقر فهلك من الخيل أربعون وسلم الباقي وعاد الى البلد ولم يفقد
من أصحابه أحد ووصل الكتاب بذلك في رابع صفر من سنة سبع وثمانين

﴿ ذكر وقائع عدة في هذه السنة ﴾

وفي ثالث ربيع الاول كان الزك للحلقة السلطانية وخرج من العدو
اليهم خلق عظيم وجرى بينهم وقعة شنيعة وقتل فيها من العدو جماعة وقتل
منهم رجل كبير على ما قيل ولم يفقد من المسلمين الا خادم للسلطان يسمى
فراقوش وكان شجاعا عظيما له وقعات عظيمة كثيرة استشهد في ذلك اليوم

* وفي تاسع الشهر بلغ السلطان أن العدو يخرج منه طائفة يتفصحون لبعدها عنهم فاقترض رأيهم أن أنفذ أخاه الملك العادل وفي خدمته خلق عظيم من العساكر الاسلامية وأمره أن يكمن للعدو وراء التل الذي كانت فيه الواقعة المعروفة به فسار هو وجمع كان من كبراء أهله وأصحابه فكمن وراء تل العياضية وكان ممن كان معه من كبار أهله الملك المظفر تقي الدين وابنه ناصر الدين محمد والملك الافضل ولده ومعه صغار أولاده الملك الاشرف محمد والملك المعظم طور انشاه والملك الصالح اسماعيل وكان من المعتمدين الفاضل والديوان وكنت في الصحبة في ذلك اليوم وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد وناولوا العدو فلم يخرج في ذلك اليوم وكان قد وشى اليهم بحلية الامراء الآن ذلك اليوم لم ينفك الا بنوع نصر فانه وصل في اثناة خمسة وأربعون نفراً من الافرنج كانوا قد أخذوا في بيروت وسيروا الي السلطان ووصلوا في ذلك اليوم الى ذلك المكان * ولقد شاهدت منه رقعة قلب لم ير أعظم منها وذلك انه كان فيهم شيخ كبير طاعن في السن لم يبق في فيه ضرر ولم تبق له قوة الا مقدار تحرك لا غير فقال للترجمان قل له ما الذي حملك على الهجاء وانت في هذا السن وكم من ههنا الي بلادك فقال بلادي بنى وبينا عدة أشهر * وأما مجيئي فانما كان للحج الي القمامة فرق له السلطان ومن عليه وأطلقه وأعادته راكبا على فرس الي عسكر العدو * ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير فلم يفعل فسأته عن سبب المنع وكنت حاجبهم بما طلبوه فقال لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء ويهون عليهم ذلك وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر * ولما أيس من خروج العدو عاد الي الخيم في عشية ذلك اليوم

﴿ ذكر وصول العساكر الاسلامية والملك افرنسيس ﴾

ومن ذلك الوقت انفتح الباب وطاب الزمان وجاء أو ان عود العساكر الي الجهاد من الطائفتين فكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جنيد من أمراء الملك الظاهر وكان شيخاً كبيراً مذكوراً له وقائع ذارأي حسين والسلطان يحترمه ويكرمه وله قدم صحبة * ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين نخرشاه وهو صاحب بعلبك وتنابت بعد ذلك العساكر الاسلامية من كل صوب * وأما عسكر العدو فانهم كانوا يتواعدون اليزك ومن يقاربهم بقدم الملك الفرنسيس وكان عظيماً عندهم مقدماً محترماً من كبار ملوكهم تنقاد اليه العساكر بأسرها بحيث اذا حضر حكم على الجميع ولم يزلوا يتواعدون بقدمه حتي قدم في ست بطس تحمله وميرته وما يحتاج اليه من الخيل وخواص أصحابه وكان قدومه يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الاول من هذه السنة

﴿ نادرة وبشارة ﴾

وكان قد صحبه من بلاده باز عظيم هائل الخلق أبيض اللون نادر الجنس ما رأيت بازياً أحسن منه وكان يعزه ويحبه حباً عظيماً فشذ الباز من يده وطار وهو يستجيئه ولا يجيئه حتى سقط على سور عكا فاصطاده أصحابنا وانفذوه الي السلطان وقد كان لقدمه روعة عظيمة واستبشار عظيم بالظفر به فتفائل المسلمون بذلك وبذل الافرنج في ألف دينار فلم يجابوا وقدّم بعد ذلك كندفرند وكان مقدماً عظيماً عندهم مذكوراً فذكروا انه حاصر حماه وحارم في عام الرملة * ولما كان الثاني عشر من ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية ان

كان جماعة من المستأمنين قد أعطوا براكيس ليكبسوا عليها في البحر من العدو فاخذوها ونزلوا في جزيرة قبرص في عيد لهم وقد اجتمع جمع كثير من أهل الجزيرة في بيعة قريبة من البحر وأنهم صلوا معهم صلاة العيد وأنهم لما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من البيعة من الرجال والنساء واخذوهم عن آخرهم حتى القس وحملوهم والقوهم في مراكبهم وساروا بهم حتى أتوا اللاذقية وكان من جملة ما كان فيها سبعة وعشرون امرأة و أموال عظيمة فتقسموها فوصل الي كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة وقدم بعد ذلك بدر الدين شحنة دمشق في سابع عشر ربيع الآخر وهجم أصحابنا على غنم العدو فاخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأساً فركب في طلبها الرجال والفارس فلم يظفروا منها بشيء *

﴿ ذكر ملك الانكتار ﴾

وهذا ملك الانكتار شديد الباس بينهم عظيم الشجاعة قوي الهمة له وقعات عظيمة وله جسارة على الحرب وهو دون الفرنسيس عندهم في الملك والمنزلة لكنه أكثر مالاً منه وأشهر في الحرب والشجاعة * وكان من خبره أنه وصل الي جزيرة قبرص ولم ير ان يتجاوزها الا وان تكون له وفي حكمه فنازلها وقاتلها فخرج اليه صاحبها وجمع له خلقاً عظيماً وقاتلهم قتالاً شديداً فأنفذ الانكتار الي عكا يستنجد اليه الملك جفري أخاه ومعه مائة وستون فارساً ليعينوه على مقصوده وبقيت الافرنج على عكا ينتظرون ما يكون من الطائفتين * وفي سلخ ربيع الآخر وصلت كتب من بيروت انه قد أخذ من مراكب الانكتار القاصدة نحو عسكر العدو خمس مراكب وطرادة فيها خلق عظيم رجال ونساء وميرة وأخشاب وآلات وغير ذلك

وفيها أربعون فارساً وكان ذلك فتحاً عظيماً استبشر به المسلمون * وفي رابع جمادي الاولى زحف العدو الى البلد ونصبوا عليه مناجيق سبعة ووصلت كتب عكا بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم فاعلم السلطان المساكر بالذم على الرحيل الي مضايقة العدو ومقاربتة وأصبح على أهبة المسير الى العدو ورتب المساكر ثم أنفذ من كشف حال العدو وحال خنادقهم هل فيها كمين أم لا فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين فسار بنفسه في نفر يسير من مماليكه الي خنادقهم وصعد جبلا كان يعرف بتل العضول قريباً من العدو مشرفاً على خيمهم وشاهد المنجنيقات وما يعمل منها وما هو بطلال ثم عاد الي خيمه وأنا في خدمته وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر قد أخذ من أمه سرقة *

﴿ ذكر قصة الرضيع ﴾

وذلك انه كان للمسلمين لصوص يدخلون الي خيام العدو فيسرقون منهم الرجال وكان من قصتهم انهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر وساروا به حتي أتوا الي خيمة السلطان وعرضوه عليه وكان كل ما يأخذونه يمرضونه عليه ويعطيهم ما أخذوه * ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالوبل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها الي ملوكهم فقالوا انه رحيم القلب وقد أذناك في الخروج فاخرجي واطلبيه منه فانه يرده عليك فخرجت تستغيث الي اليك فاخبرتهم بواقعها فأطلقوها وانفذوها الي السلطان فلقيته وهو راكب وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم فبكت بكاء شديداً ومرغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها ودمعت عينه وأمر باحضار الرضيع فوجدوه قد بيع في السوق فارتده وأمر

بدفع ثمنه الي المشتري وأخذه منه ولم يزل واقفاً حتي أحضر الطفل وسلم اليها فأخذته وبكت بكاء شديداً وضمته الي صدرها والناس ينظرون اليها ويكون وأنا واقف في جملتهم فارضته ساعة ثم أمر بها فحملت علي فرس والحقت بعسكرهم مع طفليها فانظر الي هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر * اللهم انك خلقتني رحيماً فارحمه رحمة واسعة من عندك ياذا الجلال والاكرام . وانظر الي شهادة الاعداء له بالرأفة والكرم شعر

ولهيعة شهدت لها ضراتها والحسن ليس لحقه من منكر وفي ذلك اليوم وصل ظهر الدين بن البلكري وكان مقدماً عظيماً من أمراء الموصل وصل مفارقاً لهم ليطلب خدمة السلطان ولما عاد السلطان الي مخيمه لم يلبث الا ساعة حتي وصله الخبر بتجديد الزحف فعاد وركب من ساعته نحو البلد وقد انفصل الحرب بدخول الليل من الطائفتين *

بذكر انتقال السلطان الي تل العياضية ﴿

ولما كانت صبيحة الثلاثاء تاسع جمادي الاولي بلغ السلطان ان الا فرنج قد ضايقوا البلد وركبوا المناجيق فامر الجاويش أن صاح بالناس وركب لركوبه العسكر راجلهم وفارسهم حتى أتى الحروبة وقوي الزك بتسيير جماعة من العسكر اليه فلم يخرج العدو واشتد زحفهم على البلد فضايقهم رحمه الله مضايقة عظيمة وهجم عليهم في خنادقهم ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهر نهار وعاد العدو الي خيمه وقد أيس من أمر البلد وعاد السلطان الي خيمة لطيفة ضربت له هناك يستظل فيها من الشمس فنزل بها الصلاة الظهر والاستراحة ساعة وقوي الزك وافر الناس بالعود الي المخيم لأخذ جزء من الراحة وكنت في خدمته فبينما هو كذلك اذ وصل من الزك من

أخبر ان القوم قد عادوا الي الزحف لما أحسوا بانصرافه عنهم أشد ما كانوا
أولاً فامر من نبه الناس وأمر بالعود فتراجعت العساكر الى جهة العدو أطلابا
أطلابا وأمر بالمبيت على أخذ لأمة الحرب وأقام هو هناك على عزم المبيت
وفارقت خدمته آخر نهار الثلاثاء ومدت الي الخيم وبات هو وجميع العسكر
على تعبئة القتال طول الليل واصرطائفه منهم على مضايقة العدو ثم سار العسكر
أواخر ليلة الاربعاء عاشر الشهر الي تل العياضية قبالة العدو وضربت له
عاه خيمة لطينة ونازل العدو في ذلك اليوم اجمع بالقتال الشديد والضرب
المبرح المتواتر الذي لا ينتر شغلا طم عن الزحف وهو يدور بين الاطلاب
ويحتمهم على الجهاد ويرغبهم فيه * ولما رأى العدو تلك المنازلة الهائلة خافوا من
المهجوم عليهم في خيمهم فرجعوا عن الزحف واشتغلوا بمخبط الخنادق وحراسة
الخيم * ولما رأى فتورهم عن الزحف عاد الي العياضية ورتب على خنادقهم من
ينجبره بحالهم ساعة فساعة اذا رجعوا الي الزحف كل ذلك دفعا للعدو عن
مضايقة البلد والزحف عليه *

﴿ ذكر الشروع في مضايقة البلد ﴾

ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومباغتتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون
فيه موتى دوابهم بأسرها وآل الامر الي ان كانوا ياتون فيه موتاهم وكانوا
اذا جرح منهم أحد جراحة مؤلمة مشخنة القوه فيه بهذا جميعه تواصلت كتب
أصحابنا من البلد * وأما أهل البلد فانهم انقسموا اقساما قسم ينزلون في الخندق
يقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها وقسم ينقلون
ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر * وقسم يذبون عنهم ويدافعون
حتى يتمكنوا من ذلك وقسم في المنجنيقات وحراسة الأسوار وأخذ منهم

التب والنصب وتواترت شكائتهم من ذلك * وهذا ابتلاء لم يبل بمثله أحد ولا يصبر عليه جلد . وكانوا يصبرون والله مع الصابرين . هذا والسلطان لا يقطع الزحف على خنادقهم بنفسه . وخواصه واولاده ليلا ونهارا حتى أثرت فيه الاثر البين وكما ازدادوا في قتال البلد ازداد هوى قتالهم وكبس خنادقهم والهجوم عليهم حتى خرج منهم شخص يطاب . من يتحدث معه فلما أخبر السلطان بذلك قال ان كان لكم حاجة فليخرج منكم واحد فاما نحن فليس لنا اليكم حاجة ولا شغل ودام ذلك متصلا الليل مع النهار حتى وصل الانكسار *

﴿ ذكر وصول الانكسار ﴾

ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر قدم ملك الانكسار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها وكان لقدومه روعة عظيمة ووصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد وأظهر الافرنج سرورا عظيما حتى أنهم أوقدوا نلك الليلة نيرانا عظيمة في خيامهم * ولقد كانت النيران مهولة عظيمة تدل على عدة عظيمة كبيرة وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم انهم متوقعون فيما يريدون ان يفعلوه من مضايقة البلد حتى قدومه فانه ذورأى في الحرب مجرب وأثر قدومه في فلوب المسلمين خشية ورهبة * هذا والسلطان يتلتي ذلك كله بالصبر والاحتساب . والاتكال على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه *

﴿ ذكر غرق البطسة الاسلامية وهي العلامة الثالثة على أخذ البلد ﴾

ولما كان السادس عشر وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة . مشحونة بالآلات والاسلحة والمير والرجال والابطال المقاتلة وكان

السلطان قد أمر بتعبيتها وتسييرها من بيروت ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدو وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً فاغرقها الانكثار في عدة شوان قيل كان فيها أربعون قلماً فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها وجرى القضاء بان وقف الهواء فقاتلواها قتالاً عظيماً وقتل من العدو عليها خلق عظيم وأحرقوا للعدو شانياً كبيراً فيه خلق عظيم فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدمهم رجلاً جيداً شجاعاً مجرباً في الحرب فلما رأى أمارات الغلبة عليهم وانهم لا بد وان يقتلوا قال والله لا تقتل الا عن عز ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئاً فوقوا في البطسة من جوانبها بالمعاول فهدموها ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها من كل جانب أبواباً فامتلات ماء ففرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك ولم يظفر العدو منها بشيء وكان اسم المقدم المذكور يعقوب من رجال حلب وتلقف العدو بعض من كان فيها فأخذوه الي الشواني من البحر وخلصوه من الفرق وأنفذوه الي البلد ليخبرهم بالواقعة وحزن الناس لذلك حزناً شديداً وانسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله والصبر على بلائه والله لا يضيع أجر المحسنين

﴿ ذكر حريق الدبابة ﴾

وذلك ان العدو كان قد اصطنع دبابة عظيمة هائلة أربع طبقات الطبقة الاولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس وكانت تعملو على السور وكان يركب فيها المقاتلة وخاف أهل البلد منها خوفاً عظيماً وحدثهم نفوسهم بطلب الامان من العدو وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور الا مقدار خمسة أذرع على ما يشاهد

برأي العين وأخذ أهل البلد في تولية ضربها بالنمط ليلاً ونهاراً حتى قدر الله تعالى حرقها واشتعال النار فيها وظهر لها ذؤابة نار نحو السماء فاشتدت الاصوات بالتهليل والتكبير ورأوا الناس فيها لما ظهرت لها تلك النيران ولقوا جبراً من ذلك الرهن ومحو لذلك الاثر ونعمة بعد نقمة وايناساً بعد يأس وكان ذلك في يوم غرق البطسة فوقع من المسلمين موقفاً عظيماً وكان مسلياً لحزبهم

﴿ ذكر وقعات عدة ﴾

ولما كان يوم الجمعة تاسع عشر الشهر زحف العدو على البلد زحنا عظيماً وضائقوه مضايقة شنيعة . وكان قد استقر بيننا وبينهم أنهم متى زحف العدو عليهم دقوا كؤوسهم فضربوا بكؤوسهم فأجابت كؤوس السلطان وركبت العساكر وضائقهم السلطان من خارج وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم في خيامهم فجاوزوا خنادقهم وأخذوا التدور وما فيها وحضر بن الغنمية المأخوذة من خيامهم شيء عند السلطان وأنا حاضر ولم يزل القتل يعمل حتى أيقن العدو انه قد هجم عليهم فأخذوا يتراجعون عن قتال البلد وتسرعوا في قتال العساكر وانتشب الحرب بينهم ولم تزل ناشبة حتى قام قائم الظهيرة وغشى الناس من الحر أمر عظيم من الجانبين وتراجعت الطائفتان الي خيامهم وقد أخذ منهم التعب والحر

ولما كان يوم الاثنين الثالث والعشرون دق كؤوس البلد فجأوبه كؤوس السلطان وثار القتال بين الطائفتين وبلغ العدو في مضايقة البلد ثمة منهم أنب الناس لا يهجمون على خيمهم وانهم يهابونها فكذب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضاً ونهبوا منها فراجع العدو الي قتالهم ووقع

الصياح فيهم فلهقوا من المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم وجري بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين وجرح جماعة وقتل جماعة من العدو . وأعجب ما في هذه الوقعة انه كان وصل في هذا اليوم رجل كبير مذکور من أهل ما زندران يريد الغزاة فوصل والحرب قائمة فلقي السلطان فاستأذنه في الجهاد وحمل حملة شديدة واستشهد في تلك الساعة . ولما رأى العدو دخول المسلمين الي خنادقهم وتوغلهم الى داخل أسوارهم داخلهم الحمية وبعثتهم النخوة فركب فارسهم وصحبه راجلهم وخرجوا الي ظاهر أسوارهم وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فثبت المسلمون لهم ثبوتا عظيما لم يتحركوا من أماكنهم والتجم القتال من الجانبين واشتد الضرب من الجانبين وصبر المسلمون صبر الكرام . ودخلوا في الحرب بالتحام . فلما رأى العدو ذلك الصبر المعجب والاقدام المزعج أنفذوا رسولا في غضون ذلك يستأذنون بالرسول في الوصول فأذن له فوصل الرسول أولا الي الملك العادل فاستصحبه ووصل به الي الخدمة السلطانية ومعه أيضا الملك الافضل فأدي الرسالة وكان حاصلها أن ملك الانكشار يطلب الاجتماع بالسلطان فلما سمع السلطان الرسالة أجاب عنها في الحال من غير تفكير ولا تروء بأن قال ان الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمواكلة واذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ولا بد من ترجمان نشق به في الوسط يفهم كل واحد منا ما يقول الآخر فيمكن بيننا ذلك الترجمان فاذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك ان شاء الله تعالي ولما كان يوم السبت الثامن والعشرون خرج العدو راجلهم وفارسهم من جانب البحر شمالي البلد وعلم السلطان ذلك فركب وركب العسكر وانتشب القتال

بين الطائفتين وقتل من المسلمين بدوى وكردى وقتل من العدو جماعة وأسروا واحداً بسلاحه وفرسه ومثل بين يدى السلطان ولم يزل القتال يعمل حتى حال الليل بين الطائفتين * ولما كان الاحد التاسع والعشرون خرج العدو برجالة كثيرة على شاطئ النهر الحلو فلقبهم طائفة من اليزك وجرى بينهم قتال عظيم ووصلت رجالة من المسلمين الى الحرب فأسروا مسلماً وقتلوه وأحرقوه وأسر المسلمون منهم واحداً فقتلوه وأحرقوه ولقد رأيت النارين تشتعلان فى زمان واحد * ولم تزل الاخبار تتواصل من أهل البلد بالاحتفال بأمر العدو والشكوي من ملازمة قتالهم ليلاً ونهاراً وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الاعمال المختلفة عليهم من جريرة قدوم الانكثارات ثم مرض مرضاً شديداً أشفى فيه على الهلاك وخرج الفرنسيس ولم يزد هم ذلك الا اصراراً وعتواً وكان لأخت ملك الانكثار خادمان مسلمان فى الباطن كانا فى خدمتها فى صقلية وكانت هى زوجة صاحب صقلية فلما مات ومر أخوها بالبلد أخذها واصحابها معه الى العسكر وهرب الخادمان الى العسكر الاسلامي فقبلهما السلطان وأنعم عليهما انعاماً عظيماً

﴿ ذكر هرب المركيس الى صور ﴾

ولما كان يوم الاثنين سلخ جمادى الاولى قوي استشار المركيس أنه ان أقام قبضوا عليه وأعطوا صور للملك القديم الذى كان قد أسره السلطان لما عاناه من الأسر فى نصرة دين المسيح . ولما صح ذلك عنده هرب الى صور فانفذوا خلفه قسوساً ليردوه فلم يفعل وسار فى البحر حتى أتى صور وشق ذلك عليهم وعظم لديهم فانه كان ذا رأي وشجاعة وخبرة *



﴿ ذكر وصول بقية عساكر الاسلام ﴾

وفي سلخ جمادي الأولي قدم عسكر سنجار يقدمه مجاهد الدين برتقش فلقية السلطان واحترمه وكان ديناً عاقلاً محباً للنزول فانزله السلطان في الميسرة بعد أن اكرمه وأنزله في خيمته وفرح بقدمه فرحاً شديداً في ذلك الوقت ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر كعلم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدوادار وجماعة كثيرة ثم قدم بعد ذلك علاء الدين صاحب الموصل وعسكرهم فلقية السلطان بالحروب ونزلوا هناك الي بكرة اليوم الثاني من جمادي الآخرة وأصبح سائراً حتى أتى بحفله قبالة العدو وعرض عسكره هناك وأنزله السلطان في خيمته وحمل له من التحف وقدم له من اللطائف ما يليق بكرمه وأنزله في الميمنة * وفي الثالث قدمت طائفة من عسكر مصر أيضاً * واشتد مرض الانكثار بحيث شغل الافرنج شدته من الزحف وكان ذلك خيرة عظيمة من الله تعالى فان البلد كان قد ضعف من فيه ضعفاً عظيماً وضاق بهم الجناق وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل * هذا والصوص يدخلون الي خيامهم ويسرقون أقمشهم ويأخذون الرجال في غفلة بان يجيئوا الي الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقة السكين ويوقظوه ويقولوا له بالاشارة ان تكلمت ذبحناك ويحملوه ويخرجوا به الي العسكر وجرى ذلك مرارا وعساكر المسلمين تجتمع وتواتر من كل جانب حتى تكامل وصولها

﴿ ذكر وصول رسولهم الي السلطان ﴾

كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمس من جانب الانكثار أن

يجتمع بالسلطان وذكرت عذر السلطان عن ذلك وانقطع الرسول وعاد معاودا في المعنى وكان حديثه مع الملك العادل ثم هو يلقيه الى السلطان واستقر أنه رأى أن يأذن له في الخروج ويكون الاجتماع في المرج والعساكر محيطة بهما ومعها ترجمان فلما أذن في ذلك تأخر الرسول أياما عنده بسبب مرضه واستفاض أن ملوكهم اجتمعوا عليه وانكروا عليه ذلك وقلوا هذه مخاطرة بدين النصرانية ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول لا تظن تأخري بسبب ما قيل فإن زمام قيادي مفوض الي وأنا أحكم ولا يحكم علي غير أني في هذه الايام اعترى مزاجي التيات من معنى من الحركة فهذا كان العذر في التأخير لا غير وعادة الملوك اذا تقاربت منازلهم ان يهادوا وعندى ما يصلح لسلطان وأنا أستخرج الاذن في ايصاله اليه فقال له الملك العادل قد أذن في ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية فرضي الرسول بذلك وقال الهدية شيء من الجوارح قد جلب من وراء البحر وقد ضعف فيحسن أن يحمل الينا طير ودجاج حتي نطعمها لتقوي ونحملها فداعبه الملك العادل وكان فقيها فيما يحسدتهم به فقال الملك قد احتاج الي فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة ثم انفصل حديث الرسالة في الآخر على أن قال الرسول ما الذي أردتم منا ان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع فقيل له عن ذلك نحن ما طلبناكم أتم طلبته ونا فان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع وانقطع حديث الرسالة الي سادس جمادى الاخرى نخرج رسول الانكثار الى السلطان ومعه انسان مصرى قد اسروه من مودة طويلة وهو مسلم قد اهداه الي السلطان فقبله وأحسن اليه وأعادته مشرفا مكرما الي صاحبه وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عنده من ذلك أيضا *

﴿ ذكر قوة زحفهم على البلد ومضايقته ﴾

ولم يزالوا يوالون على الاسوار بالمناجيق المتواصلة والضرب وتقلوا
أحجارها حتى خلموا سور البلد وأضعفوا بنيانه وأنهك التعب والسر أهل
البلد لقلة عددهم وكثرة الاعمال حتي أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون
أصلاً لا ليلاً ولا نهاراً والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم
وهم نفر يسير قد تقسوا على الاسوار والخنادق والمنجنقات والسفن ولما
أحس العدو بذلك وظهر لهم تحلل السور وتقلل بنيانه شرعوا في الزحف
من كل جانب وانقسموا أقساماً وتناوبوا فرقا كلما تعب قسم استراح وقام
غيره مقامه وشرعوا في ذلك شروعا عظيماً براجلهم وفارسهم سابع الشهر *
هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلاً ونهاراً *
ولما علم السلطان ذلك باخبار من يشاهده واطهار العلامة التي بيننا وبينهم
وهي دق الكؤوس ركب وركب المسكر اليهم وجرى في ذلك اليوم قتال
عظيم من الجانبين وهو كالوادة الشكلي يجول بفرسه من طلب الى طلب
ويحث الناس على الجهاد * ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه في ذلك اليوم
مرتين والسلطان يطوف بين الاطلاب بنفسه وينادي يا للاسلام وعينه
تذرفان بالدموع وكلما نظر الى عكا وما حلّ بها من البلاء وما يجري على
ساكنيها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال * ولم يطعم
في ذلك اليوم طعاماً البتة وانما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطيب
وتأخرت عن حضور هذا الزحف لالمام مرض شوش مزاجي لما عراني
فكنت في الخيمة في تل العياضية وأنا أشاهد الجميع * ولما هجم الليل عاد
رحمه الله الي الخيم بعد العشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب والكآبة

والحزن فنام لاعتن عفو *

ولما كان سحر تلك الليلة أمر الكوثوس أن دقت وركب العساكر من كل جانب وأصبحوا على ما أمسوا عليه وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة عن البلد يقولون فيها أنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ونحن في الغد ثامن الشهر إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكى في قلوبهم فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الإسلامية واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الإسلام كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرها وكان قراقوش ملتزماً بمجراتها منذ نزل العدو عليها وأصاب السلطان ما لم يصبه شيء مثله وخيف على مزاجه التشويش وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع إليه في جميع ذلك صابراً محتسباً ملازماً مجتهداً والله لا يضيع أجر المحسنين فرأى الدخول على القوم ومهاجمتهم فصاح في العساكر الصائح وركبت الأبطال فاجتمع الرجال والفارس واشتد الزحف ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم على الهجوم على العدو فإن رجاله وقفوا كالسور المحكم البنا بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم وهجم عليهم ببض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب ﴿ ولقد حكى ﴾ بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك رجل واحد أفرنجي صعد سور خندقهم واستدبر المسلمين وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور الخندق وقال أنه وقع فيه زهاء خمسين سهماً وججراً ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه

زراق مسلم بقارورة فاحرقه ﴿ ولقد حكى ﴾ لي شيخ عاقل جندي انه كان من جملة من دخل قال وكان داخل سورهم امرأة عظيمة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمينا بقوس من خشب حتى خرجت منا جماعة وتكاثروا عليها وقتلناها وأخذنا قوسها وحماتها الي السلطان فعجب من ذلك عجباً عظيماً ولم يزل الحرب يعمل بين الطائفتين بالقتل والجرح حتى فصل بينهم الليل *

﴿ ذكر ما آل اليه أمر البلد من الضعف ووقوع

المراسلة بين أهل البلد والافرنج ﴾

ولما اشتد زحفهم على البلد وتكاثروا عليها من كل جانب وتناوب ضعف أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك واستشعروا العجز عن الدفع وتمكن العدو من الخنادق فملكوها وتمكنوا من سور الباشورة فنقبوه وأشعلوا فيه النار بعد حشو النقب ووقعت بدنة من الباشورة ودخل العدو الباشورة وقتل منهم فيها مائة وخمسون نفراً وصاعداً وكان فيهم ستة من كبارهم فقال لهم واحد منهم لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الأخرى وفي الغد نادى الافرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم فقالوا قد قتلناهم فحزن الافرنج لذلك حزناً عظيماً وطلبوا الزحف بمد ذلك أياماً ثلاثة

وبلغنا أن سيف الدين المشطوب خرج بنفسه الي ملك الفرنسيين بالامان قال له قد أخذنا منكم بلاداً عدة وكنا نهجم البلد ندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الامان أعطيناهم وحملائهم الي مأمئهم واکرمناهم ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على أنفسنا فأجابه بان هؤلاء الملوك الذين أخذتوهم منا وأنتم أيضاً ممالكي وعبيدي فأرى فيكم رأيي وبلغنا ان المشطوب بعد

ذلك أغلظ له في التمول وقال أقاويل كثيرة في ذلك المقام منها انا لا نسلم
البلد حتى تقتل باجمعنا ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسون نفساً من
كباركم وانصرف عنه *

ولما دخل المشطوب البلد بهذا الخبر خاف جماعة ممن كانوا في البلد
فأخذوا بركوسا وركبوا فيه ليلاً خارجين الى العسكر الاسلامي منهم أرسل
وابن الجاولي وسنقر الرشاقى فأما أرسل وسنقر فانهما تغيبا في العسكر ولم
يعلم لهما مكان خشية من نقمة السلطان . وأما ابن الجاولي فظفر به ورمي
في الزردخانة

وفي سحر تلك الليلة ركب السلطان مشعراً أنه يواصل كبس القوم ومعه
المساحي وآلات طم الخنادق فما ساعده العسكر على ذلك وتخاذلوا عن
ذلك وقالوا نخاطر بالاسلام كله ولا مصلحة في ذلك

وفي ذلك اليوم خرج من الانكثار رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجاً
وذكروا أن مقدم الاستبثار يخرج في الغد يتحدث في معنى الصلح غير ان
السلطان اكرمهم ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه وعادوا تلك الليلة الي
عسكرهم

وفي ذلك اليوم تقدم الى صارم الدين قايمآز النجمي حتى يدخل هو
وأصحابه الي أسوارهم وترحل جماعة من أمراء الاكراد كالجناح وأصحابه وهو
أخو المشطوب وزحفوا حتى وصلوا أسوار الافرنج ونصب قايمآز بنفسه
علمه على سورهم وقال عن العلم قطعة من النهار ووصل في ذلك اليوم
عز الدين جرديك السوري وسوق الزحف قائم فترجل هو وجماعته
وقاتل قتالاً شديداً واجتهد الناس اجتهاداً عظيماً

وفي المأشر أصبح القوم ساكتين عن الزحف والمساكر الاسلامية
 محذقة بهم وقد باتوا ليلتهم شاكي السلاح راكبي ظهور خيلهم منتظرين
 عسى أن تمكنهم مساعدة اخوانهم المقيمين بعكا ويهجموا على طرف من
 الافرنج فيكسروهم ويخرجوا يحمي بعضهم بعضا ويخرج العسكر بجوابهم من
 هذا الجانب فيسلم من يسلم وبؤخذ من يؤخذ فلم يقدرروا على الخروج وكان
 قد ثبت ذلك معهم فلم تهبأ لهم في تلك الليلة خروج بسبب انه كان هرب
 منهم بعض النلمان فأخبر العدو بذلك فاحتاطوا بهم وحرسوهم حراسة
 عظيمة

ولما كان يوم الجمعة المأشر خرج منهم رسل ثلاثة واجتمعوا بالملك
 العادل وتحدثوا معه ساعة زمانية وعادوا ولم يفصل الحال وانقضي النهار على
 مقام المسلمين بالمرج في مقابلة العدو وباتوا على مثل ذلك
 ولما كان السبت الحادى عشر ابست الفرنج بأسرها لباس الحرب
 وتحركوا حركة عظيمة بحيث إنهم اعتقدوا ربما كان مصاف واصطابوا وخرج
 من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليك
 وطلبوا منهم العدل الزيدانى وذكروا انه صاحب صيدا طابق السلطان فحضر
 العال وجرى مبادئ أحاديث في معنى اطلاق العسكر الذي بعكا واشتطوا في
 ذلك اشتطاطا عظيما وتصرم نهار السبت ولم يفصل حال

﴿ ذكر كتب وصلت من البلد ﴾

ولما كان يوم الاحد ثانى عشر وصلت كتب يقولون فيها انا قد تبأينا
 على الموت ولا نزال نقاتل حتى نقتل ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء
 فانظروا أنتم كيف تعملون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا فهذه عزائمتنا

واياكم أن تخضعوا لهذا العدو وتلينوا لهم فانا نحن قد فات أمرنا وذكر العوام
الواصل بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل الصوت ظن الأفرنج ان عسكرا
عظيما عبر الي عكا وسلم وصار فيها قال وجاء انسان افرنجي فوقف تحت السور
وصاح الي بعض من على السور وقال له بحق دينك الا ما أخبرتني كم عدد
العسكر الذي دخل اليكم البارحة يعني ليلة السبت وكان قد وقع بالليل صوت
وانزعج الطائفتان ولم يكن له حقيقة فقال له ألف فارس فقال لا لكنه دون
ذلك أنا رأيتهم لابسين ثيابا خضرا

ثم تتابعت العساكر الاسلامية واندفع كيد العدو عن القوم في تلك
الايام بعد ان كان قد أشرف البلد على الاخذ * وفي يوم الخميس سادس عشر
وصل أسد الدين شيركوه واشتد ضعف البلد وكثرت ثغر سوره وجاهد
المقيمون فيه وبنوا عوض الثلم سورا من داخلها حتى اذا تم بناؤه اقتتلوا
عليه * واشتد ثبات الأفرنج على أنهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد
أمانا حتى يطلق جميع الاسارى الذين في أيدي المسلمين وتعاد البلاد الساحلية
اليهم وبذل لهم تسليم البلد وما فيه دون من فيه فلم يفعلوا وبذل لهم أيضا مع
ذلك صليب الصلבות فلم يفعلوا واشتدعتوهم واستفحل أمرهم وضائق الحيل
عهم ومكروا والله خير الماكرين *

﴿ ذكر مصالحة أهل البلد ومصانعتهم على نفوسهم ﴾

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج العوام من الثغر
وانطقت الكتب عنهم ان أهل البلد ضاق بهم الامر وكثرت الثغر وعجزوا
عن الحفظ والدفع وراوا عين الهلاك وتيقنوا انه متى أخذت البلدة عنوة ضربت
أعناقهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العدد والاسلحة والمراكب وغير

ذلك فصالحوهم على انهم يسلمون اليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد
والمراكب ومئتي ألف دينار وألف وخمسة مائة فارس أسير مجاهيل الاحوال ومائة
فارس معينين من جانبهم يختارون وصليب الصلבות ويخرجون
بانفسهم سالمين وما معهم من الاقشنة المختصة بهم وذرايرهم ونسأهم وضمنوا
للمركيس عشرة آلاف دينار لانه كان واسطة ولاصحابه أربعة آلاف دينار
واستقرت القاعدة على ذلك

ذكر استيلاء العدو على عكا

ولما وقف السلطان على كتبهم وعلى مضمونها أنكر ذلك انكارا عظيما
وعظم عليه هذا الامر وجمع أرباب المشورة وشاورهم فيما يصنع واضطرب
الامراء وتقسيم فكره وتشوش وعزم على ان يكتب في الليلة مع العوام وينكر
عليهم المصالحاة على هذا الوجه وهو في مثل هذا الحال فما أحس المسلمون
الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك
في ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادى الاخرى سنة سبع وثمانين وخمسة مائة وصاح
الافرنج صيحة واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزن المرحدين وانحصر
كلام العقلاء من الناس في تلاوة انا لله وانا اليه راجعون وغشي الناس بغتة
عظيمة وحيرة شديدة ووقع في العسكر الصياح والعيول والبكاء والنحيب
وكان لكل قلب حظ في ذلك قدر ايمانه ولكل انسان نصيب من هذا الخطب
على مقدار ديانته ونخوته وانقضت الحال على انه قد استقرت القاعدة بين أهل
البلد وبين الافرنج على ذلك الحال المتقدم وأن المركيس دخل البلد ومعه أعلام
الاولك فنصب علما على القلعة وعلما على مأذنة الجامع في يوم الجمعة وعلما على
برج القتال عوضا عن علم الاسلام وحيز المسلمون الي بعض أطراف البلد وجري

على أهل الاسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه * ومثلت في خدمة السلطان وهو أشد حالة من الوالدة الشكلي * والمولدة الحراء فسلبته بما تيسر من التساية وأذكرته في الفكر فيما يستقبله من الامر في معني البلاد الساحلية والقدس الشريف وكيفية الحال في ذلك واعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد وذلك في ليلة السبت الثامن عشر وانفصل الحال على أن رأي التأخير عن تلك المنازلة مصاحبة فانه لم يبق في المضايقة معنى فتقدم ينقل الاثقال ليلا الى المنزلة التي كان عليها أولا بشفرعم وأقام هو جريدة في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد وأقام هو راضياً راجياً من الله تعالى انه ربما حملهم غرورهم بالخروج اليه والهجوم عليه فينال منهم غرضاً ويلقى نفسه عليهم ويعطي الله النصر لمن شاء فلم يفعل العدو شيئاً من ذلك واشتغلوا بالاستيلاء على البلد والتمكن منه فاقام الى بكرة التاسع عشر من الشهر وانتقل الى الثقل وفي ذلك اليوم خرج منهم ثلاثة نفر مع الحاجب قوس صاحب بهاء الدين قراقوش وكان رجلاً عاقلاً مستخبرين ما وقع عقد الصلح عليه من المال والاسري فاقاموا ليلة مكرمين وساروا الى دمشق يبصرون الاساري في الحادي والعشرين وانفذ السلطان رسولا الى الفرنج يسألهم كيف جرت الحال ويستعلم كم مدة تحصيل ما وقعت عليه المصالحة واستقرت عليه المهادنة *

﴿ ذكر وقعة جرت في أثناء ذلك ﴾

ولما كان سليخ الشهر خرج الافرنج من جانب البحر شمالي البلد وانتشروا انتشاراً عظيماً راجلهم وفارسهم وضربوا أطلاباً للقتال فاخبر اليزك بذلك السلطان فدق الكؤوس وركب وأنفذ الى اليزك وقواه برجال كثيرة وتوقف

حتى ركبت العساكر الاسلامية واجتمعوا فوقع بين اليزك وبين العدو وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العساكر باليزك وكان اليزك قد قوى بما أنفذ اليه فحملوا على العدو حملة عظيمة فانكسر العدو من بين أيديهم وانهمزمت الخيالة وسلمت الرجالة وظنوا ان وراء اليزك كميناً فاشتدوا نحو خيامهم ووقع اليزك في الرجالة فقتل منهم زهاء خمسين نفرًا ولم يزل السيف يعدل فيهم حتى دخلوا خنادقهم *

وفي ذلك اليوم وصل رسل الافرنج الذين ساروا الى دمشق لينفقوا حال أسراهم ووصل معهم من مميزى أسراهم أربعة نفر ووصل في عشيته أيضاً رسل السلطان في تحرير أمر الأسارى المسلمين الذين كانوا بعكا ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان تاسع رجب

﴿ خروج ابن باريك ﴾

وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ومعه اثنان من أصحاب الانكشار فاخبر أن الملك افرنسيس سار الى صور وذكروا في تحرير أمر الاسارى وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت وانه في العسكر أو حمل الى بغداد فاحضر صايب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا نفوسهم الى الارض ومرغوا وجوههم على التراب وخضعوا خضوعاً عظيماً لم ير مثله وذكروا ان الملوك قد أجابوا السلطان ان يكون ما وقع عليه القرار تروم ثلاثة كل شهر ترم * ثم أرسل السلطان رسولا الى الفرنسيس سار اليه الى صور بهدايا سنية وطيب كثير وثياب جميلة *

وفي صبيحة العاشر من رجب انتقل السلطان بحلته وخواصه الى تل ملاصق لشنرعم ونزلت العساكر في منازلها على حالهم قريباً من منزلته

الاولى ليس بينهما الا الوادى ولم تنزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتجزئها حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الاسري والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ومائة الف دينار وستمائة أسير وانفذوا ثقاتهم وشاهدوا الجميع ما عدا الاساري المعينين من جانبهم فانهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ولم يكملوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقصرون الزمان حتى انقضى الترم الاول في ثامن عشر رجب ثم انفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان اما أن تنفذوا الينا أصحابنا وتستلموا الذى عين لكم من هذا الترم ونعطيكم رهائن على الباقي تصل اليكم في ترومكم البافية وأمان تعطونا رهائن على ما نسلم اليكم الى ان يخرج الينا أصحابنا فقالوا لا نفعل شيأ من ذلك بل تسلمون الينا ما يقتضيه هذا الترم وتنعنون بأيماننا حتى نسلم اليكم اصحابكم فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم ان تساءوا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم ويكون وهن الاسلام عند ذلك وهنا عظيما لا يكاد يجير*

﴿ ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بهكا رحمهم الله ﴾

ولما رأى الانكثار الملعون توقف السلطان ببذل المال والاسري والصليب غدر بأسري المسلمين وكان قد صالحهم وتسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال وانه ان دفع السلطان اليهم ما استقر أطقهم بأهوالهم ونساءهم وان امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق وأخذهم أسري فغدرهم الملعون وأظهر ما كان أبطن وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والاسرى على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد وركب هو وجميع العسكر الافرنجية راجلهم وفارسهم والتراكيل في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب وساروا حتى أتوا الآبار التي تحت تل العياضية

وقدموا خيامهم اليها وساروا حتى توسطوا المرج بين تل كيسان وبين العياضية ثم أحضروا من أسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك اليوم وكانوا زهاء ثلاثة آلاف في الجبال وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلواهم صبوا ضربا وطعنا بالسيف واليزك الاسلامي يشاهدون ولا يعلمون ماذا يصنعون لبعدهم عنهم وكان اليزك قد أنفذ الى السلطان وأعلموه بركوب القوم ووقوفهم فأنفذ الى اليزك من قواه وبعده ان فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب قتل فيها وجرح من الجانبين ودام القتال الى أن فصل الليل بين الفريقين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا الشهداء في مصارعهم وعرفوا من عرفوه منهم فغشى المسامير من ذلك حزن عظيم وكآبة شديدة ولم يبقوا الا رجلا معروفا مقداما أو قويا يد لعائزهم * وذكر لقتلهم أسباب منها انهم قتلوهم في مقابلة من قتل منهم وقيل ان الانكثارات كان قد عزم على السير الى عسقلان للاستيلاء عليها فأراى أن يخلف تلك العدة في البلد وراءه والله أعلم

﴿ ذكر مسير العدو الى عسقلان وانتقاله الى ﴾

﴿ طرف البحر من جانب الغرب ﴾

ولما كان التاسع والعشرون من رجب ركب الافرنج بأسرهم وفعلوا خيأهم وحملوها على دوابهم وساروا حتى قطعوا النهر الى الجانب الغربي وضربوا الخيام على طرف عسقلان وأظهروا العزم على المسير على شاطئ البحر وأمر الانكثارات باقى الناس أن يدخلوا الى البلد وكانوا قد سدوا ثغره وثله وأصلحوا ما انهدم منه وكان مقدم العسكر الخارج السائر الانكثارات وجمع عظيم من الرجالة والخيالة * ولما كان مستهل شعبان اشتعلت نيران

العدو في سحر ذلك اليوم وعادتهم انهم اذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم وأخبر اليزك بحركتهم فأمر السلطان الثقل أن يرفع حتى يبقى الناس على ظهر ففعل الناس ذلك وهلك من الناس قماش كثير وحوائح كثيرة من السوقة لم تكن معهم خيل ولا ظهر يحمل جميع ما عندهم لان كل انسان كان يحصل ما يحتاج اليه في أشهر وكل واحد من السوقة عنده ما ينفذ من منزل الى منزل في صرار متمددة لكن هذا المنزل لم يمكن أن يتخلف فيه أحد لقربه من الافرنج الذين بعكا والخوف منهم * ولما أن علا النهار شرع العدو في السير على جانب البحر وتفرقوا قطعاً كثيرة كل قطعة تحمي عن نفسها وتوي السلطان اليزك وأنفذ معظم العساكر قبالتهم فمضوا وقتلوهم قتالاً شديداً وأنفذ ولده الملك الافضل يخبر أنه قطع طائفة منهم عن الموافقة ولقد نازلناهم بالقتال ولو قويناً لأخذناهم فسير السلطان خلةً عظيماً من العسكر وسار هو بنفسه وأنا في خدمته حتى أتى أوائل الرمل فلقينا الملك العادل فأخبر أخاه أن تلك الطائفة قد التجأت بالطائفة الاولى ومعظم القوم قد عبروا نهر حيفا وقد نزلوا والباقيون قد لحقوا بهم وليس للمسير وراءهم حاصل الا اتعاب العسكر وضياح النشاب لا غير فراجع السلطان عن القوم لما تحتمق ذلك وأمر طائفة من العسكر أن تسيروا وراء الثقل لنلحق ضعيفهم بقويهم ويكف عنهم من يلحق بهم من العدو والطاعة وسار هو حتى وصل الى القيمون عصر ذلك النهار فنزل وضرب له الدهليز وشقة دائرة حوله لا غير واستحضر الجماعة فاكلوا شيئاً واستشارهم فيما يفعل

المنزل الثاني . اتفق رأي جماعة على أنهم يرحلون بكرة غده هذا وقد رتب حول الافرنج يزكابيتون حوله يرقبون أمره . ولما كان صباح ثاني

شعبان رحل السلطان الثقل وأقام هو يترصد أخبار العدو فلم يصل منهم شيء إلى أن علا النهار فسار في أثر الثقل حتى أتى قرية يقال لها الصباغين فجلس ساعة يترقب أخبار العدو وكان قد خلف جريدك قريب العدو وتعب خلق عظيم باتوا قريب العدو فلم يصله خبر أصلاً فسار حتى أتى الثقل في منزلة يقال لها عيرون الاسود ولما بلننا المنزل رأى خياماً فسأل عنها فقبل أنها خيام الملك العادل فمدل لينزل عنده فأقام عنده ساعة ثم أتى خيمته وفقد الخبز في هذه المنزلة بالكلية وغلا الشمير حتى بلغ درهما وبلغ رطل البقسماط درهمين ثم أقام السلطان حتى عبر وقت الظهر وركب وسار إلى موضع يسمى الملاحه يكون منزلاً للعدو إذا رحلوا من حيفا وكان قد سبق ليتفقد المكان هل يصلح للمصاف أم لا ويتفقد أراضي قيسارية بأسرها إلى الشرا وعاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب وسألته عما بلغه من خبر العدو فقال وصل إلينا من أخبرنا أنه مارحل من حيفا إلى عصر يومنا هذا يعني ثاني شعبان وها نحن مقيمون مرتقبون أخبارهم ويكون العمل بمقتضاها وبات تلك الليلة وأصبح مقبلاً بتل الزلزلة ينتظر العدو ونادى الجاويش بالعسكر للعرض فركب الناس على ترتيب المصاف وأهبطه . ولما علا النهار نزل السلطان في خيمته وأخذ نصيباً من الراحة بعد الغداء ومثول جماعة من الأمراء إلى خدمته وأخذ رأيهم فيما يصنعون ثم صلى الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى العشاء الآخرة من مائة دينار إلى مائة وخمسين ديناراً وزائد وناقص فما رأيت أفسح صدراً منه ولا أبسط وجهاً في العطاء وانفق الرأي على رحيل الثقل في عصر فلك اليوم إلى مجدل يافا *

المنزل الثالث * وأقام هو جريدة بالمنزل الى الصباح رابع الشهر وركب وسار في رأس النهر الجاري الى قيسارية ونزل هناك وبلغ رطل البقسماط أربع دراهم وربيع الشمير درهمين ونصفاً والحبز لم يوجد أصلاً ونزل في خيمة واكل خبزاً وصلى الظهر وركب الى طريق العدو لتجديد ارشاده في ضرب المصاف ولم يعد الي ان دخل وقت العصر فجلس ساعة وأخذ جزاً من الراحة ثم عاد وركب وأمر الناس بالرحيل ورمي خيمته ورمي الناس خيامهم في أواخر النهار *

المنزل الرابع * وكان الرحيل الي رابية متأخرة عن تلك الرابية وفي ذلك المنزل أتى بأثنين من الافرنج قد تحظفهم اليزك فامر بضرب رقابهما فقتلا وتكاثر الناس عليهما بالسيوف تشفياً ثم بات هناك وأصبح مقيماً بالمنزلة لانه لم يصح عن العدو ورحيل وأنفذ الى الثقل حتي يعود اليه في تلك الليلة مما طراً على الناس من الضيق في الماء كل والقضم وركب في وقت عادته الي جهة العدو وأشرف على قيسرية وعاد الي الثقل قريب الظهر وقد وصل الخبر أن العدو لم يرحل بعد من الملاحه وأحضر عنده اثنان أيضاً قد أخذوا من أطراف العدو فقتلا شرقتلة وكان في حدة الضيقة لما جري على أمرى عكا ثم أخذ جزاً من الراحة وجلس بعد صلاة الظهر وحضرت عنده وقد أحضر بين يديه من العدو فارس مذكور هيئته تجبر عن أنه متقدم فيهم فاحضر ترجمانا وبحث عن أحوال القوم وساله كيف يسوى الطعام عندكم فقال أول يوم رحلنا من عكا كان الانسان يشبع بستة قراطيس فلم يزل السمر يغلو حتى صار يشبع ثمانية قراطيس وسأل عن سبب تأخرهم في المنازل فقال لا انتظار وصول المراكب بالرجال والميرة فسأل عن القتلي والجرحى في يوم رحيلهم فقال كثير فسأل عن

الحيل التي هلكت في ذلك اليوم فقال مقدار أربعمائة فارس فامر بضرب عنقه ونهى عن التمثيل به فسأل الترجمان عما قال السلطان فاخبره بما قال فتغير تعبيراً عظيماً وقال أنا أخلص لكم أسيراً من عكا فقال رحمه الله بل أميراً فقال لا أقدر على خلاص أمير فشفع الطمع فيه وحسن خلقه فاني مارأيت أتم خلقاً منه مع ترف في الاطراف ورفاهية فامر أن يترك الآن ويؤخر أمره فصفده وعاتبه على ما بدا منهم من العنبر وقتل الاسرى فاعترف بانه قبيح وانه لم يجر الا برضا الملك وحده وركب السلطان بعد صلاة العصر على عادته وبعد أن نزل أمر بقتل الفارس المذكور وأتى بعده بأثنين فأمر بقتلها وبات في ذلك المنزل المذكور * وذكر له في السحر أن العدو قد تحرك نحو قيسارية وقارب أوائلهم البلد فرأى أن يتأخر من طريق العدو منزلاً آخر *

المنزل الخامس * فرحل ورحل الناس الي قريب التل الذي كنا عليه فنزل الناس وضربت الحيام ومضى هو يرتاد الاراضي الكائنة في طريق العدو لينظر أيها أصلح للمصاف ونزل قريب الظهر واستدعى أخاه الملك العادل وعلم الدين سليمان وأخذ رأيهما فيما يصنع وأخذ جزءاً من الراحة وأذن الظهر فصلى وركب ليشرق وليكشف عن العدو ويتنسم أخباره وأتاه اثنان من الافرنج قد نهبا فأمر بقتلها فقتلا ثم أتى بأثنين آخرين فقتلا أيضاً. ووجيء في أواخر النهار بأثنين فقتلا أيضاً وعاد من الركوب وصلى صلاة المغرب وجلس على عادته واستدعى أخاه وصرف الناس وخلا به الى هزيع من الليل ثم بات وأصبح ونادى الجاويش لعرض الحلقة لا غير وركب الي جهة العدو ووقف على تلول مشرفة على قيسارية وكان العدو قد وصل اليها نهار الجمعة

سادس شعبان ولم يزل يعرض هناك الى ان علا النهار ثم نزل وأكل الطعام وركب الى أخيه وعاد بعد صلاة الظهر وأخذ جزءاً من الراحة وجلس وأتى باربعة عشر من الافرنج وامرأة افرنجية بينهم أسيرة وهي بنت الفارس المذكور ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها فأطلقت المسلمة ورفع الباقون الى الزردخانه وهؤلاء أتى بهم من بيروت أخذوا في مركب من جملة عدة كثيرة فقتلوا كل ذلك في نهار السبت سابع الشهر وهو في المنزلة ينتظر رحيل العدو مجمعا على لقائه اذا رحل *

المنزل السادس * ولما كان صبيحة الثامن ركب السلطان على عادته ثم نزل ووصله من أخيه أن العدو على حركة وكانت الاطلاب قد باتت حول قيسارية في مواضعها فأمر بمد الطعام وأطعم الناس فوصل ثان وأخبر ان القوم قد ساروا فأمر بالكؤوس فدقت وركب وركب الناس وسار وسرت في خدمته حتى أتى عسكر العدو وصف الاطلاب حوله وأمرهم بقتالهم وأخرج الجاليش فكان النشاب بينهم كالمطر وكان عسكر العدو قد رتب فكانت الرجالة حوله كالسور وعليهم اللبود الثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأخرون وهم يرموننا بالزنبورك فيجرح خيل المسلمين وخيالتهم ولقد شاهدتهم ويتفرز في ظهر الواحد منهم الواحد والعشرة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج. وشم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم فاذا تعبت هذه المقاتلة أو أثخنهم الجراح قام مقامهم المستريح واستراح القسم المقاتل . هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة الا في وقت الحملة لا غير وقد انقسموا أيضاً ثلاثة أقسام . القسم الاول الملك العتيق جفرى وجماعة الساحلية معه في المقدمة

والانكثار والفرنسيس معه في الوسط . وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في الساقة وفي وسط القوم برج على عجلة على ما وصفته من قبل أيضاً كالمنازة العظيمة هذا ترتيب القوم على ماشاهدته وأخبر به من خرج منهم من الأسرى والمستأنسين وساروا على هذا المثال وسوق الحرب قائمة والمسلمون يرمونهم بالنشاب من جوانبهم ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظاً عظيماً ويقطعون الطربق على هذا الوضع ويسرون سيراً رقيقاً ومرابهم تسير في مقابلتهم في البحر الى أن أتوا المنزل وكانت منازلهم قريبة لاجل الرجالة فان المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقالة الظهر عندهم . فانظر الى صبر هؤلاء القوم على الاعمال الشاقة عن غير دين ولا نفع وكانت منزلهم قاطع نهر قيسارية يسر الله فتحها *

المنزل السابع * ولما كانت صبيحة التاسع وصل من أخباران العدو قد ركب سائراً فركب السلطان أول الصبح وطلب الاطلاب وأخرج من كل جانب جاليشاً فسار يطلب القوم فاتاهم وهم سائرون على عاداتهم ثلاثة أقسام وطاف الجاليش حولهم من كل جانب ورموهم بالنشاب وهم سائرون ثلاثة أقسام على المثال الذي حكيتة وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه وهم يحفظ بعضهم بعضاً والمسلمون محذقون بهم من ثلاثة جوانب والقتال بينهم شديد والسلطان يقرب الاطلاب ورأيتة وهو يسير بنفسه بين الجاليش ونشاب القوم يجاوزه وليس معه الا صبيان بجنيه لا غير وهو يسير من طلب الى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم والكؤوس تخمق والبوقات تنع والصياح بالتهليل والتكبير يعاو . هذا والقوم على أتم ثبات على ترتيبهم لا يتغيرون ولا ينزعجون وجرت حالات كثيرة ورجالهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك

والنشاب ولم نزل حوالئهم نقاتلهم ونحمل عليهم وهم يكرون بين ايدينا ويفرون الى ان أتوا نهراً يقال له نهر القصب ونزلوا عليه وقد قامت الظهيرة وضربوا خيامهم وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا اذا نزلوا أيس الناس منهم ورجعوا عن قتالهم وفي ذلك اليوم قتل من فرسان الاسلام شجاع اسمه إياز الطويل بعض ممالك السلطان وكان قد فتك فيهم وقتل خلقاً من خيالتهم وشجعانهم وكانت قد فاقت شجاعته بين العسكرين بحيث انه جرت له وقعات كثيرة صدقت أخبار الاوائل وصار بحيث اذا عرفه الافرنج في موضع يخافونه تقنطرت به فرسه واستشهد وحزن المسلمون عليه حزناً عظيماً ودفن على تل مشرف على البركة ونزل السلطان بالثقل على البركة وهي موضع يجتمع فيه مياه كثيرة وأقام في تلك المنزلة الى ما بعد صلاة العصر وأطعم الناس خبزاً واستراحوا ساعة ثم رحل وأتى نهر القصب ونزل عليه ايضاً فشرب منه قليلاً من أعلاه والهدو يشرب من أسفله ليس بيننا الا مسافة يسيرة وبلغ ربع الشعير أربعة دراهم والخبز موجود كثيراً وسعد الرطل بنصف درهم وأقام ينتظر رحيل الافرنج حتي يرحل في مقابلتهم فباتوا وبتنا ايضاً*

﴿ ذكر وقعة جرت ﴾

وذلك أن جماعة من العسكر الاسلامي كانوا مشرفين على العدو فصادفوا جماعة منهم يشرفون ايضاً على العسكر الاسلامي فظنوا بهم وهجموا عليهم وجري بينهم قتال عظيم فقتل من العدو جماعة وأحس بهم عسكر العدو فثار اليهم منهم جماعة واتصل الحرب وقتل ايضاً من المسلمين

نفران وأسر من العدو ثلاثة ومثلوا بخدمة السلطان فسألهم عن الاحوال فأخبروا ان الملك الانكتار كان قد حضر عنده بعكا اثنان بدويان وأنهما أخبراه بقلة العسكر الاسلامي وذلك الذي أطمعه حتى خرج وانه لما كان بالامس يعني يوم الاثنين رأى من المسلمين قتالاً عظيماً واستكثر الاطلاب وانه جرح زهاء ألف نفر وقتل جماعة وان ذلك هو الذي أوجب اقامته اليوم حتى يستريح عسكره وانه لما رأى ما أصابهم من القتال العظيم وكثرة المسلمين أحضر البدويين عنده وأوقفهما وضرب أعناقهما . وأقنا في ذلك اليوم في تلك المنزلة لاقامة العدو بها وهو الثلاثاء العاشر من شعبان

المنزل الثامن . ولما كان ظهر اليوم المذكور رأى السلطان الرحيل والتقدم الى قدام العدو فمد الكؤوس ورحل الناس ودخل في شعرا أرسوف حتى توسطها الى تل عند قرية تسمى دير الراهب فنزل هناك ودم الناس الليل فتقطعوا في الشعرا وأصبح مقبياً ينتظر بقية العساكر الى صباح الاربعاء الحادى عشر وتلاحقت العساكر وركب يرتاد موضعاً يصلح للقتال ولقاء العدو وأقام ذلك اليوم أجمع هناك . ومن أخبار العدو في تلك المنزلة انه أقام على نهر القصب ذلك اليوم أيضاً وأنه لحقته نجدة من عكا في ثمان بطس كبار واليزك الاسلامى حوله يواصلون الاخبار المستجدة بهم وجرى بين اليزك وبين حشاشة العدو قتال وجرح من الطائفتين

﴿ ذكر مراسلة جرت في ذلك اليوم ﴾

وذلك ان العدو طاب من اليزك من يتحدث معه وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان فانها كانت نوبته فلما مضى اليهم من سمع كلامهم كان كلامهم طاب الملك العادل حتى يتحدثوا معه فاستأذن ومضى وبات تلك

الليلة في الزك وتحدثوا معه وكان حاصل حديثهم انا قد طال بيننا القتال وقد قتل من الجانبين الرجال الابطال وانا نحن جثنا في نصره افرنج الساحل فاستطاحوا اتم وهم وكل منا يرجع الى مكانه وكتب السلطان الى اخيه في صبيحة يوم الخميس الثاني والعشرين رقعة يقول له فيها «ان قدرت ان تطاول الافرنج فالعلمهم يقيمون اليوم حتى يلحقنا الزكمان فانهم قد قربوا منا»

﴿ ذكر اجتماع الملك العادل والانكسار ﴾

ولما علم الانكسار وصول الملك العادل الى الديرك طاب الاجتماع به فأجابه الى ذلك فاجتبا بفرقة من أصحابهما وكان يترجم بينهما ابن الهنفرى وهو من افرنج الساحل من كبارهم ورأيت يوم الصلح وهو شاب حسن الا أنه مخلوق الاحية على ما هو شعارهم . وكان الحديث بينهما أن الانكسار شرع في ذكر الصلح وان الملك العادل قال له اتم تغلبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط انا الحال مع السلطان فقال له الانكسار القاعده أن تعود البلاد كلها الينا وتنصرفوا الى بلادكم فأخشن له الجواب وجرت منافرة اقتضت انهم رحلوا بعد انفصالهم * ولما أحس السلطان برحيلهم أمر الثقل بالرحيل ووقف هو وعبي الناس تعبئة القتال وسار الثقل الصغير أيضاً حتى قارب الثقل الكبير ثم ورد أمر السلطان بعودهم اليه فعادوا ووصلوا وقد دخل الليل وتخبط الناس تلك الليلة تخبطاً عظيماً واستدعى أخاه ليعرفه ماجرى بينه وبين الملك وخلا به لذلك وذلك في ليلة الجمعة ليلة الثالث عشر * وأما العدو فانه سار ونزل على موضع يسمى البركة أيضاً يشرف على البحر وأصبح السلطان في يوم الجمعة متطلعا الى أخبار العدو فأحضر عنده اثنان من الافرنج قد تخطفهما الزك فأمر بضرب أعناقهما

ووصل من أخبر ان العدو لم يرحل اليوم من منزله تلك فنزل السلطان واجتمع بأخيه يتعدنان في هذا الامر وما يصنع مع العدو وبات تلك الليلة في تلك المنزلة

﴿ ذكر وقعة ارمون وهي أنكنت في قابو المسلمين ﴾

ولما كان يوم السبت الرابع عشر بلغ السلطان أن العدو حرك الرحيل نحو أرسوف فركب ورتب الاطلاب للقتال وعزم على مضايقتهم في ذلك اليوم ومصادمتهم وأخرج الجاليش من كل طاب وسار العدو حتى قارب شعرا أرسوف وبساتينها فاطلق عليهم الجاليش الشباب ولزتهم الاطلاب من كل جانب والسلطان يقرب بعضها ويوقف بعضها ليكون رداً ويضابق العدو مضايقة عظيمة والتحم القتال واضطربت نارد من الجاليش وقتل منهم وجرح فاشتدوا في السير عسائم يبلغون المنزلة فينزلوا واشتد بهم الامر وضاق بهم الخناق والسلطان يطوف من الميمنة الى اليسرة يبحث الناس على الجهاد واقبته مرارا ليس معه الا صبيان بجنيه لا غير ولقيت أخاه وهو على مثل هذه الحال والنشاب يتجاوزها ولم يزل الامر يشتد بالطمع للعدو وطمع المسلمون فيهم طمعا عظيما حتى وصل أوائل راجلهم الي بساتين أرسوف ثم اجتمعت الخيالة وتواصلوا على الحملة خشية على القوم ورأوا انهم لا ينجيهم الا الحملة * ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد وفرج لهم رجالتهم وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فحملت طائفة على الميمنة وطائفة على اليسرة وطائفة على القلب فاندفع الناس بين أيديهم واتفق اني كنت في القلب فقر الالب فرارا عظيما فنويت التحيز الي اليسرة وكانت أقرب اليّ ووصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة وفرت أشد فرار من

الكل فنويت التحيز الي طلب السلطان وكان رداً الاطلاب كلها كما جرت العادة ولم يبق للسلطان فيه الا سبعة عشر مقاتلاً لا غير وأخذ الباقيون الي القتال لكن الاعلام كلها باقية ثابتة والكؤوس تدق لا تفر وأما السلطان فانه لما رأى ما نزل بالمسلمين من هذه النازلة سار حتى أتى الي طلبه فوجد فيه هذا النفر القليل فوقف فيه والناس ينفرون من الجوانب وهو يأمر أصحاب الكؤوس بالدق بحيث لا يفترون وكلما رأى فاراً يأمر من يحضره عنده وفي الجملة ما قصر الناس بفرارهم فان العدو حمل حملة فقروا ثم وقف خوفاً من الكمين فوقفوا وقتلوا ثم حمل حملة ثانية فقروا وهم يقاتلون في فرارهم ثم وقف فوقفوا ثم حمل حملة ثالثة حتى بلغ الي رؤوس رواب هناك وأعلى تلول فقروا الي أن وقف العدو ووقفوا وكان كل من رأى طلب السلطان واقفاً والكؤوس تدق يستحي أن يجاوزه ويخاف غائلة ذلك فيعود الي الطلب فاجتمع في القلب خلق عظيم ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابي والسلطان واقف في طلبه والناس يجتمعون عليه حتى أتت العساكر بأسرها وخاف العدو ان يكون في الشعرا كمين فترجعوا يطلبون المنزلة وعاد السلطان الي تل في أوائل الشعرا ونزل عليه في خيمته . ولقد كنت في خدمته أسليه وهو لا يقبل السلو وظلل عليه بمندبل وسألناه أن يطعم شيئاً فاحضر له شيء لطيف فتناول شيئاً يسيراً وبعث الناس للسقي فان المكان كان بعيداً وجلس ينتظر الناس من العود من السقي والجرحي يحضرون بين يديه وهو يتقدم بمدواتهم وحملهم وقتل في ذلك اليوم رجاله كثيرة وجرح جماعة من الطائفتين . وكان ممن ثبت الملك العادل والطواشي قايماز النجمي والملك الافضل ولده وصدى في ذلك اليوم وانفتح دمل كان في وجهه وسال منه دم كثير على وجهه وهو صابر محتسب في

ذلك كله وثبت أيضاً طلب الموصل ومقدمة علاء الدين وشكره السلطان على ذلك وتفقد الناس بعضهم بعضاً نوجدوا أن قد استشهد جماعة من العسكر عرف منهم شخصان أمير كبير مملوك وكان شجاعاً معروفاً وقايمآز العادلى وكان المذكوراً ولينوش وكان شجاعاً وجرح خلق كثير وخيول كثيرة وقتل من العدو جماعة وأسروا واحد وأحضر نأمر بضرب عنقه وأخذت منهم خيول أربعة وكان قد تقدم رحمه الله الى الثقل أن يسير الى العوجاء وذكر أن المنزل يكون على العوجاء فاستأذنته وتقدمت الى المنزل وجلس هو ينتظر اجتماع المساكِر وما يرد من أخبار العدو وكان العدو قد نزل على ارسوف قبلها

﴿ المنزل التاسع ﴾ وسرت بعد صلاة الظهر حتى أتيت الثقل وقد نزل قاطع النهر المعروف بالعوجاء فى منزلة خضراء طيبة على جانب النهر ووصل السلطان الى المنزلة أواخر النهار وازدحم الناس على القنطرة فنزل على تل مشرف على النهر ولم يعد الى الخيمة وأمر الجاوش أن ينادى فى العسكر بالعبور اليه وكان فى قلبه من الوقعة أمر لا يعلمه الا الله تعالى والناس بين جريح الجسد وجريح القلب وأقام السلطان الى سحر الخامس عشر ودق الكؤوس وركب وركب الناس وسار راجعاً الى جهة العدو حتى وصل الى قريب ارسوف وصف الاطلاع للقتال رجاء خروج العدو ومسيره حتى يضاف فلم يرحل العدو فى ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراح وأقام قبالتهم الى آخر النهار وعاد الى منزلته التى بات فيها * ولما كانت صبيحة السادس عشر دق الكؤوس وركب وركب الناس وسار نحوهم ووصل خبر العدو أنه قد رحل طالباً جهة يافا فقاربهم مقارنة عظيمة ورتب الاطلاع

ترتيب القتال وأخرج الجاليش وأحرق العسكر الاسلامي بالتوم وألقوا عليهم من النشاب ما كان يسد الأفق وقالت فلو بهم قتال الحنق وقصد رحمه الله تحريك عزائمهم على الحملة حتى اذا حملوا ألقى الناس عليهم وقصدوهم ويعطى الله النصر لمن يشاء فلم يحملوا وحفظوا نفوسهم وساروا مصطفين على عاداتهم حتى أتوا نهر العوجاء وهو النهر الذي منزلتنا أعلاه فنزل في أسفله وعبر بعضهم الى غربي النهر وأقام الباقون من الجانب الشرقي فلما علم الناس بنزولهم تراجع الناس عنهم وعاد السلطان الى الثقل ونزل في خيمته وأطعم الطعام وأتى باربعة من الافرنج قد أخذتهم الدرب ومعهم امرأة فرفعوا الى الزردخانات وأقام بقية ذلك اليوم يكتب الكتب الى الاطراف باستحضار بقية العساكر وحضر من أخبر انه قتل من العدو يوم ارسوف خيول كثيرة وأنه تتبعها العرب وعدوها فزادت على مائة وأمر السلطان أن رحلت الجمال وتقدمت الى الرملة وبات هو بتلك المنزلة *

﴿ المنزل العاشر ﴾ ولما كان سابع عشر صلى الصبح ورحل ورحل معه الثقل الصغير وسار يريد الرملة وأتى باثنين من الافرنج فضرب أعناقهم ووصل من اليزك من أخبر أن العدو رحل من يافا وسار السلطان الى أن أتى الرملة وأتى باثنين من الافرنج أيضاً فسألهم عن أحوالهم فذكروا أنهم ربما أقاموا بيافا أياما وفي أنفسهم عمارتها وشحنها بالرجال والعدد فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان وأنها هل تخرب أو تبقى واتفق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفة من العسكر مقارب العدو ليعرف أحوالهم واتصالها وأن يسير هو ويخرب عسقلان خشية أن يستولي عليها الافرنج وهي عامرة فيقتلوا من بها من المسلمين ويأخذوا

بها القدس الشريف ويقطعوا بها طريق مصر وخشي السلطان من ذلك وعلم عجز المسلمين عن حفظها اقرب عهدهم من عكا وما جرى على من كان متيماً بها ويخيفوا الناس عن الدخول الي عسقلان فادخرت القوّة في عسكر الاسلام لحفظ القدس المحروس فتعين لذلك خراب عسقلان فسار الثقل والجمال من أول الليل وتقدم الي ولده الملك الافضل ان سار عقيب الثقل نصف الليل وسار هو وأنا في خدمته سحر الاربعاء *

﴿المنزل الحادي عشر﴾ وهو على عسقلان * ولما كان يوم الاربعاء ثامن عشر الشهر وصل السلطان الي بيانا فنزل بها ضحى وأخذ الناس راحة ثم رحل وسار حتى أتى أرض عسقلان وقد ضربت خيمته بعيدا منها فبات هناك مهوما بسبب الخراب وما نام الا قليلا . ولقد دعاني في خدمته سحرا وكنت فارقت خدمته بعد مضي نصف الليل فحضرت وبدأ بالحديث في معنى خرابها وأحضر ولده الملك الافضل وشاوره في ذلك وطال الحديث في المعنى . ولقد قال لي والله لأن أفقد اولادى بأسرهم أحب اليّ من أن أهدم منها حجراً واحداً ولكن اذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين كان ثم استخار الله تعالي فأوقع الله في نفسه أن المصلحة في خرابها لجز المسلمين عن حفظها فاستحضر الوالي قيصر بها وهو من كبار مماليكه وذوي الآراء منهم فأمره بجمع العمال فيها ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه مستقر الناس للخراب وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطاقفة من الناس المسكر بدنة معاومة وبرجاً معاوما يخربونه ودخل الناس البلد ووقع الضجيج والبكاء وكان بلدا نضرا خفيفاً على القاب محكم الاسوار عظيم البناء مرغوبا في سكناه فلحق الناس عليه حزن عظيم وعظم عويل

أهله على مفارقة أوطانهم وشرعوا في بيع مالا يمكن حمله فبيع ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد واختبئوا بالبلد وخرج أهله الى العسكر بذرايرهم ونساءهم خشية أن يهجم الافرنج وبنذوا في الكراء أضعاف ما يساوي قوم الي مصر وقوم الي الشام وقوم يمشون اذ لم يقع لهم كراء وجرت أمور عظيمة وفتنة هائلة لعلها لم تختص بالذين ظلموا وكان هو بنفسه وولد الملك الافضل يستعملان الناس في الخراب والحث تاليه خشية أن يسمع العدو فيحضر ولا يمكن خرابها وبات الناس في الخيام على أتم حال من التعب والنصب . وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل أن الافرنج تحدثوا معه في الصلح وانه خرج اليه ابن المنفري وتحدث معه وانه طلب جميع البلاد الساحلية فرأي السلطان ان ذلك مصالحة لما رأى في أنفس الناس من الضجر والسامة من القتال والمصاهرة وكثرة ما علاهم من الديون وكتب اليه يسمح في الحديث في ذلك وفوض أمر ذلك الي رأيه وأصبح في العشرين على الاصرار على الخراب واستعمال الناس فيه وحشهم عايه وأباحهم الهري الذي كان ذخيرة في البلاد للعجز عن نقله وضيق الرقت والخوف من هجوم الافرنج وأمر بحرق البلاد فأضرمت النار في بيوته ودوره ورفض أهله بواق الاقمشة للعجز عن نقلها والاخبار تتواتر من جانب العدو بعارة يافا وكتب الملك العادل يخبر ان القوم لم يعموا بخراب البلد وان سوف القوم وطول الحديث لعلنا نتمكن من الخراب وأمر بحشو أبراج البلد بالأحطاب وان تحرق وأصبح الحادى والعشرون فركب يحث الناس ودام يستعملهم على التخريب ويطوف عليهم بنفسه حتى التاث مزاجه التياثا قويا امتنع بسببه من الركوب والغذاء يومين وأخبار العدو تتواصل اليه في كل وقت ويجرى بينهم وبين

اليزك والمسكر وقعات وقلبات وهو يواظب على الحث على الخراب ونقل الثقل الى قريب البلد ليعاونوا الغلمان والجمالين وغيرهم في ذلك فخرّب من السور معظمه وكان عظيم البناء بحيث انه كان عرضه في مواضع تسعة أذرع وفي مواضع عشرة أذرع وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر أن عرض السور الذي يتقربون فيه مقدر ربح ولم يزل التخريب والحريق يعمل في البلد وأسواره الى سلخ شعبان وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم يتسحون وصاروا يخرجون من يافا فيزرون على البلاد القريبة منها فتحرك السلطان لئلا يبلغ منهم غرضاً في غرتهم فعزم على الرحيل وعلى أن يخلف في عسقلان حجار بن ومعهم خيل تحيهم ويستعرضونهم في الخراب ثم رأي أن يتأخر بحيث يهرق البرج المعروف بالاسبتار وكان برجاً عظيماً مشرفاً على البحر كالقناة المنيرة . وتمادى دخله وطفته فرأيت بنائه أحكم بناء يقرب من أن لا تعدل فيه الماول وإنما أراد ان يحرقه حتى يبقى بالحريق قابلاً للخراب ويعمل المدمم فيه . وأصبح مستهل رمضان فأمر ولده المملك الافضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه * وتمادى رأته يحمل الخشب هو وخواصه لحريق البرج ولم يزل الناس يبنون الخشب ويحشونه في البرج حتى امتلأ ثم أطاقت فيه النار فاشتعل الخشب وبقيت النار تشتعل فيه يومين بلياليهما ولم يركب السلطان في ذلك اليوم تسكيناً لزوجته وعرض لي أيضاً تشوش . زواج اقتضى انقطاعي عنه في ذلك اليوم وتمادى تردد الى من سألت عن زواجي من عنده ثلاث مرات مع اشتغال قلبه بذلك المهم . فالتة تعالى يرحمه لقد ماتت بحمان الاخلاق بموته *

﴿ ذكر رحيله الى الرملة ﴾

ثم رحل السلطان ثاني رمضان نصف الليل خشية على مزاجه من الحر ووصل بينا ضحوة النهار ونزل في خيمة أخيه واستلم منه أخبارهم ساعة ثم ركب ونزل في خيمته وبات في تلك المنزلة وأصبح ثالث الشهر راحلا الى جهة الرملة فسار حتى أتاهم ضحوة النهار ونزل بالثقل الكبير نزول إقامة ورتب العسكر يمينا وميسرة وقابا وأطعم الناس الطعام وأخذ جزءا من الراحة وركب بين صلاتي الظهر والعصر وسار الى لد وراها ورأى بيعتها وعظم بناؤها فأمر بخرابها وخراب قلعة الرملة فوق الخراب في الموضعين في ذلك اليوم ونرق الناس فرقا لتخريب المكاين وأباح ما فيها من التبن والشعير في الاهراء السلطانية وأمر من كان فيها من المقيمين بالانتقال الى المواضع العامرة وما كان بقي في المكاين الا نفر يسير وظل الناس يخرّبون الى أن أمسي المساء ثم عاد الى خيمته وأصبح رابع رمضان فاقام الحجارين في المكاين ورتب عليهم من يستنجزهم في ذلك وهو يتردد عليهم في الأصائل حتى جاء وقت المنرب فمد الطعام وأفطر الناس وانفصلوا الى خيمهم ووقع له أن يسير خفية في نفر يسير يشاهد أحوال القدس فسار من أول الليل حتى أتى بيت نوبة فبات فيها حتى أتى الصباح وصلى ثم سار حتى أتى القدس في خامس الشهر وخلف أخاه في العسكر يبحث الناس على الخراب واقام ذلك اليوم يتصفح أحوال القدس في عمارته وميرته وعدته ورجاله وغير ذلك وظفر في ذلك فلما ان الطواشي قايماز بنهر من النصارى ومعهم كتب قد كتبها الوالي الى السلطان قريبة التاريخ يذكر فيها اعواز البلد الغلة والدمدة والرجال فوقف على الكتب وضربت رقاب كل من كان معهم وما زال يتصفح أحوال المكان ويأمر بسد خاله الى الثامن وخرج سائرا الى العسكر بعد

صلاة الظهر فبات في بيت نوبة . وفي هذا اليوم وصل عز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن قليج أرسلان وافداً عليه مستنصراً به على أخوته وأبيه فانهم كانوا يقصدون أخذ بلده منه فلقية الملك العادل قاطع لده فاحترمه وكرمه ثم لقية الملك الافضل وضربت خيمته قريبا من لده . وفي ذلك اليوم خرج من العدو الحشاشة فدخل عليهم اليزك ووصل الخبر الي عسكرهم فخرج الي نصرتهم خيالة وجرى بينهم وبين اليزك قتال وذكر بعض الاسري انه كان معهم الانكثار وأن مسلما قصد طعنه فخال بينه وبينه انرنجى فقتل الافرنجى وجرح هو هكذا ذكره الله أعلم *

ولما كان التاسع وصل رحمه الله الي المعسكر ولقيه الناس مستبشرين بقدمه ولقيه ابن قليج أرسلان فنزل له واحترمه وكرمه ونزل في خيمته وأقام يحث الناس على التخريب وتواصل أخبار العدو اليه ويقع بينهم وبين اليزك وقعات ويسرق العرب من خيولهم ويقال لهم رجالهم *

﴿ ذكر وصول رسول المركيس ﴾

وفي غضون ذلك وصل رسول المركيس يذكر أنه يصلح الاسلام بشرط أن يعطى صيدا وبيروت على أن يجاهر الافرنج بالعداوة ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم واشترط أن يبذل للسلطان اليمين على ذلك ابتداء فسير العدل النجيب وحمله الاجابة الي ملتسمه لقصد فصله عن الافرنج فانه كان خبيثاً ملعوناً وكان قد استشعر منهم أخذ بلده وهي صور فأنحاز عنهم واستعصم بصور وهي منيعة فقال ذلك التول لهذا السبب وسار النجيب العدل مع رسوله في الثاني عشر واشترط عليه أن يبدأ بمجاهرة القوم وحصار عكا وأخذها واطلاق من بها وبصور من الاسري وعند ذلك يسلم اليه الموضعان

وفي عشية ذلك اليوم خرج رسول ملك الانكتار الي الملك العادل في تحريك سلسلة الحديث في الصالح *

ولما كان الثالث عشر من رمضان رأى السلطان أن يتأخر العسكر الي الجبل ليمكن الناس من انفاذ دوابهم الي العلوقة فانا كنا على الرملة قريبين من العدو ولا يمكن التفریط في الدواب خشية المهاجمة فرحل ونزل على جبل متصل بجبل النظرون بالثقل الكبير وجمع العساكر ما عدا اليزك على العادة وذلك بعد خراب الرملة ولدّ ولما نزل هناك دار حول النظرون وأمر بخرابها وكانت قاعة منيعة حصينة من القلاع المذكورة فشرع في خرابها

وترددت الرسل بين الملك العادل والانكتار يذكرون أنه قد سلم أمر الصالح الي الملك العادل وأخذ اليه وخرج في عشرة أنفس الي اليزك فاخبروه بأخبار طيبة وكتب بها الي السلطان في السابع عشر وكان مما أخبره به أخوه أن الملك افرنسيس مات وكان موته باذناكية عن مرض عرض له وان الانكتار عاد الي عكا وكان سبب عوده انه صح عنده مراسلة المرکيس لسلطان وانه أن المرکيس قد انتظم الحال بيننا وبينه وأنه قد استقرت القاعدة على عكا فعاد هو الي عكا لفسخ هذه المصالحة واسترجاع المرکيس اليه فركب السلطان الي اليزك واجتمع باخيه في لدّ وسأله عن الاخبار وعاد الي الخيم وقت العصر وأتي بأثنين من الافرنج قد تحفظهم اليزك فاخبروا بصحة موت الافرنسيس وعود الانكتار الي عكا *

﴿ ذكر مسير الملك العادل الي القدس ﴾

ولما كان التاسع عشر اقتضى الحال تفقد القدس والنظر في عمارته وكان الملك العادل قد عاد من اليزك وعلم بعد مسير مقدمي الافرنج عنا فرأى أن يكون

هو الذي يسير فسار في هذا اليوم لهذا الغرض
 وفي تاريخ هذا اليوم وصل كتاب من تقي الدين يخبر فيه أن قزل
 صاحب ديار العجم ابن يلدكز قفز عليه أصحابه فقتلوه وقيل ان ذلك كان من
 تحت يد زوجته تعصباً للسلطان طربل وجرى بسبب قتله خبط عظيم في
 بلاد العجم وكان قتله في أوائل شعبان من هذه السنة *

ولما كان الحادي والعشرون من رمضان قدم الملك العادل من القدس
 وفي هذا التاريخ وصل كتاب من الديوان العزيز النبوي يذكر فيه قصد
 الملك المظفر تقي الدين خلاط ويذكر فيه العناية التامة بكتمر ويشفع في حسن
 ابن قنجاك والتقدم باطلاقه وكان قد قبض عليه مظفر الدين بن زين الدين
 باربل ويتقدم بمسير القاضي الفاضل الي الديوان لبث حال وفصل أمر وسير
 الكتاب الي الفاضل ليقف عليه ويكتب الي تقي الدين *

﴿ ذكر أخبار يزك كان على عكا ولصوص دخلوا في خيام العدو ﴾

ولما كان الثاني والعشرون أحضر لصوص فرسا وبغلة قد دخلوا الي
 خيم العدو وسرقوها وكان قد رتب رحمة الله ثلاثمائة لص من شواح العرب
 يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وخيولهم ويسرقون الرجال أحيانا وذلك انه
 يكون الواحد منهم نائماً فيوضع على حلقه الخنجر ثم يوقظ فيري الشلح
 وقد وضع الخنجر على نحره فيسكت ولا يتجاسر ان يتكلم فيحمل وهو على
 هذا الوضع الي أن يخرج من الخيم ويؤخذ أسيراً وتكلم منهم جماعة فنجروا
 فصار من أصابه ذلك لا يتكلم واختاروا الاسر على القتل وداموا على ذلك
 مدة طويلة الي انتظام الصلح *

وفي ذلك اليوم وصل من اليزك من أخبر أنهم خرجوا من عكا

يتسحون وان اليزك حمل عليهم فاسر منهم اُجدا وعشرين نفسا وان الاسرى
أخبروهم بصحة عود الانكثار الي عكا وانه مريض بها وأخبروا عن ضعف
أهل عكا وفقرهم وفلة الميرة عندهم * وفي هذا التاريخ وصل للعدو رراكب
عدة قيل انها وصلت من عكا وان فيها الانكثار قد عاد بجماعة عظيمة ليقتصد
عسقلان ويعمرها وقيل يقصد القدس والله أعلم

ولما كان الرابع والعشرون وصل الاسرى المذكورون من الزيب وكان
وصولهم فرحا للمسلمين مبشرا بكل خير وفيه وصل رسول قزل وكان قد
سيره قبل وفاته ورسول ابن أخيه ايناج وفي عشيته وصل رسول من
الانكثار معه حصان الي الملك العادل في مقابلة هدية كان أنفذها اليه . وفيه
وصل خبر وفاة حسام الدين لاجين بدمشق لمرض كان اعتراه فصعب على
السلطان موته وشق عليه وفيه وصل كتاب من سامة يذكر فيه أن البرنس
أغار على جبيلة واللاذقية وانه كسر كسرة عظيمة وقتل منه جماعة وعاد
الي انطاكية

﴿ ذكر رسول الملك العادل الي الانكثار ﴾

ولما كان السادس والعشرون كان اليزك للمادل فطلب الانكثار
رسوله فأنفذ اليه الصنيعة وهو كاتبه . وكان شابا حسنا فوصل اليه وهو في
بازور قد خرج في جمع كثير من الرجاله وانبثوا في تلك الارض فاجتمع به
وسار معه زمنا طويلا وحادثه في معني الصلح وقال لا أرجع عن كلام أتحدث
به مع أخي وصديقي يعني العادل وذكر له كلاما وعاد وأخبر به فكتبه الملك
العادل في رقعة وأنفذها الي السلطان وكان يتضمن انك تسلم عليه وتقول له
ان المسلمين والافرنج قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين

بالسكينة وقد تلفت الاموال والارواح من الطائفتين وقد أخذ هذا الامر حقه وليس هناك حديث سوي القدس والصليب والبلاد . والقدس متعبدا ما نزل عنه ولو لم يبق منا الا واحد * وأما البلاد فيعاد اليها ما هو قاطع الاردن * وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فيمن به السلطان علينا ونصطرح ونستريح من هذا التعب * ولما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعى ارباب المشورة في دولته واستشارهم في الجواب . والذي رآه السلطان ان قال القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فانه مسري نبينا ومجتمع الملائكة فلا تتصور ان نزل عنه ولا تقدر على التفريط بذلك بين المسلمين وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الاصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان فيها من المسلمين في ذلك الوقت وما يقدركم الله على عمارة حجر منها مادام الحرب قائماً وما في أيدينا منها ناكل بحمد الله مغله ونتفع به * وأما الصليب فهلاكه عندنا قرابة عظيمة لا يجوز لنا ان نفرط فيها الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هي أوفى منها وسار هذا الجواب اليه مع الواصل منه

﴿ ذكر هرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا وكان أسيراً ﴾

ولما كان آخر السادس والعشرين وصل شيركوه بن باخل وهو من جملة الامراء المأسورين بعكا وكان من قصته انه هرب ليلة الحادي والعشرين وذلك انه كان ادخر له حبلاً في مخدته وكان الامير حسن بن باريك ادخر له حبلاً في بيت الطهارة واتفقا على الهرب ونزلا من طاقة كانت في بيت الطهارة وانحدرا من السور الاول وعبر شيركوه من الباشورة أيضاً وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الجبل ونزل شيركوه سليماً فرآه وقد تغير

من الوقعة فكلمه فلم يجبه وحرکه فلم يتحرك فهزه لعله ينشط فيسير معه فلم يقدر فعلم انه اذا اقام عنده أخذاً جميعاً فتركه وانصرف واشتد هرباً في قيوده حتى أتى تل العياضية وقد طلع الصبح فآكن في الجبل حتى علا النهار وكسر قيده وسار وستر الله حتى أتى المعسكر ومثل بخدمة السلطان وكان من أخباره ان سيف الدين المشطوب ضيق عليه وانه قطع على نفسه قطعة عظيمة من خيل وبغال وأنواع الاموال وان الملك الانكشار آتى عكا وأخذ كل ماله بها من خدمه ومماليكه وأقمشته ولم يبق له منها شيئاً وأن فلاحى الجبل يمدونه بالميرة مدداً عظيماً وأن ظنرل السلحدار أخذ خواص مماليك السلطان وهربوا قبل هروبه *

﴿ ذكر رسالة سيرني فيها الملك العادل الى السلطان مع جماعة من الامراء ﴾

وذلك انه لما كان التاسع والعشرون من رمضان استدعاني الملك العادل في صحبته وأحضر جماعة من الامراء علم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وشرح لنا ما عاده به رسوله من الانكشار من الرسالة والكلام وذلك انه ذكر انه قد أراد أن يتزوج الملك العادل بأخت الانكشار وكان قد استصحبها معه من صقلية فانها كانت زوجة صاحبها وقد مات فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية فاستقرت القاعدة على أن يكون مستقر ملكها بالقدس وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي بيده من عكا الى يافا وعسقلان الى غير ذلك ويجعلها ملكة الساحل ويجعله ملك الساحل ويكون ذلك مضافاً الى ما في يده من البلاد والأقطاع وأنه يسلم اليه صليب الصلבות وتتكون القرى للداوية والاستبار والحصون لهما وأسرانا تفك وكذلك أسراهم وأن الصالح يستقر على هذه القاعدة ويرحل

الانكتار طالبا بلاده في البحر وينفصل الأمر هكذا ذكر رسول العادل عن الانكتار . ولما عرف ذلك العادل بنى عليه أن استحضرنا عنده وحملنا هذه الرسالة الى السلطان وجعلني المتكلم فيها والجماعة يسمعون وتعرض عليه هذا الحديث فان استصوبه ورآه مصلحة للمسلمين شهدنا عليه بالاذن في ذلك والرضا به وان أباه شهدنا عليه أن الحال في الصلح قد انتهى الى هذه الغاية وأنه هو الذي رأى ابطاله فلما مثلنا بالخدمة السلطانية عرضت عليه الحديث وتابونا عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين فبادر الى الرضا بهذه القاعدة معتقداً ان الانكتار لا يوافق على ذلك أصلاً فان هذه منه مكر وهزل فكررت عليه الرضا بذلك ثلاث مرات وهو يقول نعم ويفرح ويشهد على نفسه به فلما تحققتنا منه ذلك عدنا الى الملك العادل فعرفناه بما قال وعرفه الجماعة اني كررت عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه وأنه أصر على الاذن في ذلك واستقرت القاعدة عليه *

﴿ ذكر عود الرسول الى الانكتار بالجواب عن هذه الرسالة ﴾

ولما كان ثاني شوال سار ابن النحال رسولاً من جانب السلطان ومن جانب الملك العادل فلما وصل الى مخيم العدو وأنفذ من عرف الملك بتقدمه أنفذ اليه من قال له ان الملكة عرض عليها أخوها النكاح فسخطت من ذلك وغضبت بسببه وأنكرت ذلك انكاراً عظيماً وحلفت بدينها المغلظ من يمينها انها لا تفعل ذلك وكيف تمكن مسلماً من غشيانها ثم قال أخوها ان الملك العادل يتنصر وأنا أتم ذلك وترك باب الكلام مفتوحاً *

ولما كان خامس شوال وصل الخبر ان الاسطول الاسلامي استولى على مراكب الافرنج وفيها مراكب يعرف بالسطح قيل انه كان فيه خمسمائة

نفر وزائد على ذلك وأنه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة مذكورون
وسر المسلمون بذلك وضربت بشارُ النصر ونعق بوق الظفر فلله الحمد والمنة*
ولما كان سادس شوال جمع السلطان أكابر الامراء وأرباب الآراء من
دولته وشاورهم كيف يصنع ان خرج العدو وكان قد تواصلت الاخبار عنهم
انهم قد اتفقوا على الخروج الي العسكر الاسلامي فانفصل الرأي بين ذوى
الآراء على أنهم يقيمون بمنزلتهم بعد تخفيف الاثقال فان خرج الافرنج
كانوا على لقاءهم*

وفي عشية ذلك اليوم استأمن من الافرنج اثنان على فرسين وأخبرا أن
العدو على عزم الخروج وأنهم زهاء عشرة آلاف فارس وذكر انهم لا يعرفون
قصدهم وهرب أسير مسلم من جانبهم وأخبر أنهم قد أظهروا الخروج الى
الرملة ثم فيها يتفقون على موضع يقصدونه* ولما تحقق السلطان أمر الجاويش
أن ينادى في العسكر حتى يتجهز جريدة وشدت الرايات واتفق على أنه
يقف قبالة القوم ان خرجوا وسار في السابع مؤيداً منصوراً حتى أتى قبلي
كنيسة الرملة ليلاً فخيم هناك ليلته*

﴿ ذكر خروج الافرنج من يافا ﴾

ولما كانت صبيحة الثامن رتب الابطال للقتال وسلم اليك للملك العادل
وتبعه من يريد من الغزاة وكان قد وصل جماعة من الروم يريدون الغزاة
فخرجوا في جملة من خرج فلما وصلوا الي خيام الافرنج هجم عليهم المماليك
السلطانية لقوة جاشهم وأنسهم بقتالهم وثقتهم بمراكبهم ورموا عليهم النشاب
فراهم الغزاة والواصلون من الروم فاغتروا باقدامهم ووافقوهم في فعلهم وقاربوا
عسكر العدو فلما رأى الافرنج تلك المضايقة والمنازلة ثارت همهم وحركتهم

نخوتهم فركبوا من داخل الخيام وصاحوا صيحة الرجل الواحد وحملوا في جمع كثير فنجبا من سبق به جواده وقدر في القدم نجاته وظفروا بجماعة فقتل منهم ثلاثة نفر ونقلوا خيامهم الي بازور وأقام السلطان في تلك الليلة بمنزلته الي الصباح

﴿ ذكر وفاة تقي الدين الملك المظفر ﴾

ولما كان الحادى عشر ركب السلطان الي جهة العدو فاشرف عليهم ثم عاد وأمرني بالاشارة الي أخيه بان يحضر معه علم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم فلما مثل الجماعة بين يديه أمر خادما ان يخلى المكان عن غير الحاضرين وكنت في جملتهم وأمره بالبعاد الناس عن الخيمة ثم أخرج كتابا من قباه وفضه ووقف عليه وبدت دموعه وغلبه البكاء والنحيب حتي وافقناه من غير ان نعلم السبب ما هو وفي أثناء ذلك ذكر انه يتضمن وفاة الملك المظفر فأخذ الجماعة في البكاء حتى أتوا بوظيفته ثم ذكرته الله تعالى وانتهاء قضائه وقدره فقال استغفر الله انالله واناليه راجعون ثم قال المصلحة كتم ذلك واخفاؤه لئلا يتصل بالعدو ونحن ننازله ثم أحضر الطعام فأكل الجماعة وانفصلوا وكان الكتاب الواصل المتضمن نعيه هو غير الكتاب الواصل الي حماة بنعيه في طى كتاب وصل من النائب بها وكانت وفاته بطريق خلاط عائداً الي ميفارقين فحمل ميتا الي ميفارقين ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بارض حماة وحمل اليها وزرت ضريحه وكانت وفاته تاسع عشر رمضان سنة سبعة وثمانين *

﴿ ذكر كتاب وصل من بغداد ﴾

ولما كان الثاني عشر من شوال وصل من دمشق كتاب من النواب

بها في طيه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوي مجده الله يتضمن
فصولا ثلاثة الاول الانكار على الملك المظفر في مسيره الي بكتمر وبلغ فيه
حتى قيل ان الديوان العزيز لا يسلمه . والفصل الثاني يتضمن الانكار على
مظفر الدين في امسالك حسن بن قنجاك والامر باعادته الى الكرخاني وبلغ
فيه حتى قيل ان الديوان العزيز لم يأذن لغيره في سكنها . وكانت قصة حسن
ابن قنجاك انه قصد ارمية الي السلطان طغرل فانه كان قد نزل به في معونته لما
هرب من ديار العجم واستنصر به وتزوج أخته ووقع في ذهنه أنه يكون
أتابكه ويملك به البلاد فقصد ارمية فقتل أهلها على ما قيل وسبي نساءهم
وذرائعهم وتعرض للقوافل وكانت معقلة الكرخاني فلما وجد السلطان طغرل
قوته تركه وانصرف عنه وعاد الي بلاده وأظهر الفساد في الارض والتعرض
للقوافل على ما قيل فاستعطفه مظفر الدين صاحب اربل حتى عاد اليه وانخرط
في سلك أصحابه وقبض عليه وأخذ الي الديوان العزيز ذلك وفي معناه استيلاء
مظفر الدين على بلاده ولعله تشفع الي الديوان فاقتضت عاطفته ذلك في
حقه . واما الفصل الثالث فكان يتضمن التقدم باحضار القاضي الفاضل في
الديوان رسولا لتقرر عليه قواعد ويسر اليه أسباب . هكذا كان مضمون الكتاب
واما الجواب عنه فان السلطان أجاب عن الفصل الاول بأننا لم نأمره بشيء
من ذلك وإنما عبر ليجمع العساكر ويعود الي الجهاد فانفتت أسباب اقتضت
ذلك وقد امرناه بالعود . واما الفصل الثاني فأجاب عنه بان عرفهم حال ابن
قنجاك وما تصدى له من الفساد في الارض وانه قد تقدم الي مظفر الدين
حتى يحضره معه الي الشام فيقطعه فيه ويكون ملازما للجهاد . وأما الفصل
الثالث فانه اعتذر عن القاضي الفاضل بأنه كثير الامراض وقوته تضعف عن

الحركة الى العراق فهذا كان حاصل الجواب *

﴿ ذكر وصول صاحب صيدا رسولا من جانب المريكس ﴾

ولما كان ثالث عشر شوال وصل من أخبر بوصول صاحب صيدا من جانب المريكس صاحب صور وكان قد جري بيننا وبينه أحداث مترددة حاصلها أنهم ينقطعون عن الافرنج ونصرتهم ويصيرون معنا عليهم بناء على فتنة كانت جرت للمريكس مع الملوك بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لآخي الملك جفري وقبح نكاحها بأمر اقتضاه دينهم فاضطرت آراؤهم فيه بخاف المريكس على نفسه فأخذ زوجته وهرب تحت الليل الى صور وأخذ الى السلطان والاعتضاد به وكان في ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع المريكس عن الافرنج فانه كان أشدهم باسا . وأعظمهم للحرب مراسا . واثبتهم في التدبير أساسا . وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان أمر باجلاله واحترامه فضربت خيمة وضرب حولها شقة ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظماهم وملوكهم وأمر بانزاله في الثقل يستريح ثم يجتمع به *

﴿ ذكر واقعة الكمين الذي استشهد فيه اياس الموراني ﴾

ولما كان سادس عشر شوال أمر السلطان الخليفة أن كمننت للعدو في بطون أودية هناك واستصحبوا جماعة من العرب فلما استقر الكمين في موضعه ظهرت العرب على جاري عاداتها في مناوشتها العدو وكان العدو يخرج منه جماعة للاحتشاش والاحتطاب قريبا من مخيمه تضرب العرب وتضرب العرب عليهم فضربوا عليهم ووقع الحرب بينهم وثار الصياح وسمع العدو فركب منهم جمع من الخيالة وطلبوا جهة العرب فانهمزم العرب بين أيديهم الى

جبهة الكمين والعدو يتبعهم طمناً حتى قاربوا الكمين فخرج الكمين عليهم وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد فانهزموا بين أيديهم نحو خيامهم واتصل الخبر بالعدو فركب منهم خلق عظيم وقصدوا نحو الوقعة والتحم القتال واشتد الامر وقتل جمع من الطائفتين وأسروا وجرح جمع من العدو وأخذ منهم خيل كثيرة وكان سبب انفصال الحرب ان السلطان أحس بهذه الوقعة فانفذ أمراء آخر أسلم وسيف الدين يازكج ومن يجري مجراها رداً للمسلمين وقال اذا رأيت الغلبة على الكمين فاذاؤروا فلما رأوا الكثرة من جانب العدو خرجوا بخيلهم ورجلهم ولما رأى العدو الاطلاق الاسلامية فد صوبت نحوه أعنة خيلها ولوا الادبار نحو خيامهم والسيف يعمل في أفقيتهم حتى دخلوا الخيام وانفصل الحرب قبيل الظهر وكان السلطان قد ركب متشوقاً أخبار الكمين وكنت في خدمته وكان أول من دخل من الوقعة ووصل جماعة العرب ومعهم خمس رؤس من الخيل قد أخذوها وانفصلوا قبل انفصال الحرب ومازالت الطلائع تتواتر والبشائر تتواصل وقتل من العدو زهاء ستين نفراً وجرح من المسلمين جماعة منهم اياس المهراني وكان شجاعاً معروفاً وجاؤلى غلام القيدى وأسروا من العدو فارسان معروفان واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما وعاد السلطان الى خيمته فرحاً مسروراً معوضاً من قتل فرسه متلطفاً بالجرىح مترحماً على الشهيد *

وفي بقية هذا اليوم وصل رسول الانكثار الى الملك العادل بعثه على الكمين ويطلب الاجتماع به *

﴿ ذكر ما جرى للملك العادل والانكثار واجتماعهما ﴾

ولما كان الثامن عشر سار الملك العادل الى اليزك وضربت له قبة عظيمة

وسار ومعه من الاطعمة والحلاوات والتجملات والتحف ما جرت العادة ان يحمل من ملك الى ملك وهو اذا تجمل في ذلك لا يغلب وسار الانكثار الى خيمته وحضر عنده فاحترمه احتراماً عظيماً ووصل مع الانكثار الى خيمته وأحضر من طعامهم الذي يختصون به مما اتحن به الملك العادل على وجه المطابقة فتناول منه الملك العادل وتناول هو وأصحابه الواصلون معه من طعام الملك العادل وتحادثا معظم ذلك النهار وتفاصيلاً على تواد ومحبة أكيدة *

﴿ ذكر الرسالة التي أنفذها الانكثار الى السلطان ﴾

وفي ذلك اليوم سأل الانكثار الملك العادل ان يلتمس من السلطان الاجتماع به والمثول بين يديه . ولما وصات هذه الرسالة شاور السلطان الجماعة في الجواب فما منهم من وقع له ما وقع للسلطان . وذاك انه قال الملوك اذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك فاذا تقطع أمر حسن الاجتماع والاجتماع لا يكون للمفاوضة في مهم وانا لا أفهم بلسانك وأنت لا تفهم بلساني ولا بد من ترجمان بيننا شق أنا وأنت به فليكن ذلك الترجمان رسولا حتى يستقر أمر وتستتب قاعده وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة . قال الرسول ولما سمع الانكثار هذا الجواب استعظمه وعلم أنه لا يقدر على بلوغ غرض الا بالدخول تحت المراضى السلطانية

﴿ ذكر حضور صاحب صيدا بين يدي السلطان ﴾

ولما كان التاسع عشر جلس السلطان واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه وكنت حاضر المجلس فآكرمه اكراماً عظيماً وحادثهم وقدم بين أيديهم ما جرت به العادة . ولما

فرغ الطعام خلا بهم وكان حديثهم في أن السلطان يصلح المرکيس صاحب صور وكان قد انضم اليه جماعة من اكابر الافرنجية منهم صاحب صيدا وغيره من المعروفين وقد سبقت قصته وكان من شروط الصلح معه اظهار عداوة الافرنج البحرية وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم وواقعة وقعت له معهم بسبب الزوجة وبذل له السلطان الموافقة على شروط قصد بها الايقاع بينهم وأن يقتل بعضهم بعضاً فلما سمع السلطان حديثه وعد أن يرد عليه الجواب فيما بعد وانصرف عنه في ذلك اليوم

﴿ ذكر وصول رسول الانكتار وهو ابن الهنغري وهو من
 ﴿ اكبرهم وملوكهم ومن أولاد ملوكهم ﴾

وصل وفي صحبته شيخ كبير ذكروا ان عمره مائة وعشرون سنة فأخضره السلطان عنده وسمع كلامه . وكانت رسالته ان الملك يقول اني أحب صداقتك ومودتك وانك ذكرت انك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه ولا بد أن يكون لناعلقة بالقدس الشريف ومقصودى أن نقسم بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين ولا على لوم من الافرنجية فأجابه في الحال بوعد جميل ثم أذن له في الود في الحال وتأثر بذلك تأثراً عظيماً وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الاسارى وكان منفصلاً عن حديث الصلح فقال ان كان صلح فعلى الجميع وان لم يكن صلح فلا يكون من حديث الاسارى شيء وكان غرضه رحمه الله أن يفسخ قاعدة الصلح فانه التفت اليّ في آخر المجلس بعد انفصالهم وقال متي ما صالحناهم لا تؤمن غائلتهم فاني لو حدث بي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر وتقوي الافرنج فالمصاحبة أن لا نزال على الجهاد حتى نخرجهم

من الساحل أو يأتينا الموت هذا كان رأيه قدس الله روحه وإنما غلب على
الصلح

﴿ ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصلحين بين الانكثار والمركيس ﴾

ولما كان حادى عشر شوآل جمع السلطان الامراء والاكابر وأرباب
المشورة وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس واستقر الامر من جانبه عليها
وهي أخذ صيدا وأن يكون معنا على الافرنج ويقاثلهم ويجاهرهم بالعدوان
وذكر ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح وهي أن تكون لنا من القرى
الساحلية مواضع معينة وتكون لنا الجبلات بأسرها أو تكون القرى كلها
مناصفة وعلى هذين القسمين يكون لهم قسوس في بيع القدس الشريف
وكنائسه . وكان الانكثار قد خیرنا بين هذين القسمين فشرح قدس الله
روحه الحال في القاعدتين للامراء واستنبط آراءهم في ترجيح أحد الحالين
الانكثار والمركيس وترجیح أحد القسمين المذكورين من جانب الملك
فراى أرباب الراى انه ان كان صاحح فليكن مع الملك فان مصافاة الافرنج
للمسلمين بحيث يخاطونهم بعيدة غير مأمونة الغائلة وانفض الناس وبقى
الحديث مترددا في الصلح والرسل تتواصل في تقرير قواعد الصلح . وأصل
التقاعد ان الملك قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج وأن تكون
البلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية لهما فأما الافرنجية فلها من جانب أخيها
والاسلامية له من جانب السلطان وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى ان
قال ان معاشر دين النصرانية قد أنكروا عليّ وضع أختي تحت مسلم بدون
مشاورة البابا وهو كبير دين النصرانية ومقدمه وهأنا أسير اليه رسولا يعود
في ستة أشهر فان أذن فيها ونهبت والآزواجك ابنة أخي وما أحتاج الى

اذنه في ذلك . هذا كله وسوق الحرب قائم * والقتال عليهم ضربة لازم*
 وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الاحيان ويشرف على الافرنج وهم
 كلما رأوه تحركوا الطاب الصلح خوفا من أن ينضاف المركيس الي المسلمين
 وعند ذلك تنكسر شوكتهم ولم يزل الحال كذلك الي خامس عشر شوال

﴿ ذكر رحيله رحمه الله الى تل الجزر ﴾

ولما كان ذلك اليوم أصبح السلطان على عزم الرحيل وأحضر أرباب
 الرأي وشاورهم في جواب رسالة القوم وعرض عليهم حديثه وذكر
 ما عندهم في ذلك وأحضر الرسل وكان ابن الهنغرى يترجم بينه وبين
 البحرين واستقرت القاعدة على أن ينضم معهم رسولين رسولا من جانبه ومن جانب
 العادل الآخر لأن الحديث كان يتعاقب به وكان من جملة رسالتهم ان البابا ان
 أذن في هذا العقدتم وان لم يأذن زوجنا الملك العادل بابنة أخي الملك وهي
 بكر وذكروا ان من دينهم ان البابا انما يحتاج الي اذنه في تزويج الثيب من
 بنات الملوك وأما الابكار فيزوجها أهلها وانفصل الحال على ذلك وسارت
 الرسل الي خيم الملك العادل ليجهز رسول السلطان ويحققه ثم وصل بعد ذلك
 من اليزك من أخبر ان الفرنج قد انتشر منهم راجل كثير وخرجوا عن
 الاسوار التي لهم ولم يظهر لخروجهم غائلة وسار رحمة الله عليه الي تل الجزر
 لا رتياد اليزك وتبعه الناس في الرحيل فما كان الظاهر الا ورحل الناس الي
 السلطان ونزلنا بتل الجزر . ولما عرف الافرنج بعود السلطان رحلوا عائدين
 وأقام السلطان بتل الجزر ثم رحل الي جهة القدس الشريف ورحل الافرنج
 الي جهة بلادهم واشتد الشتاء وعظمت الامطار وسار السلطان الي القدس
 الشريف وأعطى العسكر دستورا وأقمن بالقدس في ذلك الشتاء أجمع وعاد

العدو الى بلاده ووصل الانكثار عساكره الى يافا وعاد الي عكا ينظر في
أحوالها فأقام مدة ثم وصل منه رسول يقول اني أوتر الاجتماع بالملك العادل
فقيه مصلحة تعود على الطائفتين فقد بلغني ان السلطان فوض أمر الصلح
الى أخيه الملك العادل فاتفق الرأي في مضي الملك العادل على أنه يمضي بحيث
يجتمع بعساكرنا التي في النور وكوكب وتلك النواحي ويحدثه ويقول له ان
الحديث جري بيننا مراراً وما أسفر عن مصلحة فان كانت هذه الدفعة كتناك
الدفعات فلا حاجة الي الحديث * وان كان النرض بت حال فقارب الحال وأنا
لا أجمع بك الا أن أري ما يقارب فصل الحال وقرر مع الملك العادل ان رأي
ما يمكن معه فصل الحال والا طاوله وماطله الي أن تصل العساكر من
الاطراف فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن انهاء ما ينفصل الحال عليه فكتب
تذكرة فيها المناصفت وذكر فيها من أمر بيروت انه أصر على طلبها وأن
نعطى صايب الصلبوت ويكون لهم في القمامة قس ويفتح لهم باب زيارتها
بشرط أن لا يحملوا السلاح وكان الحامل على ذلك ما أخذ الناس من تعب
مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعدين الاوطان فان من الناس من كان لا يفارق
السلطان ولا يمكنه طلب دستور منه

﴿ ذكر مسير الملك العادل ﴾

وكان مسيره من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الاول سنة
ثمان وثمانين وخمسمائة ثم وصل كتابه من كيسان يخبر أنه لقيه الهنغري
مع الحاجب أبي بكر رسولا من الانكثار يقول انا قد وافقنا على قسمة
البلاد وان كل من في يده شيء فهو له فان كان ما في أيدينا زائدا أخذتم
في مقابلته ما يقابل الزيادة مما يخصنا وان كان ما في أيديكم أكثر فعلنا كذلك

ويكون القدس لنا ولكم فيه الصخرة هكذا كان مضمون الكتاب فوقف
السلطان عليه الامراء فاستصوب ذلك الامير أبو الهيجاء ورأوا من حال
هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل وهو مصلحة وسار الجواب الى
الملك العادل في ذلك *

ولما كان حادي عشر ربيع الاول وصل الحاجب أبو بكر صاحب
الملك العادل يخبر ان الانكثار سار الي يافا من عكا وأن الملك العادل ما
رأى أن يجتمع به الا عن قاعدة منفصلة وانه جري بين هذا الحاجب
وبين الانكثار مفاوضات كثيرة حاصلها انه نزل على ان تكون الصخرة لنا
والقلعة في أيدينا والباقي مناصفة وان لا يكون في البلد منهم مذکور وان
تكون قرى القدس وباطنه مناصفة ثم قدم الملك العادل في سادس نشر
ربيع الاول من الغور ولقيه السلطان وحكى ما سبق من الخبر *

وفي بقية ذلك اليوم وصل من أخبر ان الافرنج أغاروا على حلة عرب
قريبة من الدارون وأنهم أخذوا منهم جماعة وانهم أخذوا منهم زهاء ألف
رأس غنم فعظم ذلك على السلطان وشق عليه فسير جماعة فلم تلحقهم

﴿ ذكر انفصال رسول المراكيس ﴾

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولا من جانب المراكيس
يلتمس الصلح مع المسلمين فاشتراط رحمة الله عليه شروطاً منها ان يقاتل
جنسه ويباينهم . ومنها ان ما يأخذه من البلاد الافرنجية بعد الصلح بانفراده
يكون له وما تأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا وما نتفق نحن وهو على أخذه
تكون له نفس البلد ويكون لنا ما فيه من أسرى المسلمين وغير ذلك من
الاموال . ومنها أن يطلق لنا كل أسير مسلم في مملكته . ومنها ان فوض

الانكتار اليه أمر البلاد لأمر يجري بينهم كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا وبين الانكتار ما عدا عسقلان وما بعدها فلا يدخل في الصلح وتكون الساحليات له وما في أيدينا لنا وما في الوسط مناصفة وسار رسوله على هذه القاعدة *

ولما كان يوم الاثنين الثامن والعشرون من ربيع الاول وصل أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ووصل جريدة مقدما على عسكره *

﴿ ذكر خروج سيف الدين المشطوب من الاسر ﴾

وكان وصوله الي القدس الشريف يوم الخميس مستهل جمادي الأخرى دخل على السلطان بغتة وعنده أخوه الملك العادل فهض له واعتنقه وسر به سرورا عظيما وأخلى المكان وتحدث معه بطرف من أحاديث العدو وسأله عن حديث الصلح فذكر أن الانكتار سكت عنه *

وفي هذا اليوم كتب السلطان الي ولده الملك الافضل ان يسير الي قاطع الغزاة ويستلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف من السلطان على نفسه وأظهر ذلك ودخل في أمره الملك العادل وسير الي الملك العادل حتي يتحدث في أمره . وكان ذلك قد شقّ على السلطان وأثار منه غيظاً عظيما كيف يكون هذا الامر من أهله ولم يكن أحد من أهله خاف منه ولا طلب يمينه وهذا كان السبب في توقف الانكتار في الصلح فانه ظن ان خلافه يكدر للسلطان شرب الغزاة ويحوجه الي الموافقة على ما يرضاه فانفذ الي الملك الافضل ان يسير الي البلاد وكتب الي الملك الظاهر بحلب المحروسة ان أخاه ان احتاج الي معونة عاونه وجيزه بمحمة كبيرة وسار باحترام

عظيم حتي وصل الى حلب واكمه أخوه الملك الظاهر اكراما عظيما وعمل له
ضيافة تامة وقدم بين يديه تقدمة سنوية. وعذنا الي حديث العدو*

﴿ ذكر عود رسول صور ﴾

ولما كان سادس ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وصل
يوسف من جانب المريكس يحدد حديث الصلح ويقول قد انفصل الحال على
شيء بينه وبين الأفرنجية فان نجح في هذه الايام سارت الفرنسية في البحر
وان تأخر بطل الحديث في الصلح بالكلية فرأى السلطان الصلح مع المريكس
مصلحة لا اشتغال قلبه من جانب الشرق وخاف ان يتصل ابن تقي الدين
بكثر فيحدث من ذلك ما يشغل الخاطر من الجهاد فأجاب الي ملتمس
المريكس وكتب مع صاحبه مواضعة على نعمت ما تقدم وسار يوسف الرسول
بالجواب تاسع ربيع الآخر *

﴿ ذكر قتل المريكس ﴾

ولما كان السادس عشر من الشهر وصل من الرسول المنفذ الي المريكس
كتاب ان المريكس قتل وعجل الله بروحه الي النار وكانت صورة قتله انه
تقدم يوم الثلاثاء ثالث عشر عند الاسقف ثم خرج فقفز عليه اثنان من
أصحابه بالسكاكين وكان خفيفاً من الرجال فما زالوا يضربانه حتي عجل الله
بروحه الي النار وأمسك الشخصان وسئلا عن هذا الامر ومن حضهما
عليه فقالا ان الانكثار حملنا عليه وقام بالامر اثنان حفظا القلعة الي ان اتصل
الخبر بالملوك وانعقد الامر وتدبر المكان *

﴿ ذكر تمة خبر الملك المنصور وما جرى له ﴾

وذلك أنه لما بلغه مؤاخذه السلطان أنفذ الى الملك العادل رسولا يشفع به ليطيب قلب السلطان ويقترح عليه أحد قسمين إما حران والرها وسميساط وإما حماه ومنبج وسلمية والمعرة مع كنفالة اخوته فراجع الملك العادل السلطان مراراً فلم يجبه الى شيء من ذلك فكثرت الشفاعة اليه من جميع الامراء وعزت شجر رافة منه فرجع خلقه النبوي وحلف له على حران والرها وسميساط على انه اذا عبر القرات اعطى المواضع افراجها وتكفل اخوته ويتخلى عن تلك المواضع التي في يده ودخات تحت ضمان الملك العادل ثم التمس الملك العادل خط السلطان ثانياً ولج عليه فزق نسخة اليمين في التاسع والعشرين من ربيع الآخر وانفصل الحال وانقطع الحديث وكنت المتردد بينهما في ذلك وأخذ النميظ السلطان كيف يخاطب بمثل ذلك من جانب اولاد اولاده *

﴿ ذكر قدوم رسول ملك الروم ﴾

ولما كان مستهل جمادى الاولى وصل رسول من قسطنطينية الكبرى والنقي بالاحترام والاكرام ومثل بالخدمة السلطانية في ثالث الشهر وكانت رسالته تشتمل على مطالب . منها صليب الصلבות . ومنها أن تكون القمامة بيد قسوس من جانبه وكذا سائر كنائس القدس . ومنها أن يكون الاتفاق معه على ان يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه وان يوافق على قصد جزيرة قبرص فاقام عنده يومين ثم سير معه رسولا يقال له ابن البراز من الديار المصرية وأجيب بالمنع عن جميع مقترحاته وقيل ان الصليب قد بذل فيه ملك الكرج مئتي الف دينار فلم يجب الى ذلك *

﴿ ذكر ماجري للملك العادل في البلاد التي هي قاطع الفرات ﴾

وذلك انه لما سار الملك الافضل رقق الملك العادل قلب السلطان على ابن تقي الدين وقد كثر الحديث في معناه وأنفذني السلطان لمشاورة الامراء في خدمة الملك العادل في أمره فجمعهم في خدمته فذكرت لهم ما ارسلني فيه اليهم فانتدب الامير حسام الدين أبو الهيجاء للجواب وقال نحن عبيده ومماليكه وذلك صبي وربما حمله خوفه أن انضاف الى جانب آخر ونحن لانقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار فان أراد اننا نقاتل المسلمين صالحنا الكفار وسرنا الى ذلك الجانب وقاتلنا بين يديه وان أراد منا ملازمة الغزاة صالح المسلمين وسامحهم . وهذا كان جواب الجميع فرق السلطان وجدد نسخة يمين لابن تقي الدين وحلف له بها واعطاه خطه بما استقر من القاعدة * ثم ان الملك العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد استقلاله وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها وكنت الرسول بينهما وكان آخر ما استقر انه يسلم تلك البلاد وينزل عن كل ما هو شامي الفرات ما عدا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وحاصه بمصر بعد النزول عن الجيزة وعليه في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء الى القدس والمغل في السنة المذكورة في مواضعه له ومغل قاطع الفرات في هذه السنة للسلطان أيضاً وأخذ خط السلطان بذلك وسار بنفسه يصلح أمر ابن تقي الدين ويطيب قلبه وكان مسيره في ثامن جمادي الاولى *

﴿ ذكر استيلاء الفرنج على الدارون ﴾

وكان الافرنج خذلهم الله تعالى لما رأوا أن السلطان قد أعطي العساكر

دستورا وتفرقت العساكر عنه نزلوا على الدارون طمعا فيه وكان بيد علم الدين قيصر وفيه نوابه . ولما كان يوم تاسع جمادى الاولى اشتد زحف العدو على المسكان راجلا وفارسا وكان الانكثار قد استنفذ من نوبة عكا نقابين جبليين فتمكنوا من نقب المسكان وأحرقوا النقب وطلب أهل الحصن مهلة بحيث يشاورون السلطان فلم يمهلوه واشتدوا في القتال عليه فأخذوه عنوة واستشهد فيه من قدر الله له ذلك وأسر من قدر له ذلك وكان ذلك قدرا مقدورا

﴿ ذكر قصدهم لمجدل يابا ﴾

ولما استولى الافرنج على الدارون ساروا ببدان قرروا أمره ووضعوا فيه من اختاروا حتى نزلوا على منزلة يقال لها الحسي وهي قريب من جبل الخليل عليه السلام وذلك في رابع عشر جمادى الاولى فأقاموا عليه ثم تأهبوا بقصد حصن يقال له مجدل يابا فأتوه جريدة وخلفوا خيامهم في منزلتهم وكان بها عسكر اسلامي فلة يهيم وجرى بينهم قتال عظيم وقتل من العدو كئند مذكور واستشهد من المسلمين فارس واحد كان سبب قتله انه وقع رحمه فنزل لياخذه فمنعه فرسه الركوب فبادروه وقتلوه وعادوا الي خيامهم بقية اليوم خائبين والله الحمد

﴿ ذكر وقعة جرت في صور ﴾

ولما كان سادس عشر جمادى وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر انه تخلف في صور مائة راكب وانضم اليهم من عكا خمسون وطمعوا فخرجوا لشن الغارات على البلاد الاسلامية فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف وجرى بينهم قتال شديد وقتل من العدو خمسة عشر

نفرا ولم يقتل من المسلمين أحد وعادوا خائبين والله الحمد

﴿ ذكر قدوم العساكر الاسلامية للجهاد ﴾

ولما رأى السلطان ما جري من العدو من التنبط سير الي العساكر من سائر الاطراف أن يسابقوا الي الحضور وكان أول قادم بدر الدين دلدردم مع خلق كثير من التركمان فقيه السلطان واحترمه ووصل بعده عز الدين ابن المقدم في سابع عشر جمادى الاولى بمسكر حسن وآلات جميلة ففرح به السلطان

وأما العدو فانه رحل من الحسي ونزل على مفرق طرق منها طريق عسقلان وطريق الي بيت جبرين والي غير ذلك من الحصون الاسلامية . ولما بلغ السلطان ذلك أمر العساكر ان سارت نحوه فخرج أبو الهيجاء السمين وبدر الدين دلدردم وابن المقدم وتابعت المسكر وتخلف هو في القدس لنوع التيات كان عرض له فلما أحس العدو المخذول بظهور العساكر الاسلامية عاد خائباً خاسراً ناكصاً على عقبه ووصلت الكتب من الامراء مخبرين برحيل العدو الي عسقلان

﴿ ذكر تعبئة العدو لتصد القدس الشريف ﴾

ولما كان يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الاولى وصل قاصد من المسكر يخبر ان العدو قد خرج في راجله وفارسه وسواد عظيم وخيم على تل الصافية فسير السلطان الي العساكر الاسلامية يندرها ويحذرهما واستدعى الامراء جريدة اليه ليمقدوا رأياً فيما يقع العمل بمقتضاه فوصل ورحل العدو من تل الصافية الي جانب النظرون فنزل شماله وذلك في السادس والعشرين

من جمادى الاولى وكانت قد سارت من عرب الاسلام جماعة للغارة على يافا فوصلوا بليل من غير علم بحركة العدو فنزلوا في بعض الطريق يقسمون فوقعت عليهم عساكر العدو فأخذوهم وهرب منهم ستة نفر فوصلوا الي السلطان وأخبروه الخبر ووصلت الجواسيس وتواترت الاخبار من جانب العدو انه مقيم بالنظرون لنقل الازواد والآلات التي تدعو الحاجة اليها في الحرب فاذا حصل عندهم ما يحتاجون اليه قصدوا القدس الشريف حرسه الله تعالى . وفي يوم الاربعاء وصل منهم رسول صحبته غلام كان للمشطوب عندهم يحدث في معنى قراقوش ويتحدث في معنى الصلح

﴿ ذكر نزولهم في بيت نوبة وهو موضع وطاة بين ﴾

﴿ جبال ينابينه وبين القدس مرحلة ﴾

رحل العدو من النظرون يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الاولى ونزلوا بيت نوبة . ولما عرف السلطان ذلك استحضر الامراء وضرب المشورة فيما يفعل فكانت خلاصة الرأى أن يقسم الاسوار على الامراء ويخرج ببقية العسكر جريدة الى جهة العدو فاذا عرف كل قوم موضعهم من السور استعدوا فان دعت الحاجة اليهم خرجوا وان دعت الحاجة الى ملازمة مواضعهم لازموها فكتبت الرقاع وسيرت الي الامراء وكانت طريق يافا سابلة لمن ينقل الميرة الي العدو فأمر السلطان من في اليزك أن يعمل معهم ما يمكنه وكان في اليزك بدر الدين دلدرم فكمن حول الطريق جماعة جيدة فر بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة فاستضعفوه فحملوا عليهم وجرى قتال عظيم كانت الدائرة فيه على العدو وقتل منهم ثلاثون نفرا وأسرجاعة ووصل الاسارى في التاسع والعشرين من جمادى الاولى

الي القدس وكان لدخولهم وقع عظيم وجرى على العدو من ذلك وهن كبير وقويت قلوب اليزية وانبعثت همهم حتى حملوا على العسكر ونزلوا الي أطراف الحيم والله الحمد

ولما علم المسلمون ان القوافل لا تنقطع خرج جماعة وأخذوا معهم عربا كثيرا وكنوا كمينا واجتازت القافلة ومعها جماعة كثيرة فخرجت العرب على القافلة وتبعتهم الحيلة فدحروا بين أيديهم منهزمين نحو المسلمين فخرجت الاترك عليهم فأخذوا وقتلوا وجرح من الاترك جماعة وذلك في ثالث جمادى الآخرة

﴿ ذكر أخذ قافلة مصر حرسها الله تعالى ﴾

وذلك انه كان قد تقدم الي عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بالاحتراز والاحتياط عند مقاربة العدو فاقاموا ببليس أياما حتى اجتمعت القوافل اليهم واتصل خبرهم بالعدو ثم ساروا طالبين البلاد والعدو يتربق أخبارهم ويتوصل اليها بالعرب المفسدين . ولما تحقق العدو خبر القوافل أمر عسكره بالاحتياط والتحفظ وسار حتى أتى تل الصافية فبات ثم سار حتى أتى الصافية ثم علق على خيله فته وسار حتى أتى ماء يقابل الحسي واتصل خبر نهضة العدو بالسلطان فانفذ بندير للقافلة وكان المندوب لذلك الامير أخر أسلم والطنبا العادلي وجماعة من الفرسان المذكورين وأمرهم ان يبعدوا بالقافلة في البرية ويتباعدوا عن العدو ما أمكن فاتفق ان العسكر وصل الحسي قبل وصول العدو اليه فلم يقيموا عليه وساروا حتى وصلوا القفل والعسكر المصري فاتوا بالقفل على ذلك الطريق ثقة منهم بانهم لم يجدوا فيه ذاعرا ولا أحسوافيه بمخوف فرغبوا في قرب الطريق وسلكوا بالناس هذا الطريق حتى وصلوا الي ماء يقال له الحويلفة

وتفرق الناس لاجل الماء فاخبر العرب العدو بذلك وهو نازل برأس الحسى فقام من وقته وسري حتى أتاهم قبيل الصبح وكان مقدم العسكر فلك الدين أخو الملك العادل لأمه فاشار اسلم بالمسير ليلا قطعاً للطريق واستظهارا بالصمود الي الجبل نخاف فلك الدين انه ان رحل بالليل جرى أمر على القافلة لتبدها فنادى في الناس أن لا يرحلوا الي الصباح *

وأما الانكثار فبلغنا انه لما بلغه الخبر لم يصدقه وركب مع العرب بجمع يسير وسار حتى أتى القفل فطاف حوله في صورة عربي وراهم ساكنين قد غشيهم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبسة قريب الصباح فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله وكان الشجاع هو الذي ركب فرسه ونجا بنفسه وانهزم اناس الي جهة القفل والعدو يتلوهم فلما رأوا القفل اعرضوا عن قتال العسكر وطلبوا القفل فانقسم القفل ثلاثة أقسام قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب وعسكر الملك العادل وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب أيضاً. وقسم استولى عليهم العدو فساقتهم بجملهم وأحمالهم وجميع ما كان معهم وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثها من مدة مديدة. وكان في العسكر المصري جماعة من المذكورين كحسين الجراحي وفلك الدين وبني الجاولي وغيرهم من المذكورين. وقتل من العدو زهاء مئتي فارس على رواية. وعشرة أنفس على رواية. ولم يقتل من المسلمين معروف سوى الحاجب يوسف وابن الجاولي الصغير فانهما استشهدا الي رحمة الله تعالى وتبدد الناس في البرية ورهوا أموالهم وكان السعيد منهم من نجا بنفسه وجمع العدو ما أمكنهم جمعه من الخيل والبغال والجمال والاقمشة وسائر أنواع الاموال وكلف الجمالين خدمة الجمال والخرسانية

خدمة البغال والساسة خدمة الخيل وسار في جحفل من النسيمة يطلب
عسكره فنزل على الخويلفة فاستقى منها ثم سار حتى أتى الحبي * ولقد حكي
لى من كان أسيراً معهم انه فى تلك الليلة رقع فيهم الصوت ان عسكر السلطان
قد قصدهم فتركوا النسيمة وانهمزوا وبعادوا عنها زمانا ولما انكشف لهم أن
العسكر لم يحقهم عادوا الى الرحل وهرب فى تلك النسيمة جمع من أسارى
المسلمين وكان الحاكم منهم فسأله بكم حزرتم الجمال والخيل فاخبر ان الجمال
تناهز ثلاثة آلاف والأسارى خمسمائة وتقرب من ذلك عدة الخيل
وكانت هذه الوقعة صبيحة الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة ووصل
الخبر الى السلطان فى عشية ذلك اليوم بعد العشاء الآخرة وكنت جالساً فى
خدمته وأوصل الخبر شاب من الاصطبلية فما مر بالسلطان خبر انكى منه
فى قلبه ولا اكثر تشويشاً لباطنه وأخذت فى تسكينه وتسلية وهو لا يكاد
يقبل التسلية *

وكان أصل هذه القضية أن الامير أسلم أشار عليهم أن يصعدوا
الجبيل فلم يفعلوا فصعد هو وأصحابه فلما وقعت الكبسة كان هو على الجبل فلم
يصل اليه أحد من العدو ولم يشعروا به . ولما انهزم المسلمون تبعتهم خيالة
لافرنج وأقام الرجالة منهم يستولون على ما تخلف من المسلمين من الاقشعة
ولما تحقق الامير أسلم ان الخيالة قد بعدت عن الرجالة نزل اليهم بمن معه
من الخيالة وكبسهم من حيث لم يشعروا وقتلوا منهم جماعة وغنوا منهم
دواب من جملتها بغلة كانت تحت هذا القاصد * ثم سار العدو يطلب خيامه
فكان وصوله الى المخيم يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة وكان يوماً
عظيماً عندهم أظهروا فيه من السرور وأسبابه ما لا يمكن وصفه وأعادوا

خيمهم الي الوطأة على بيت نوبة وصح عزمهم على القدس وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الاموال والجمال التي كانت تحمل الميرة والزاد الواصلة من مصر مع عسكرها ورتبوا جماعة على لذيحفظون الطريق على من ينقلون الميرة وأنفذوا الكندهري الي صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا الي القدس ولما عرف السلطان ذلك منهم عاد الي الاسوار فقسمها على الامراء وتقدم اليهم بهيئة أسباب الحصار وأخذ في افساد المياه بظاهر القدس وتخريب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلاً وأظن في ذلك اطناباً عظيماً وأرض القدس لا يطعم في حفر بئر بها فيها ماء معين لانها جبل عظيم وحجر صلب وسير الي العساكر يطلبها من النواحي والبلاد *

﴿ ذكر قدوم الملك الانضلي وأمره بالود عن تلك البلاد ﴾
« وكان قد وصل الي حلب المحروسة »

ولما وصل أمر السلطان اليه بالعود عاد مع انكسار في قلبه وتشويش في باطنه فوصل الي دمشق مستتباً ولم يحضر الي خدمة السلطان فلما اشتد خبر الافرنج سير اليه وطلبه فما وسعه التأخر فسار مع من كان قد وصل من العساكر الشرقية الي دمشق وكان وصوله في يوم الخميس تاسع عشر جمادى الاخرى ولقيه السلطان قريباً من العازرية فترجل له جبراً لقلبه وتعظيماً لأمره وسار وفي خدمته أخوه الملك الظافر وقطب الدين الي ظاهر القدس



﴿ ذكر عود العدو الي بلادهم وسبب ذلك ﴾

ولما كانت ايلة الخميس تاسع عشر جمادى الاخرى استحضر السلطان الامراء عنده فحضر الامير أبو الهيجاء السمين بمشقة عظيمة وجلس على كرسي في خيمة السلطان وحضر المشطوب والاسديّة بأسرهم وجماعة الامراء ثم أمرني ان اكلهم وأحهم على الجهاد فذكرت ما يسره الله من ذلك. وكان مما قلته ان النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الامر بايه الصحابة رضي الله عنهم على الموت في لقاء العدو ونحن أولى من تأسي به صلى الله عليه وسلم والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ولعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه ثم شرع السلطان بعد ان سكت زمانا في صورة مفكر والناس سكوت كأن على رؤسهم الطير فقال «الحمد لله . والصلاة على رسول الله . اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنته . وانتم تلهون ان دماء المسلمين واموالهم وذرايرهم معلقة بدمكم وان هذا العدو ليس له من المسلمين من تلقاه الا اتم فان وليتم بانفسكم والعياذ بالله طوى البلاد طي السجل للكتاب وكان ذلك في ذمتكم فانكم اتم الذين تصديتم لهذا واكتم مال بيت المال فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام» * فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك وانت انعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا واعطيتنا وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك . والله لا يرجع احد منا عن نصرتك الي أن نموت فقال الجماعة مثل ما قال فانبسطت نفسه بذلك المجلس وطاب قلبه وأطعمهم ثم انصرفوا وانقضى يوم الخميس على أشد حال التأهب والاهتمام حتى كانت العشاء الاخرة وجميعنا في خدمته على العادة وسهرنا حتى مضى من الليلة هزيع وهو غير

منبسط على عادته ثم صابنا العشاء وكانت العشاء هي الدستور الدام فصلينا
واخذنا في الانصراف فاستدعاني فلما جلست في خدمته قال لي عدت ما الذي
تجدد قات لا قال ان ابا اليجاء السمين انشد الى اليوم وقال انه اجتمع عنده جماعة
من المماليك وانكروا علينا موافقتنا على الحصار وقالوا لا مصلحة في ذلك فانا
نخاف ان نحصر ويمجرى علينا مثل ما جرى على عكا وحينئذ تؤخذ بلاد
الاسلام أجمع والرأي ان اتق مصابف فان قدر الله تعالى ان نرزمهم ملكنا
بقية بلادهم . وان تكن الاخرى يسلم السمر ويمض التمس وقد حفظ
الاسلام بعساكره مدة بصير القدر . وكان رحمه الله عنده من التمس أمر
عظيم لا تحمله الجبال فشقت عليه هذه الرسالة واثرت تلك الليلة في خدمته
وهي من الليالي التي احببتها في سبيل الله . وكان مما قاله في الرسالة ان
اردت ان تقيم فتكون معنا انت أو بعض اذنك والانفالا كراد لا يدينون
للاتراك والاتراك كذلك فانفصل الحال على ان يقيم من اهله مجد الدين بن
نفر وشاه وداحب بعابك . وكان رحمه الله يحدث نفسه بالمقام ثم صرف
رأيه عنه لما فيه من الخطر على الاسلام فلما ان فارب الصبح واشنقت عليه
خاطبة في ان يستريح ساعة وانصرفت عنه فمات الا والمؤذن قد اذن
فاخذت في أسباب الوضوء فلما فرغت الا والصبح قد طلعت فعدت الى خدمته
وهو يجدد الوضوء فصلينا ثم قات له قد وقع لي واقع أعرضه قال وما هو
قلت من كثر اهتمامه بما قد حمل على نفسه وقد عززت اسبابه الارضية
ينبغي له ان يرجع الى الله وهذا يوم الجمعة وهو ابرك أيام الاسبوع فيه دعوة
مستجابة ونحن في ابرك موضع فالسلطان يتسل ويتصدق بصدقة خفية
بحيث لا يشعر أحد انها منه ويصلي بين الاذان والاقامة ركعتين يناجي

فيهما ربه ويفوض مقاليد اموره اليه ويترف بالمعجز عما تصدي له فلعل الله يرحمه ويستجيب دعائه وكان حسن العقيدة تام الايمان يتلقى الامور الشرعية باكمل انقياد . ثم انفصلنا فلما جاء وقت الجمعة صليت الي جانبه في الاقصى فصلى ركعتين ورأته ساجداً وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه ثم انقضت الجمعة بخير ولما كانت عشيتها ونحن في خدمته على العادة وصلت رقعة من جرديك وكان في اليزك وكان جملة ما فيها أن التوم ركبوا بأسرهم ووقفوا في التل وقت الظهيرة ثم عادوا الى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم . ولما كانت صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن التوم اختلفوا في الصعود الى القدس والرحيل الى بلادهم فذهبت الرئيسية الى الصعود الى القدس وقالوا نحن انما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه ، وقال الانكثار ان هذا الموضع قد افسدت مياهه ولم يبق حوله ماء أصلاً فمن أين نشرب فقالوا له نشرب من نهر نقوع بينه وبين القدس مقدار فرسخ فقال كيف نذهب الى السقى فقالوا ننقسم قسمين قسم يركب الى السقى وقسم يبقى على البلد في المنازلة ويكون الشرب في اليوم مرة فقال الانكثار اذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقيين ويذهب دين النصرانية فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم وحكم الثلاثمائة اثني عشر وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة فأمروا به فملوه . فلما أصبحوا حكموا بالرحيل فلم تمكنهم المخالفة وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادي الآخرة راحلين نحو الرملة وعلى أعقابهم ناكصين ولله الحمد وهضى عسكرهم شاكيا السلاح ولم يبق في المنزلة الا الآثار ثم نزلوا الرملة وتواترت الاخبار

بذلك فركب السلطان وركب الناس وكان يوم سرور وفرح

﴿ ذكر رسالة الكندهري ﴾

ولما فرغ بال السلطان برميل العدو حضر رسول الكندهري يقول ان الانكثار قد أعطاني البلاد الساحلية وهي الآن لي فأعد عليّ بلادي حين أصلحك واكون أحد أولادك ففضب السلطان لذلك غضبا عظيما بحيث انه كاد يبطش به فأقيم من بين يديه فسأل أن يمهل ليقول كلمة أخري فأذن له في ذلك فقال يقول ان البلاد في يدك فما الذي تعطيني منها فانهره وأقامه ولما كان اليوم الثالث والعشرون حضر الرسول وكان جوابه أن يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ما كان مع المركيس * ثم وصل بعد ذلك الحاجب يوسف صاحب المشطوب من عند الافرنج وذكر أن الانكثار أحضره وأحضر الكندهري وأخلى المجلس وقال له قل لصاحبك انا قد هلكنا نحن وأتم والأصلح حقن الدماء ولا ينبغي أن تعتقد ان ذلك لضئف مني بل للمصلحة ولا تغتر بتأخري عن منزلي فالكباش يتأخر لينطح وأن يكون هو الوسطة بينهم وبين السلطان وأنفذ مع الحاجب شخصين يسمعان الكلام من المشطوب وكان ظاهر الحال الكلام في اطلاق بهاء الدين قراقوش وباطنه في معني آخر وأخبر الحاجب أنهم رحلوا عن الرملة قاصدين يافا وأنهم على غاية الضعف والعجز عن قصد مكان آخر فاستحضر المشطوب من نابلس لسماع الرسالة وكان الجواب الى الكندهري أن نعطى عكا ونصلحه على مال وبتركنا والانكثار على بقية البلاد

وكان رحمه الله قد جعل في مقابلة عكا عسكريا خشية خروج العدو الى النواحي التي تليها فلما كان الثاني والعشرون خرج العدو من عكا غائرين على

ما يليها من البلاد والرسايق فثارت عليهم الكمينات من الجوانب وكان قد
شعر العسكر الاسلامي بخروجهم فكمّن لهم فأخذوا منهم جماعة وقتلوا
جماعة ولله الحمد

﴿ ذكر عود رسولهم في معنى الصلح ﴾

ولما كان يوم الجمعة السادس والعشرون من الشهر تاد رسولهم صحبة
الحاجب يوسف وقد جهل الحاجب يوسف رسالة يؤديها بحضور صاحبهم
وهي ان الملك الانكشار يقول اني راعب في مودتك وصادقتك وانه لا يريد
أن يكون فرعون بملك الارض ولا دينان ذلك فيك ولا يجوز لك أن تهلك
المسلمين كاهم ولا يجوز لى أن أهلك الا فرنج كانهم وهذا ابن أختي الكندهري
قد ملكته هذه الديار وسلمته اليك ايكون هو وعسكره تحت حكمك ولو
استدعيتهم الي الشنق سدهوا واطانوا ويقول ان جماعة من الرهبان المنقطعين
قد طلبوا منك كنائس فما بذات غايهم بها وأنا أطاب منك كنيسة وتلك
الامور التي كانت تنسيق صدرك مما كان يجري في المراسلة مع الملك العادل
تركها وأعرضت عنها. ولو أعطيتني مترعة أو خربة قبلتها. فلما سمع
السلطان هذه الرسالة جمع أرباب الرأي راأنتاب مشورته وسألهم عما يكون
الجواب لهذه الرسالة فما منهم الا من أشار بالتحاسنة وعقد الصلح لما كان
قد أخذ المسلمين من الضجر والتهب وغلاهم من الديون. واستقرّ الحال
على هذا الجواب

اذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الاحسان الا الاحسان ان ابن أختك
يكون عندي كبعض أولادى وسبيلك ما فعل معه وأنا أعطيتك اكبر الكنائس
وهي القمامة وأما بقية البلاد فنقسمها بالساحلية التي بيدك تكون بيدك والذي

بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا وما بين العمليين يكون مناصفة وعسقلان وما وراءها يكون خرابا لانا ولا لكم وان أردتم قراها كانت لكم والذي كنت أكرهه حديث عسقلان *

وانفصل الرسول طيب النفس وذلك في ثاني يوم قدومه وهو الثامن والعشرون واتصل الخبر بعد وصول الرسول اليهم انهم راحلون الى عسقلان طالبون جهة مصر ووصل رسول من جانب قطب الدين ابن قليج ارسلان يقول ان البابا قد وصل الى القسطنطينية في خاق لا يعلم عددهم الا الله تعالى وقال الرسول اني قتلت في الطريق اثني عشر فارسا . ويقول تقدم الي من يستلم بلادي مني فاني قد عجزت عن حفظها فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولم يكثر به

﴿ ذكر عود رسول الافرنج ثالثا ﴾

ولما كان التاسع والعشرون وصل الحاجب صاحب المشطوب ومعه جفري رسول الملك فقال ان الملك شكر انعام السلطان وقال ان الذي أطلبه منك أن يكون لنا في قلعة القدس عشرون رجلا وان من سكن من النصارى والافرنج لا يتعرض اليهم وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطاة والبلاد الجبلية لكم . وأخبرنا الرسول من عند نفسه مناصحة انه قد نزل عن حديث القدس ما عدا الزيارة وأكثر . يقول ذلك تصنعا لضعفنا وانهم راغبون في الصلح وان الانكثار لا بدله . من الرواح الي بلده وأقام يوم الاثنين سابع الشهر وكان معه في هذه الدفعة بازيان هدية للسلطان فاستحضر الامراء بأسرهم وشاورهم فيما يكون الجواب لهذه الرسالة وانفصل الحال على هذا الجواب وهو أن القدس ليس لكم فيه حديث سوي الزيارة فقال الرسول وليس على

الزوار شيء يؤخذ منهم . فعلم من هذا القول الموافقة وأما البلاد كعسقلان وما وراءها فلا بد من خرابه فقال الرسول قد خسر الملك على سورها ما لا جزيل فقال المشطوب للسلطان المصلحة ان تجعل مزارعها وقرائها في مقابلة خسارتها فاجاب وان الدارون وغيره تخرب وتكون بلاد ما مناصفة . وأما باقى البلاد فتكون لهم من باقالي صور باعمالها . ومهما اختلفنا في قرية كانت مناصفة هكذا كان جواب رسالته وسار في يوم الثلاثاء مستهل رجب ومعه الحاجب يوسف وكان قد طلب رسولا منذ كورايحلفه ان استقرت القاعدة فأخر السلطان تسيير الرسول الى حين استقرار القاعدة وأنفذ لهم هدية حسنة في مقابل هديتهم وما كان يفتل في الهدايا

مذكر عود الرسول

كان عوده وقد مضى هزيع من ليلة ثالث رجب فحضر الحاجب ليلا وأخبر السلطان الخبر وحضر الرسول في بكرة الخميس الثالث من رجب وأدى الرسالة وهي ان الملك يسأل ويخضع لك ان تترك له هذه الاماكن الثلاثة عامرة وأى قدر لها في ملكك وعظمتك وما من سبب لاصراره عليها الا ان الافرنج لم يسمحوا بها وقد ترك القدس بالكيفية فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس الا في القمامة وحدها فانت تترك له هذه البلاد ويكون الصلح عاما فيكون لهم كل ما في أيديهم من الدارون الى انطاكية ولكم ما في أيديكم ويتنظم الحال ويروج وان لم يتنظم الصلح فالافرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم . فانظر الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة والحشونة أخرى . وكان لعنه الله مضطرا الى الرواح وهذا عمله مع اضطارره والله الولي في ان بقى المسلمين شره فما

بلونا أعظم حيلة ولا أشد اقداما منه *

ولما سمع السلطان هذه الرسالة أحضر الامراء وأرباب الرأي من دولته وسألهم عن الجواب ما يكون فكان خلاصة الرأي هذا الجواب وهو «ان أهل انطاكية لنا معهم حديث ورسلنا عندهم فان عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح والا فلا . وأما البلاد التي سألمها فلا يوافق المسلمون على دفعها اليه وان كانت لا قدر لها . وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابلة ما خسره عليه لذا في الوطأة وسير الرسول صبيحة الجمعة رابع رجب »

ولما كان الخامس من رجب وصل ولده الملك الظاهر عز نصره وكان كثير المحبة له والا يثار بجانبه لما يراه فيه من أمارات السعادة وصفات الكفاءة وتوسم الملك ثخرج السلطان الى لقائه فلقيه من قاطع العزازية ونزل له عند لقائه واحترمه وكرمه وضمه اليه وقبله بين عينيه ونزل في دار الاستبار *

ولما كان السابع وصل الحاجب يوسف وحده وذكر ان الملك قال له لا يمكن ان نخرّب من عسقلان حجراً واحداً ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك . وأما البلاد فخدودها معرونة ولا مناصرة فيها وعند ذلك تاهب السلطان للخروج الي جهة العدو وأظهر القوة وشدة العزم على اللقاء *

﴿ ذكر تبريزه رحمة الله عليه ﴾

ولما كان العاشر من رجب بلغ السلطان ان الافرنج رحلوا طالبين نحو بيروت فبرز من القدس الي منزلة يقال لها الجيب وكان قدوم الملك العادل من البلاد النهرانية في بكرة الحادي عشر فدخل الصخرة وصلب عندها ثم توجه يتبع السلطان . ثم ان السلطان رحل من الجيب الي بيت نوبة

وبعث الى العسكر في القدس يحثهم على الخروج والحقاق به ولحقت السلطان في بيت نوبة فاني كنت تخلفت عنه ليلة الاستعداد ثم رحل في يوم الاحد الثالث عشر الى الرملة ضحوة نهاره على تلال بين الرملة ولدّة فأقام بها بقية الأحد . ولما كانت صبيحة الاثنين ركب جريدة حتى أتى بازور وبيت جبرين فأشرف على يافا ثم عاد الى منزله وأقام بها بقية يومه وجمع أرباب مشورته وشاورهم في النزول على يافا واتفق الرأي على ذلك

﴿ ذكر حصار يافا ﴾

ولما كان صباح الثلاثاء خامس عشرة رحل طالبا جهة يافا فقيم عليها ضحوة النهار ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا وكان طرف الميمنة على البحر وطرف الميسرة أيضاً على البحر والسلطان في انوسط وكان صاحب الميمنة الملك الظاهر أعز الله نصره وصاحب الميسرة أخاه الملك المعادل والعساكر فيما بينهما . ولما كان السادس عشر من الشهر زحف الناس اليها واستحقروا أمرها استحقرارا عظيما ثم رتب السلطان الناس للقتال وأحضر المنجنقات وركبها على أضعف موضع في السور مما يلي الباب الشرقي وشرع النقبون في السور وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج واشتد الحزم والزحف فأخذ النقبون النقب من شمالي الباب الشرقي الي الزاوية بطول البدنة وكان قد هدم المسلمون ذلك المكان في الحصار الاول وبناه الافرنج وتمكن النقبون من النقب ودخلوا فلم يشك الناس في أخذ البلد في هذا اليوم هذا وأمر العدو في ازدياد وكان الملك قد توجه من عكا الي بيروت وهذا الذي حمل السلطان على نزوله على يافا ثم انفصل ذلك اليوم عن قتال شديد قد ضرس العدو منه وظهر من العدو من

الشدة والحمية والذئب والمنعة ما اضعف قلوب الناس هذا والنقابون قد تمكنوا من النقب عليهم فلما قارب الفراغ أخذ العدو في خسف النقب عليهم فحسفوه في مواضع عدة وخاف النقابون وخرج منهم جماعة وقتل الناس عن القتال وعلموا أن أمر البلد مشكل وأنه يحتاج الي زيادة عمل في أخذه فعزم السلطان عزم مثله فأمر النقبانين أن يأخذوا النقب في بقية البدنة من البرج الي الباب وأمر المنجنىقات أن تضرب قبالة البدنة المنقوبة ففعلوا ذلك وأقام السلطان في تلك الليلة هناك الى أن مضى من الليل ثلثه وعاد الي الثقل وكان الثقل بعيداً عن البلد على تل قبائته وأصبحت المنجنىقات قد أقيم منها اثنان وأقيم الثالث في بقية النهار وأصبح السلطان على القتال والزحف فلم يجد من الناس الا الفتور بسبب نصب المنجنىقات فلما منهم ان المنجنىق لا يعمل الا بعد أيام . ولما علم السلطان من الناس الفتور والتواكل حماهم على الزحف فالتحم القتال واشتد الأمر وأذاقوا العدو مرّ الحرب فأشرف انباد على الاخذ وانفتحت النفوس وطهمت في ذلك طمأ شديداً وضعف العدو الا انه جرح من المسلمين جماعة بالنشاب والزنبورك من البلد . ولما رأى العدو المخدول ما قد حل به أرسل رسولين نصرانياً وفرنجياً بطالبان الصالح ويتحدثان فيه فطلب السلطان منهم قاعدة القدس وقطيعته فاجابوا الى ذلك واشترطوا ان ينظروا الي يوم السبت الذي هو تاسع عشر رجب فان جاءتهم النجدة والا تمت القادة على ما استقر فابي السلطان الانذار فنادى الرسول ثم رجوا يسألونه الانذار فابي ذلك وقتل الناس عن القتال بسبب تواصل الرسل سكونا الى الدعة على جاري العادة فأمر السلطان النقبانين بحشو النقب بعد انتهائه ففعلوا ذلك ووضعت النار فيه فوق نصف البدنة وكان العدو قد عرف وقوع

النار في النقب وعلم ان ذلك المكان يقع فعمد الي أخشاب عظيمة وهياها
 خاف ذلك المكان فلما وقع ذلك المكان التهب النيران فتمت من الدخول
 الي الثلمة ثم أمر السلطان الناس فزحفوا وضائقوا القوم مضايقة عظيمة فله
 درهم من رجال أقيال ما أشدهم وأعظم بأسهم فانهم مع هذا كله لم يلقوا لها
 بابا ولم يزلوا يقانلون خارج الابواب أعظم قتال حتى فصل الليل بين الطائفتين
 ولم تقدر على البلد في ذلك اليوم بعد حرق النقب في باقى البدنة وضاق
 صدر السلطان لهذا الأمر وتقسّم فكره وندم كيف لم يجبهم الي الصلح وبات
 تلك الليلة في الخيم وقد عزم على أن يقيم تمام خمسة مناجيق تضرب بعضها
 البدنة الضعيفة بسبب النقب والنيران والحسف من جانبهم*

﴿ ذكر فتح يافا وما جرى فيه من الوقائع ﴾

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر رجب أصبحت المنجنقات وقد نصبت
 وحجارتها قد جمعت من الاودية والاماكن البعيدة لعدم الحجر في ذلك
 المكان وظلت ترمي البدنة المنقوبة وزحف السلطان وزحف ولده الملك
 الناهر عز نصره زحفاً شديداً وزحف عسكر الملك الدال من الميسرة فانه
 كان مريضاً وارتفعت الاصوت وضربت الكؤوسات وخفقت البوقات
 ورمت المنجنقات وأحاط بهم الويل واشتد عزم النقبين في ايقاد النار فما
 مضى من النهار ساعتان الا ووقعت البدنة وكان وقعها كوقع الواقعة ونادى
 الناس ألا ان البدنة قد وقعت فلم يبق من له أدنى ايمان الا وزحف . ولا فلب
 من العدو الا أرعد ورجف هذا الزحف وهم على القتال أشد وأحزم .
 وعلى الموت أعز وأكرم . وذلك انها لما وقعت علا لها دخان وغبار . وأظلم
 الافق وعميت عين النهار . وما تجاسر أحد على الولوج خوفاً من اقتحام

النار . فلما انكشفت الظلمة ظهرت أسنة قد نابت مناب الاسوار . ورماح قد سدّت الثلمة حتى غيبت نفوذ الابصار . ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم . وسداد حركاتهم وسكناتهم . ولقد رأيت رجلين على ممشي السور يمتعان المتسلق عليه من جهة الثلمة وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل الي داخل وقام رفيقه مقامه متصدياً لثل ما لحق صاحبه في ساعة أسرع من لمح العيون بحيث لم يفرق بينهما فارق

ولما رأى العدو ما آل الأمر اليه سيروا رسولين الي السلطان يلبثه سون الامان فقال رحمه الله الفارس بالفارس والتركيبي بمثله والراجيل بالراجل والعاجز على قطيعة القدس فنظر الرسول فرأى القتال على الثلمة أشد من إضرام النار فسأل السلطان أن يبطل القتال الي أن يعود فقال لا أقدر على منع المسلمين من هذا الامر ولكن ادخل الي أصحابك فقل لهم يتجاوزوا الي القلعة ويتركوا الناس يشتغلون بالبلد فما بقي دونه مانع فعاد الرسول بهذه الرسالة فأنحاز العدو الي قلعة يافا بعد أن قتل منهم جماعة عظيمة ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالاً كثيرة وأثاثاً وبقايا قماش مما نهب من القافلة المصرية واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان

ولما كان عصر الجمعة المباركة وصل السلطان كتاب من قايمار النجمي وكان في طرف العدو لحمايته من عسكر العدو الذي في عكا يخبر فيه ان الانكثار لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت وعاد الي قصد يافا فاشتد عزم السلطان على تمة الامر وتسلم القلعة ممن لم ير الامان لانه قد لاح أخذهم وكان الناس لهم مدة لم يظفروا من العدو بمنعم ونوبتهم عليه فكان أخذهم عنوة مما يبعث هم السكر غير أن الامان وقع وانفق الصالح فكنت

بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدو من القلعة وتسلمها خوفاً من لحوق
النجدة وكان السلطان يشتهي خروجه غير ان الناس قد أقعدهم التعب عن
اتمام الامر وأخذ منهم الحديد وشدة الحر ودخان النار بحيث لم يتبق لهم استطاعة
على الحركة وأقام السلطان يحثهم الى ان هوي ائيل فلما رأى ما قد نزل بالناس
من التعب ركب وسار الى خيمته الى الثقل وسار الناس الي خدمته ثم نزل في
خيمته وعدت الي خيمتي وعندي من الخوف ما اقلقتني عن النوم

ولما كان سحر تلك الليلة سمعنا بوق الافرنج قد نطق فعلمنا بوصول
النجدة قد وصات في البحر فاستدعاني السلطان من وقته وقال لاشك ان
النجدة قد وصات في البحر وعلى الساحل من عساكر الاسلام من يمنهم
من النزول والمصلحة ان تسير الى الملك الناهر وتقول له ان يقف بظاهر
الباب القبلي وتدخل أنت ومن تراه الى التلعة وتخرجون القوم وتستولون
على ما فيها من الاموال والاسلحة وتكتبها بنظرك الى الملك الظاهر خارج
البلد وهو يسيرها الي ويسير معي لتقوية البلد مع ذلك عز الدين جرديك
وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني فسرت من ساعتى ومعى شمس الدين
عدل الخزانة حتى أتيت الملك الظاهر وهو نائم على شلته على تل قريب
البحر في اليزك وعليه كراغنده وهو بالأمة حربته فلا ضيع الله صنعهم في
نصرة الاسلام فايقظته فقام والنوم في عينيه وسرت في خدمته وهو يستفهم
منى رسالة السلطان حتى وقف حيث أمره ودخلنا نحن الى يافا وأبنا القلعة
وأمرنا الافرنج بالخروج فأجابوا الي ذلك وتهبأوا للخروج.

﴿ ذكر كيفية بقاء القلعة في يد العدو ﴾

ولما أجابوا الى الخروج قال عز الدين جرديك لا يذنبني ان يخرج منهم

أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية ان يتخطفهم الناس وكان الناس قد داخلهم الطمع في البلد وأخذ عز الدين يشتد في ضرب الناس واخراجهم وهم غير مضبوطين بعد ولا محصورين في مكان فكيف يمكن اخراجهم وطال الامر الي أعلا النهار وأنا الرمه وهو لا يرجع عن ذلك والزمان مضى ولما رأيت انوقت كاد يفوت قلت له ان النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في اخراجهم والسلطان قد أوصاني بذلك فلما عرف السبب في حربي اجاب الي اخراجهم ومضينا الي باب القلعة القريب من الباب الذي الملك الظاهر قائم عنده فأخرجنا تسعة وأربعين نفراً بخيولهم ونسائهم وسيرناهم ولما خرج هؤلاء اشتد الباقون وحدثهم نفوسهم بالمصيان وكان سبب خروج من خرجوا أنهم اسنقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا أن لا نجدة لهم فيها ولم يعلموا ان الانكثار مع القوم ورأوهم قد تأخروا عن النزول الى علو النهار فخافوا ان يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا فخرج من خرج ثم بعد ذلك قربت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركباً فقويت نفوس الباقين في الحصن وظهرت عليهم امارات المصيان ودلائله وخرج منهم من أخبرني بتشويش عزمهم وأخذوا الطارقيات والجنويات وعلوا على الاسوار وكانت القلعة جديدة لم تشرف به فلما رأيت الامر قد آل الى ذلك نزلت من التل الذي كنت واقفاً عليه وهو ملاصق لباب القلعة وقلت لعز الدين جرديك وهو مع عسكره في الاسفل مع جمع من الاجناد خذوا حذرکم فقد تغيرت عزائم القوم فما كانت الا ساعة بحيث صرت خارج البلد في خدمة الملك الظاهر الا وقد ركب القوم خيلهم وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد واخرجوا من كان في البلد من الاجناد ولقد ازدحم الناس في الباب حتي كاد يئلف منهم جماعة وبقي في بعض

الكنائس جماعة من اتباع العساكر . مشتغلين بما لا يجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا وسيرني الملك الظاهر الى والده السلطان أعرفه بالخال فامر الجاويش ان ينادي في المسكر وضرب الكوس للقتال ونفر الناس من كل جانب للغزاة وهجموا البلد وحشروا العدو في القلعة فأيقنوا بالبوار واستبطاؤا نزول النجدة اليهم وخافوا خوفا عظيما فإرسلوا بطركهم والقسطلان رسولين الى السلطان يعتذران اليه مما جرى ويسألان القاعدة الاولي نخرجا الي السلطان والقتال يشتد عليهم وكان سبب انقطاع النجدة انهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ورجالهم فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت وكان البحر يمنع من سماع الصوت من كل جانب لكثرة الضجيج والتهليل . فلما رأى من في القلعة شدة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها بلغت نيفا وخمسين مركبا منها خمسة عشر شانياً فيها شاني الملك علموا ان النجدة ظنت ان البلد قد أخذ ووهب واحد نفسه للمسيح وقفز من القلعة الى الميناء وكانت رملا فلم يصبه شيء واشتد عدوا حتى أتى البحر فخرج له شاني وأخذه الي شاني الملك فحدثه بالحديث فلما شعر الانكثار أن القلعة مع أصحابه اندفع يطلب الساحل وكان أول شاني ألقى من فيه بالبرّ شانيه وكان أحمر ورقبته حمراء وبيرقه أحمر فما كانت الاساعة حتى نزل كل من في الشواني الي الميناء هذا كله وأنا أشاهد ذلك ثم حملوا على المسلمين فاندفعوا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء وكان تحتي فرس فسقته الي السلطان وأخبرته الخبر وبين يديه الرسولان وقد أخذ القلم بيده ليكتب لهم الأمان ففرفته في أذنه ما جرى فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث فما كان الاساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان فصاح في الناس فركبوا وقبض على الرسولين وأمر

بترحيل الثقل والاسواق الى بازور فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا يهابوه من يافا لم يقدروا على نقله ورحل الثقل وبقى السلطان جريدة في الليل وبات ليلته هناك وخرج الانكثار الي موضع السلطان الذي كان فيه لضيق البلد وأمر من في القلعة ان يخرجوا اليه معظم سواده فاجتمع به جماعة من المماليك وجرت بينهم احاديث ومجابوات كثيرة

﴿ ذكر حديث الصلح ﴾

ثم طلب الحاجب ابا بكر العادلي وحضر عندهم ابيك العزيزى وسنقر المشطوبى وغيرهم وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ودخل معهم دخولا عظيما بحيث كانوا يجتمعون به في اوقات متعددة وكان قد صادق من الامراء جماعة كبدر الدين دلدرم وغيره فلما حضر هذا الجمع عنده جد وهزل ومن جملة ما قاله هذا السلطان عظيم وما في هذه الارض للاسلام اكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي والله ما لبست لأمة حرب ولا تأهبت لأمر وليس في رجلي الارذول البحر فكيف تاخر * ثم قال والله العظيم الكريم ما ظننت انه ياخذ يافا في شهرين فكيف أخذها في يومين . ثم قال لابي بكر سلم على السلطان وقل له بالله عليك أجب سؤالي في الصلح فهذا الامر لا بد له من آخر وقد هلكت بلادى وراء البحر وما في دوام هذا مصلحة لنا ولا لكم ثم انفصلوا عنه وحضر أبو بكر عند السلطان وعرفه ما قال وكان ذلك في أواخر يوم السبت تاسع عشر شهر رجب فلما سمع السلطان ذلك أحضر أرباب المشورة وانفصل الحال على ان الجواب هو « انك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة وكان الحديث في يافا وعسقلان والآن قد خربت يافا فيكون

لك من صور الي قيسارية « فضى اليه وعرفه ما قال فردده اليه ومنه رسول
افرنجي وقال يقول الملك « ان قاعدة الافرنج انه اذا أعطى واحد لواحد بلداً
صار تبعه وغلामه وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان وتكون
عساكرهما في خدمتك دائماً واذا احتجت اليّ وصلت اليك في أسرع
وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي ». فكان جواب السلطان « حيث دخلت هذا
المدخل فانا أجيبك بان نجعل هذين البلدين قسمين أحدهما لك وهو يافا وما
وراءها والثاني لى وهو عسقلان وما وراءها » ثم سار الرسولان ورحل
السلطان الي الثقل وكان المخيم بازور ورتب النقبان لذلك واليزك عندهم
وسار حتي أتى الرملة فخيم بها يوم الاحد العشرين من رجب ووصل اليه
الرسول مع الحاجب أبي بكر فأمر باكرامه والاحسان اليه وكانت رسالته
الشكر من الملك على اعطائه يافا وتجديد السؤال في عسقلان ويقول انه ان
وقع الصلح في هذه الايام سار الي بلاده ولا يحتاج أن يشتي هاهنا فأجابه
السلطان في الحال بقوله « أما النزول عن عسقلان فلا سبيل اليه وأما تشتيه
هاهنا فلا بد منها لانه قد استولي على هذه البلاد ويعلم انه متى غاب عنها
أخذت بالضرورة كما تؤخذ أيضاً اذا أقام ان شاء الله تعالى . واذا سهل عليه
ان يشتي هاهنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنقوان
شبابه ووقت اقتناص لذاته أفلا سهل على أن أشتي وأصيف وأنا في وسط
بلادى وعندى أولادى وأهلي ويأتى اليّ ما أريد وأنا رجل شيخ قد كرهت
لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني والعسكر الذي يكون عندي في
الشتاء غير العسكر الذي يكون عندي في الصيف وأنا أعتقد أني في أعظم
العبادات ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء » * فلما سمع الرسول

ذلك طلب أن يجتمع بالملك العادل فأذن له في ذلك فسار الى خيمته وكان قد تاخر بسبب مرض اعتراه الي موضع يقال له صمويل فسار الرسول اليه مع جماعة ثم بلغ السلطان ان عسكر العدو قد رحل من عكا قاصداً يافا للانجاد فجمع أرباب الرأي وعقد مشورة في قصدهم فاتفق الرأي على أنهم يقصدونهم ويرحل بالثقل الي الجبل ويقصدونهم جريدة فان لاحت فرصة انتهبوها والا رجعوا عنهم وهذا أولي من أن نصبر حتى تجتمع عساكر العدو ونرحل الي الجبل في صورة منهزمين وأما اذا وصلنا الآن ففي صورة طالبين فأمر السلطان الثقل أن يسير الي الجبل عشية الاثنين الحادى والعشرين من رجب وسار هو جريدة في صبيحة يوم الثلاثاء حتى نزل على العوجاء ووصل اليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل عليها ولم يبق فيه طمع وبلغه أن الانكسار قد نزل خارج يافا في نفر يسير بنحيم قليلة فوقع له أن ينتهب فيه الفرصة ويكبس خيمه وينال منهم غرضاً وعزم على ذلك وسار من أول الليل والادلة من العرب تتقدمه وهو يقطع الطريق الي أن أتى في الصباح الي خيام العدو فوجدها تقريباً عشر خيم فداخله الطمع وحملوا حملة الرجل الواحد نثبتوا في أماكنهم وكشروا عن أياب الحرب فوجئوا من ثباتهم ودار العسكر حلقة واحدة

ولقد حكي لى بعض الحاضرين فاني كنت تأخرت مع الثقل ولم أحضر هذه الواقعة لالتيات مزاجى أن عدة الخيل كان يحزرها المكثر سبعة عشر والمقل تسعة والرجال دون الالف فمن قائل ثلاثمائة ومن قائل أكثر من ذلك فوجد السلطان من ذلك مغنيظة عظيمة ودار على الاطلاع يحشها فلم يجب دعاءه سوى ولده الملك الظاهر وقال له الجناح أخو المشطوب قل

لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة وكان في قلوب
المسكر من صلح يافا حيث فوتوهم الغنيمة ما كان وجري ماجري ما أثر هذا
الاثر . فلما رأى السلطان ذلك رأى أن وقوفه في مقابلة هذه الشردمة
اليسيرة من غير عمل خسة في حقه وقد بلغني أن الانكثار أخذ رحمه ذلك
اليوم وحمل من طرف الميمنة الى طرف اليسيرة فلم يتعرض له أحد فغضب
السلطان ثم أعرض عن القتال وسار حتى أتى بازور كالمغضب ونزل بها وذلك
في يوم الاربعاء الثالث والعشرين من رجب وبات المسكر باليزك ثم أصبح
يوم الخميس فسار الى النطرون ونزل به وأنفذ الي المسكر فأحضره عنده
فوصلنا اليه آخر نهار الخميس الرابع والعشرين فبات به ثم أصبح يوم الجمعة
فسار الى أخيه العادل يفتقده ودخل القدس وصلي الجمعة ونظر العمار ورتبها
ثم عاد من يومه الى الثقل وبات فيه على النطرون

﴿ ذكر قدوم المسكر ﴾

كان أول من وصل علاء الدين بن أتابك صاحب الموصل وكان وصوله
ضياء نهار السبت السادس والعشرين من رجب فلقبه السلطان عن بعد
واحترمه وأكرمه وأنزله عنده في الخيمة وعمل همة حسنة وقدم له تقدمة
جميلة ثم سار الي خيمته

وأما رسول الملك فانه عاد في هذا اليوم فان الملك العادل قد حملة
رسالة مشافهة الي الملك وعاد مع الحاجب أبي بكر الي يافا فعاد أبو بكر وحضر عند
السلطان في ذلك اليوم وأخبره أن الملك لم يتركني أدخل يافا وخرج الي وكلمني
في ظاهرها وكان كلامه الي كم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني
وأنا كنت أحرص أن أعود الي بلادى والآن قد هجم الشتاء وتغيرت الانواء

وقد عازمت على الإقامة وما تبقى بيننا حديث هكذا كان جوابه خذله الله تعالى
ولما كان يوم الخميس تاسع شعبان قدم عسكر مصر فخرج السلطان
الى لقاءهم وكان فيهم مجد الدين هلدري وسيف الدين يازكج وجماعة الاسدية
وكان في خدمته الملك المؤيد مسعود وقد أظهروا الزينة ونشروا الاعلام
والبيارق فكان يوما مشهودا ثم أنزلهم عنده ومد الخوان ثم ساروا الى
منازلهم

﴿ ذكر قدوم الملك المنصور ابن تقي الدين رحمه الله ﴾

وكان قد تسلم البلاد التي وعد بها وكان وصوله الى خدمة الملك العادل
في يوم السبت حادي عشر شعبان فنزل عنده بماء صوبل وافتقده وكتب
الملك العادل في ذلك اليوم الى السلطان يخبره بوصوله وسأله في احترامه
وإكرامه واطلاق الرحمة له . ولما تحقق الملك الظاهر وصول الملك المنصور
استأذن والده في لقائه وافتقاد الملك العادل فأذن له في ذلك فسار فوجد الملك
المنصور مخيما ببيت نوبة فنزل عنده وخرج الى لقائه وأقام عنده الى العصر
وذلك في يوم الاحد ثم أخذه وسار به جريدة حتى أتى خيمة السلطان ونحن
في خدمته فدخل عليه فاحترمه ونهض اليه واعتنقه وضه الى صدره ثم
غشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الامر وغشيه من البكاء ما لم ير مثله فبكي
الناس لبكائه ساعة زمانية ثم باسطه وسأله عن الطريق ثم انفصل وبات في
خيمة الملك الظاهر الى صبيحة الاثنين ثم ركب وعاد الى عسكره ونشروا
الاعلام والبيارق وكان معه عسكر جليل فقرت عين السلطان ونزل في
مقدمة العسكر مما يلي الرملة



﴿ ذكر رحيله رحمه الله الى الرملة ﴾

وذلك أنه لما رأى الساکر قد اجتمعت جمع أرباب الرأى وقال ان
الانكتار قد مرض مرضاً شديداً والافرنيسية قد ساروا راجعين ليبروا
البحر من غير شك ونفقاتهم قد قلت وهذا العدو قد أمكن الله منه وأرى
أن نسير الى يافا فان وجدنا فيها مطعماً بلتناه والآن عدنا تحت الليل الى عسقلان
فما تلحقنا النجدة الا وقد نلنا منها غرضاً فرأوا ذلك رأياً . وتقدم الى جماعة
من الامراء كرز الدين جرديك وجمال الدين فرج وغيرهما بالمسير في ليلة
الخميس سادس عشر شعبان حتى يكونوا قريباً من يافا في صورة يرك
يستطلعون كم فيها من الخيالة والرجالة بالجواسيس ثم يعرفونه ذلك فساروا .
هذا ورسل الانكتار لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج ووقع عليه في مرضه
شهوة الكمثرى والخوخ فكان السلطان يمدّه بذلك ويقصد كشف الاخبار
بتواتر الرسل والذي انكشف من الاخبار ان فيها ثلاثمائة فارس على قول
المكثر ومثني فارس على قول المقل وان الكندهري يتردّد بينه وبين
الفرنيسية في مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولاً واحداً وأنهم لا
عناية لهم بسور البلد وانما عنايتهم بمهارة سور القلعة وكان الانكتار قد طالب
الحاجب أبا بكر العادلى وكان له معه انبساط عظيم . فلما تحقق السلطان الاخبار
أصبح يوم الخميس راحلاً الى جهة الرملة فنزل بها ضاحي نهار ووصل الخبر
من المغيرين يقولون انا أغرنا على يافا فلم يخرج الا نحو ثلاثمائة فارس معظمهم
على بغال فأمرهم السلطان بمقامهم هناك ثم وصل الحاجب أبو بكر ومعه
رسول من عند الملك يشكر السلطان على انعامه بالقواكه والثلج وذكر أبو بكر
انه تفرد به وقال له قل لأخي الملك العادل يبصر كيف يتوصل الي

السلطان في معنى الصلح ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي أنا ويبقى هو في هذه الشردمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم فليس لي غرض الإقامة جاهي بين الافرنج وان لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لي منه عوضا عن خسارتي على عمارة سورها

فلماسع السلطان ذلك سيرهم الي الملك العادل وأسّر الي ثقة عنده أن يمضي الي الملك العادل ويقول له ان نزلوا عن عسقلان فصالحهم فان العسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار والنفقات قد نفدت فسار ضحى الجمعة سابع عشر شعبان

﴿ ذكر الاجابة الي النزول عن عسقلان ﴾

ولما كان غروب الشمس من اليوم المذكور انفذ بدر الدين دلدرم من اليزك يقول انه قد خرج الينا خمسة أنفس منهم شخص مقدم عند الملك يسمى هوات وذكروا أن لهم معنا حديثا فهل أسمع حديثهم أولا فاذن له السلطان في ذلك ولما كانت العشاء الآخرة حضر بدر الدين بنفسه وأخبر ان حديثهم كان أن الملك قد نزل عن عسقلان وعن طلب العوض عنها وقد صح مقصوده في الصلح فأعاده السلطان ثانية لينفذ اليه ثقة يأخذ يده على ذلك ويقول ان السلطان قد جمع العساكر وما يمكنني ان أحدثه هذا الحديث الا بأن أثق انك لا ترجع وبعد ذلك أحدثه وسار بدر الدين على هذه القاعدة وكتب الي الملك العادل يخبره بما جري

ولما كان يوم السبت ثامن عشر شعبان أنفذ بدر الدين وذكر أنه أخذ يده على هذه القاعدة بمن يثق به وأن حدود البلاد على ما استقر في الدفعة الاولى مع الملك العادل فأحضر السلطان الديوان فذكروا يافا وأعمالها وأخرج

الرملة وبيننا ومجدل يابا ثم ذكر قيسارية وأعمالها وأرسوف وأعمالها وحينفا وأعمالها وعكا وأعمالها وأخرج منها الناصرة وصفورية وأثبت الجميع في ورفرة وكتب جواب الكتاب وانفذه على يد طرنطاي مع الرسول وكان قد وصل الرسول لتحرير القاعدة مع بدر الدين في عصر السبت وقال للرسول هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فان صالحتم على ذلك فبارك قد اعطيتم يدي ولينفذ الملك من يحاف ويكون ذلك في غداة غد والا فيعلم أن هذا تدفيع ومماطة ويكون الامر قد انفصل من بيننا وساروا في بكرة الأحد على هذه القاعدة

ولما كانت العشاء الآخرة يوم الأحد وصل من أخبر بوصول طرنطاي ومعه الرسول واستأذن في حضورها فاذن رحمه الله في حضور طرنطاي وحده فذكر أن الملك قد وقف على تلك الرقعة وأنكر انه نزل عن العوض فاذكره الجماعة الذين خرجوا الي بين يدي دلدرم أنه نزل عن ذلك فقال اذن أنا قلته فلا أرجع عنه . قولوا للسلطان مبارك رضيت بهذه القاعدة وقد رجعت الي مروءتك فان زدتنى شيئاً فمن فضلك وانعامك . ثم سار وأحضر الرسل ليلاً وأقاموا الي بكرة وحضروا عند السلطان بكرة الاثنين فذكروا ما استقر عن صاحبهم ثم انفصلوا الي خيمهم وحضر عند السلطان أرباب المشورة واستقر الامر وانفصلت القاعدة وسار الامير بدر الدين دلدرم الي الملك العادل وأخذ الرسل معه في صورة من يسأل في زيادة الرملة وعاد في عشاء الآخرة ليلة الاثنين وكتبت المواضع وذكر فيها شروط الصلح ثلاث سنين من تاريخها وهو الاربعاء الثاني والعشرون من شعبان سنة ثمانية وثمانين وخمسمائة ويزاد فيها الرملة لهم ولداً أيضاً وسير العبد

وقال له ان قدرت ان ترضيهم بأحد الموضوعين أو مناصتتهما فافعل ولا يكون لهم حديث في الجلبيات ورأي السلطان ذلك مصلحة لماعرا الناس من الضعف وفلة النفقات والشوق الي الاوطان ولما شاهده من تقاعدهم عن يافا يوم أمرهم بالحملة فلم يحملوا بخاف أن يحتاج اليهم فلم يجدهم فرأي أن يجيهم مدة حتى يستريحوا ويتبعوا غير هذه الحالة التي صاروا اليها ويعمر البلاد ويشحن القدس بما يقدر عليه من الآلة ويتفرغ لعمارتها *

وكان من القاعدة ان عسقلان تكون خرابا وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها خشية أن نأخذها عامرة فلا نخربها ففضى العدل على هذه القاعدة واشترط دخول البلاد الاسلامية واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس في الصالح على قاعدة آخر صلح صالحناهم عليه واستقر الحال على ذلك وسارت الرسل وحكم عليهم ان لا بد من فصل الحال إما الصلح وإما الخصومة خشية أن يكون هذا الحديث من قبيل أحاديثه السابقة ومدافعاته المعروفة *

وفي ذلك اليوم وصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط ببذل الطاعة والموافقة وسير العساكر وحضر رسول الكرج وذكر فصلا في معنى الزيادات التي لهم في القدس وعمارتها وشكوا أنها أخذت من أيديهم ويسأل عواطف السلطان أن يردها الي نوابهم ورسول صاحب أرزن الروم ببذل الطاعة والمبودية

﴿ ذكر تمام الصلح ﴾

ولما وصل العدل الي هناك انزل خارج البلد في خيمة حتى أعلم الملك به فلما علم به استحضره عنده مع بقية الجماعة وعرض العدل عليه النسخة وهو

مريض الجسم فقال لا طاقة لى بالوقوف عليها وانا قد صالحت وهذه يدي
فاجتمعوا بالكندهرى والجماعة وأوقفوهم على النسخة ورضوا بلد والرملة
مناصفة وبجميع ما في النسخة واستقرت القاعدة أنهم يحلزون بكرة يوم
الاربعاء لانهم كانوا قد أكلوا شيئاً وليس من عادتهم الحلف بعد الاكل وأنفذ
العدل الى السلطان من عرفه ذلك

ولما كان يوم الاربعاء الثانى والعشرون من شعبان حضر الجماعة عند
الملك وأخذوا يده وعاهدوه واعتذر أن الملوك لا يحلفون وقنع السلطان
بذلك ثم حلف الجماعة والمستحلف الكندهرى ابن اخته المستخلف عنه في
الساحل وبالبيان بن بارزان صاحب طبرية ورضى الاسبتار والداوية وسائر
مقدمى الافرنجية بذلك وساروا بقية يومهم عائدين الى المخيم السلطاني فوصلوا
العشاء الآخرة وكان الواصلون من جانبهم ابن الهنرى وابن بارزان وجماعة
من مقدميهم فاحترموا واكرموا وضربت لهم خيمة تليق بهم وحضر
العدل وحكى ماجرى

ولما كانت صبيحة الثالث والعشرين حضر الرسل في خدمة السلطان
وأخذوا بيده الكريمة وعاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة واقترحوا
حلف جماعة وهم الملك العادل والملك الافضل والملك الظاهر عز نصرهم
والمشطوب وبدر الدين دلدرد والملك المنصور ومن كان مجاوراً لبلادهم كابن
المقدم وصاحب شيزر وغيرهم فوعدهم السلطان ان يسير معهم رسالا الى
الجماعة المجاورين ليحلفوهم لهم وحلف لصاحب انطاكية وطرابلس وعلق
اليمن بشرط حلفهم للمسلمين فان لم يحلفوا فلا يدخلوا فى الصلح
ثم أمر المنادى أن ينادى فى الوطاقات والاسواق ألا ان الصلح قد

انتظم في سائر بلادهم فمن شاء من بلادهم ان يدخل الى بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا ان يدخل الى بلادهم فليفعل وأشار رحمة الله عليه أن طريق الحج قد فتح من الشام ووقع له عزم على الحج في ذلك المجلس وكنت حاضراً ذلك جميعه وأمر السلطان أن تسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير ولاخراج الافرنج منها ويكون معهم جماعة من الافرنج الى حين وقوع الحراب في السور خشية استبقائه عامراً . وكان يوم مشهوداً غشى الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور ما لا يعلمه الا الله تعالى . والله العظيم ان الصلح لم يكن من ايثاره فانه قال لي في بعض محاوراته في الصلح أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني فيقوى هذا العدو وقد بقيت لهم هذه البلاد فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلعته يعني حصنه وقال لا أنزل فيهلك المسلمون . هذا كلامه وكان كما قال لكنه رأى المصلحة في الصلح لسامة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة وكانت مصلحة في علم الله تعالى فانه اتفقت وفاته بعيد الصلح ولو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر فما كان الصلح الا توفيقاً وسعادة له *

﴿ ذكر خراب عسقلان ﴾

ولما كان الخامس والعشرون من شعبان نذب السلطان علم الدين قيصر الى خراب عسقلان وسير معه جماعة من النقبابين والحجارين واستقران الملك ينفذ من يافا من يسير معه ليقف على التخريب ويخرج الافرنج منها فوصلوا اليها من الغد فلما أرادوا التخريب اعتذرا لاجناد الذين بها بان لنا على الملك جامكية لمدة فاما ان يدفعها لنا ونخرج أو ادفعوها أتم لنا فوصل

بعد ذلك رسول الملك يأمرهم بالخروج فخرجوا ووقع التخريب فيها في السابع والعشرين من شعبان واستمر يخرّبها وكتب على الجماعة رقاعا بالمعونة على التخريب وأعطى كل واحد قطعة معلومة في السور وقيل له دستورك في تخريبها *

ولما كان التاسع والعشرون رحل السلطان الي النظرون واختلط العسكران وذهب جماعة من المسلمين الي يافا في طلب التجارة ووصل خلق عظيم من العدو الي القدس للحج وفتح لهم السلطان الباب وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردهم الي يافا وكثر ذلك من الافرنج وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا غرضهم من الزيارة ويرجعوا الي بلادهم فيأمن المسلمون من شرهم *

ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسير الي السلطان يسأله منع الزوار واقترح أن لا يؤذن لهم الا بعد حضور علامة من جانبه أو كتابة وعلمت الافرنج ذلك فعظم عليهم واهتموا في الحج فكان يرد منهم في كل يوم جموع كثيرة مقدمون وأسباط وملوك متنكرون وشرع السلطان في أكرام من يرد ومدّ الطعام ومباسطهم ومحادثتهم وعرفهم انكار الملك ذلك وأذن لهم السلطان في الحج وعرفهم أنه لم يلتفت الي منع الملك من ذلك واعتذر الي الملك بان قومًا قد وصلوا من بعد ذلك لزيارة هذا المكان الشريف فلا أستحل منهم ثم اشتد المرض بالملك فرحل في ليلة التاسع والعشرين وسار هو والكندهرى وسائر العدو الي جانب عكا ولم يبق في يافا الا مريض أو عاجز ونفر يسير *



﴿ ذكر عود العساكر الاسلامية الي اوطانهم ﴾

ولما انقضى هذا الامر واسه تقمرت القواعد أعطى السلطان الناس دستورا وكان أول من سار عسكر اربل فانه سار في مستهل شهر رمضان المبارك ثم سار بعده في ثانيه عسكر الموصل وسنجار والحصن وأشاع أمر الحج وقوى عزمه على براءة الذمة وكان هذا مما وقع لي وبدأت بالإشارة به فوقع منه موقعا عظيما وأمر الديوان وكل من عزم على الحج من المسكر أن يثبت اسمه حتى يحصر عدة من يدخل معنا في الطريق وكتب جرائد بما يحتاج اليه في الطريق من الخلع والازواد وغيرها وسيرها الى البلاد ليعدوها .

ولما أعطى الناس دستورا وعلم عود العدو قد رجع الي ورائه رأى الدخول الى القدس الشريف لتهيئة أسباب عمارته والنظر في مصالحه والتأهب للمسير الى الحج فرحل من النظرون يوم الاحد رابع شهر رمضان وسار حتى أتى ماء صمويل يفتقد الملك العادل فوجده قد سار الي القدس وكنت عنده رسولا من جانب السلطان أنا والامير بدر الدين دلدرم والعدل وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب مرضه وكان قد تماثل فعرفناه مجيء السلطان الي ماء صمويل لعميادته فحمل على نفسه وسار معنا حتى لقيه في ذلك المكان وهو أول وصوله الى ماء صمويل ولم ينزل بعد فلقينه ونزل وقبل الارض وعاد فركب فاستدناه وسأله عن مزاجه وسارا جميعا حتى أتيا القدس الشريف في بقية ذلك اليوم .

﴿ ذكر وصول رسول من بغداد ﴾

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرون من شهر رمضان صلي الملك

العاذل الجمعة وانصرف الي الكرك عن دستور من السلطان لينظر في أحواله ويعود الي البلاد الشرقية يدبرها فانه كان قد أخذها من السلطان وكان قد ودع السلطان فلما وصل العازرية نزل بها مخيما فوصله من أخبر أن رسولا من بغداد واصل اليك فانفذ الي السلطان وعرفه فذكر له أن يجتمع ويطلع ما وصل فيه فلما كان السبت الرابع والعشرون دخل الي الخدمة السلطانية وذكر أن الرسول قد وصل اليه من جانب ابن النافذ بعد ان ولي نيابة الوزارة ببغداد ومقصود الكتاب أنه يحثه على استعفاف قاب السلطان الي لخدمة الشريفة والدخول بينه وبين الديوان العزيز والانكار عليه بتأخر رسله عن العتبة الشريفة واقترح تسبير القاضي الفاضل ليحضر الديوان العزيز في تقرير قاعدة تتحرر بينه وبين السلطان لابد منها وقد وعد الملك العادل من الديوان بوعود عظيمة اذا قرر ذلك وتكون له يد عند الديوان يستثمرها فيما بعد وما يشبه هذا الفن فحدثت عند السلطان فكرة في انفاذ رسول يسمع كلام الديوان ويستعلم سبب دخول الملك العادل في البين وزاد الحديث، ونقص وطال وقصر وقوى العزم السلطاني على إنفاذ الضياء الشهرزوري وعاد الملك العادل الي مخيمه بالعازرية بعد تقرير هذه القاعدة وعرفه اجابة السلطان الي انفاذ رسول الي خدمة الديوان العزيز وسار يوم الاثنين طالبا جهة الكرك وسار الضياء متوجها الي بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان

﴿ ذكر توجه ولده الملك الظاهر الي بلاده ووحشة السلطان له ﴾

ولما كانت بكرة التاسع والعشرين توجه الملك الظاهر عز نصره بعد ان ودعه ونزل الي الصخرة فصلى عندها وسأل الله تعالي ماشاء ثم ركب

وركبت في خدمته فقال لي قد تذكرت أمراً أحتاج فيه الى مراجعة السلطان مشافهة فأنفذ من استأذن له العود الي خدمته فأذن له في ذلك فحضر واستحضرني وأخلي المكان ثم قال له أوصيك بتقوي الله تعالي فانها رأس كل خير وأمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فان الدم لا ينام وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم فأت أميني وأمين الله عليهم وأوصيك بحفظ قلوب الامراء وأرباب الدولة والا كابر فما بلغت ما بلغت إلا بمدارة الناس ولا تحمد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد واحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يغفر الا برضاهم وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك اليه فانه كريم . وكان ذلك بعد أن انصرفنا من خدمته ومضى من الليل ماشاء الله أن يمضي وهذا ما أمكنتني حكايته وضبطه ولم يزل بين يديه الى قريب السحر ثم أذن له في الانصراف ونهض ليودعه فقبل وجهه ومسح على رأسه وانصرف في دعة الله ونام في برج الخشب الذي للسلطان وكنا نجلس عنده في الاحيان الى بكرة وانصرفت في خدمته الى بعض الطريق وودعته وسار في حفظ الله

ثم سير الملك الافضل ثقله وأقام يراجع السلطان على لسانى في أشغال كانت له حتى دخل في شوال أربعة أيام وسار في ليلة الخامس منه نصف الليل عن تعتب عليه جريدة على طريق الغور

﴿ ذكر مسيره رحمه الله من القدس الشريف ﴾

وأقام السلطان يقطع الناس ويعطيهم دستورا ويتأهب للمسير الى الديار

المصرية وانقطع شوقه عن الحج وكان من اكبر المصالح التي فاتته ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب الانكثار متوجها الى بلاده مستهل شوال فعند ذلك حرر السلطان عزمه على ان يدخل الساحل جريدة وينتقد القلاع البحرية الى باناس ويدخل دمشق المحروسة يقيم بها أياماً قلائل ويود الى القدس الشريف سائراً الى الديار المصرية ينتقداً حوالها ويقرر قواعدها وينظر في مصالحها وأمرني بالمقام في القدس الشريف لعمارة بیمارستان انشاء فيه وادارة المدرسة التي انشأها فيه الي حين عوده وسار من القدس الشريف ضحوة نهار الخميس سادس شوال وودعته الي البيرة ونزل بها واكل فيها الطعام ثم أتى بهض طريق نابلس فبات فيه ثم أتى نابلس ضحوة نهار الجمعة سابع شوال فلقبه خلق عظيم يستغيثون من المشطوب ويتضورون من سوء رعايته لهم فقام يكشف عن أحوالهم الي عصر يوم السبت ثم رحل ونزل بسبسطية ينتقداً حوالها ثم أتى في طريقه الي كوكب ونظر في أحوالها وسد خلالها وذلك في يوم الاثنين عاشره وكان فككاً بهاء الدين قراقوش من رتبة الاسر يوم الثلاثاء حادي عشر شوال ومثل في الخدمة السلطانية ففرح به فرحاً شديداً وكانت له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام واستأذن السلطان في المسير الي تحصيل القطيعة فاذن له في ذلك وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفاً والله أعلم *

ولما وصل السلطان الي بيروت وصل الي خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفداً فبالغ في احترامه وكرامه ومبساطته وأنتم عليه بالعمق وزرعان ومزارع تنهل خمسة عشر الف دينار. وكان قد خلف المشطوب في القدس من جملة العسكر المقيمين به ولم يكن واليه وإنما كان واليه عز الدين جرديك وكان ولاه بعد الصلح حالة عوده الي القدس بعد أن شاور فيه الملك

العادل والملك الافضل والملك الظاهر على لساني وأشار به أهل الدين والصلاح
لانه كان كثير الجسد والخدمة والحفظ لاهل الخير فامرني السلطان أن أوليه
ذلك في يوم الجمعة عند الصخرة ووليته اياه بعد صلاة الجمعة واشترطت عليه
الامانة وعرفته موضع حسن اعتقاد السلطان فيه وانقد الامر وقام به القيام
المرضي . وأما المشطوب فانه كان مقبياً بالقدس من جملة من كان مقبياً بها
وتوفي يوم الاحد الثالث والعشرين من شوال ودفن في داره بعد ان صلى عليه في
المسجد الاقصى رحمه الله *

ذكر عود السلطان الى دمشق المحروسة

وكان عوده اليها بعد الفراغ من تصحيح احوال القلاع الساحلية بأسرها
والتقدم بسد خللها واصلاح أمور أجنادها وشحنها بالاجناد والرجال ودخل
دمشق بكرة الاربعاء السادس والعشرين من شوال وفيها أولاده الملك
الافضل والملك الظاهر والملك الظافر وأولاده الصغار وكان يجب البلد وبؤثر
الاقامة فيه على سائر البلاد وجلس للناس في بكرة الخميس السابع والعشرين
منه وحضر الناس عنده وبلوا شوقهم من رؤيته وانشده الشعراء وعم ذلك
المجلس الخاص والعام وأنام يأنر جناح عدله . ويهطل سحاب انعامه وفضله
ويكشف مظالم الرعايا في الاوقات المتتادة حتي كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة
اتخذ الملك الافضل دعوة للملك الظاهر فانه لما وصل الي دمشق بلغه حركة
السلطان اليها فاقام حتي يتلى بالنظر اليه ثانياً وكان نفسه الشريفة كانت قد
أحست بدنو أجل السلطان فودعه في تلك الليلة مراراً متعددة وهو يعود
اليه . ولما اتخذ الملك الافضل له دعوة أظهر فيها من بديع التجميل وغريبه
مايليق بهمته وكانه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصوله الي حلب وحضرها

أرباب الدنيا وابناء الآخرة وسأل السلطان الحضور فحضر جبراً لقلبه *

﴿ ذكر قدوم الملك العادل أخيه ﴾

ولما تصفح الملك العادل أخبار الكرك وأمر باصلاح ما قصد اصلاحه منه عاد طالبا البلاد القراتية فوصل أرض دمشق يوم الاربعاء سابع عشر ذى القعدة وكان السلطان قد خرج الى لقائه وأقام يتصيد حوالي عباب الي الكسوة حتى لقيه وسارا جميعاً وكان دخولهما الى دمشق آخر نهار الاحد الحادى والعشرين وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويترجون فى أرض دمشق وهوطن الظباء وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب وسهر الليل ونصب النهار وما كان ذلك الا كالوداع لأولاده ومرايع تنزهه وهو لا يشعر ونسي عزمه المصري وعرضت له أمور أخرى وعزمات غير ذلك ووصلني كتابه الي القدس يستدعيني الي خدمته وكان شتاء شديد ووحل عظيم فخرجت من القدس الشريف في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين وكان الوصول الي دمشق يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر سنة تسع وكان وصل أوائل الحج على طرقت دمشق واتفق حضورى والملك الافضل حاضر فى الايوان الشمالى وفي خدمته خلق من الامراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس الساطان لخدمته فلما شعر بحضورى استحضرنى وهو وحدد قبل أن يدخل اليه أحد فدخات عليه فقام ولقيني لقاء ما رأيت أشد من بشره بى فيه ولقد ضمنى اليه ودمعت عينه



﴿ ذكر لقائه للحاج ﴾

ولما كان يوم الاربعاء ثالث عشر صفر طلبني فحضرت عنده فسألني
 عنن في الايوان فأخبرته أن الملك الافضل جالس في الخدمة والامراء والناس
 في خدمته فاعتذر اليهم على لسان جمال الدولة اقبال . ولما كانت بكرة الخميس
 استحضرتني فحضرت عنده في صفة البستان وعنده أولاده الصغار فسأل عن
 الحاضرين فقبل له رسل الافرنج وجماعة الامراء والاكابر فاستحضر رسل
 الافرنج الي ذلك المكان فحضروا وكان له ولد صغير وكان كثيرا ما يميل اليه
 يسمى الامير وكان حاضرا وهو يداعبه فلما وقع بصره على الافرنج ورأى
 أشكالهم وحلتى لحاهم وقص شعورهم وما عليهم من الثياب غير المألوفة خاف
 منهم وبكى فاعتذر اليهم وصرفهم بعد ان حضروا ولم يسمع كلامهم وقال ان لي
 اليوم شغلا وكان عادته المباشطة ثم قال احضروا لنا ما تيسر فاحضروا أرزا
 بلبن وما شابه ذلك من الاطعمة الخفيفة فاكل وكنت أظن أنه ما عنده شهوة
 وكان في هذه الايام يعتذر الي الناس لثقل الحركة عليه وكان بدنه ملتانا ممتلئا
 وعنده كسل فلما فرغنا من الطعام قال ما الذي عندك من خبر الحاج فقلت
 اجتمعت بجماعة منهم في الطربق ولولا كثرة الوحل له دخلوا اليوم ولكنهم غدا
 يدخلون فقال نخرج ان شاء الله الي لقاءهم وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه
 فانها سنة كثيرة الانداء وقد سالت المياه في الطرق والانهار وانفصلت من
 خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما كنت أعرفه ثم ركب في بكرة الجمعة
 وتأخرت عنه فايلا ثم لقيته وقد لقي الحاج وكان فيهم سابق الدين وقرالا
 الباروقي وكان كثير الاحترام للمشايخ فلقيتهم ثم لحقه الملك الافضل وأخذ
 يحدثنى فنظرت الي السلطان فلم أجد عليه كراغنده وما كان له عادة يركب

بدونه وكان يوما عظيما قد اجتمع فيه للقاء السلطان والتفرج عليه معظم من في البلد فلم أجد الصبر دون أن سرت الي جانبه وحدثته في اهمال هذا فكانه استيةظا. فطلب الكزاعند فلم يوجد الزرد كماش فوجدت لذلك أمرا عظيما وفات في نفسى السلطان يطاب ما لا بد منه في عادته ولا يجده ووقع في قلبي تطير بذلك فقلت له أليس ثم طريق نسله ليس فيه خلق كثير يقال بلي ثم سار بين البساتين فطلب جهة المنيع وسرنا في خدمته وقلبي يرعد لما قد وقع فيه من الخوف عليه فسار حتى أتى القلعة فعبّر على الجسر الي القلعة وهو طريقه المعتاد وكانت آخر ركوبه

﴿ مرضه رحمة الله عليه ﴾

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما فما انتصف الليل حتى غشيته حتى صفر اوية كانت في باطنه أكثر من ظاهره وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلا عليه أثر الحمي ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل ودخل ولده الملك الافضل وطال جاوسنا عنده وأخذ يشكو من فلقه في الليل وطاب له الحديث الي قريب الظاهر ثم انصرفنا والقاب عنده فتقدم الينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الافضل ولم يكن القاضي عادته ذلك فانصرف ودخلت أنا الي الايوان وقد مدت الطعام والملك الافضل قد جلس في موضعه فانصرفت وما كان لي قوة على الجلوس استيحا شاو بكي جماعة تفاعلا بجاوس ولده في موضعه ثم أخذ المرض في تزايد من حيثئذ ونحن لازم الزرد طرفي النهار وندخل اليه أنا والقاضي الناضل في النهار مرارا ويعطي الطربق في بعض الايام التي يجد فيها خفة وكان مرضه في رأسه وكان من أمارات انتهاء العمر اذ كان قد ألف

مزاجه سفرا وحضرا ورأي الأطباء فصدده ففصدوه في الرابع فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه وكان يفاب عليه اليبس غلبة عظيمة ولم يزل المرض يتزايد حتي انتهى الى غاية الضعف . ولقد جلسنا في سادس مرضه وأسندنا ظهر دالي مخذة وأحضر ماء فاتر ليشر به غقيب شرب دواء لتأبين الطبيعة فشر به فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حرارته وعرض عليه ماء ثان فشكا من برده ولم يعضب ولم يصعب ولم يقل سوى هذه الكلمات سبحان الله ألا يمكن أحدا تمدهل الماء فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي أبصر هذه الاخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقةها والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقنح رأس من أحضره واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه

ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وامتنع من تناول المشروب فاشتد الخوف في البلد وخاف الناس ونقلوا الاقشة من الاسواق وغشى الناس من الكآبة والحزن مالا يمكن حكايته * ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نتمدد في كل ليلة الي أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ثم نحضر في باب الدار فان وجدنا طريقا دخلنا وشاهدناه وانصرفنا والاعرفونا أحواله وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا الي ان يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا

ولما كان العاشر من مرضه حقن دفتين وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً وفرح الناس فرحاً شديداً فاقمنا على العادة الي أن مضى من الليل هزيع ثم أتينا الي الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا فالتسنا منه تعريف الحال المستجد فدخل وأنفذ الينا مع الملك المعظم تور الشاه جبره الله تعالى ان العرق قد أخذ في ساقه فشكرنا الله تعالى

على ذلك والتمسنا منه أن يمس بقية قدمه ويخبرنا بحاله في العرق فتنفقه ثم خرج الينا وذكر أن العرق سابغ وانصرفنا طيبة قلوبنا ثم اصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو السادس والعشرون من صفر فحضرنا بالباب وسألنا عن الاحوال فاخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ في الفراش ثم في الحصر وتأثرت به الارض وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً وحارت في القوة الاطباء

﴿ ذكر تحليف الأفضل ﴾

ولما رأي الملك الافضل ما حل بوالده وتحقق الناس موته تسرع في تحليف الناس في دار رضوان المعروفة بسكناه واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله بعد وفاته واعتذر الي الناس بأن المرض قد اشتد وما يعلم ما يكون وما يفعل هذا الا احتياطاً على جارى عادة الملوك فأول من استحضر للحلف سعد الدين أخو بدر الدين مودود الشحنة فبادر الى اليمين من غير شرط ثم حضر ناصر الدين صاحب صهيون وزاد ان الحصن الذي في يده له وحضر سابق الدين صاحب شيزر فحلف، ولم يذكر الطلاق واعتذر بأنه ما حلف به . ثم حضر خشتر بن حسين الهكاري وحلف . وحضر أنوشروان الزرزاري وحلف واشترط ان يكون له خبز يرضيه، وحضر عليكان وملكان وحلفا ثم مد الخوان وحضر الجماعة وأكلوا *

ولما كان العصر أعيى المجلس للتحليف وحضر ميمون القصري رحمه الله وشمس الدين الكبير وقالنا نحن نحلف بشرط أن لانسل في وجه أحد من اخوتك سيفاً لكن رأسي دون بلادك . هذا قول ميمون القصري . وأما سنقر فانه امتنع ساعة ثم قال كنت حلفتى على النظرون وأنا عليها وحضر

سامه وقال ليس لي خبز فقل لي على شيء أحلف فزوج فخلف وعلق يمينه بشرط أن يعطى خبزا يرضيه . وحضر سنقر المشطوب وحلف واشترط أن يرضى . وحضر أيبك الافطس رحمه الله واشترط رضاه . وحضر حسام الدين بشارة وحلف وكان مقدما على هؤلاء ولم يحضر أحد من الامراء المصريين ولم يتعرض لهم بل حلف هؤلاء للنقير . ونسخة اليمين المحلوف بها مضمونها اني من وقتي هذا صفت نيتي . وأخلصت طويتي . للملك الناصر مدة حياته واني لأزال باذلا جهدي في الذب عن دولته بنفسى ومالى . وسيفى ورجالى . ممتثلا أمره واقفاً عند مرضيه . ثم من بعده لولده الافضل على ووريثه . والله اني في طاعته وأذبه عن دولته وبلاده بنفسى ومالى وسيفى ورجالى . وامثثل أمره ونهيه وباطني وظاهري في ذلك سواء والله على ما أقول وكيل *

﴿ ذكر وفاته رحمه الله وقدس روحه ﴾

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر وهي الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ووقع من الامر في أوله وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقاضي الفاضل تلك الليلة وابن الزكي ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت وحضر بيننا الملك الافضل وأمر أن نبيت عنده فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأيا فان الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف ان لم نزل أن يقع الصوت في البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضاً فرأى المصلحة في نزولنا واستحضر الشيخ أبي جعفر امام الكلاسة وهو رجل صالح لبيت بالقلعة حتى اذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكره الشهادة وذكره الله تعالى فقل

ذلك ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه وبات في تلك الليلة على حال المنقلين الى الله تعالى والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره الله تعالى وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لا يكاد يفيق الا في أحيان . وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى الي قوله تعالى هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة سمعه وهو يقول رحمة الله عليه صحيح وهذه يقظة في وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به فله الحمد على ذلك *

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح في وقت وفاته ووصلت وقدمات وانتقل الى رضوان الله ومحل كرمه وجزيل ثوابه * ولقد حكى لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر الي قوله تعالى لا اله الا هو عليه توكلت تبسم وتهلل وجهه وسلمها الى ربه * وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين وغشى القلعة والبلد والدينا من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى . وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداءه بنفوسهم وما سمعت هذا الحديث الا على ضرب من التجوز والترخص الا في ذلك اليوم فاني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لقدى بالنفس *

ثم جلس ولده الملك الافضل للجزء في الايوان الشمالي وحفظ باب القلعة الا عن الخواص من الامراء والمعممين وكان يوما عظيما وقد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والاسف والبكاء والاستغاثة من ان ينظر الي غيره وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فاضل وواعظ . وكان أولاده يخرجون مستغيثين الى الناس فتكاد النفوس تزهرق لهول منظرهم

ودام الحال على هذا الى مابعد صلاة الظهر . ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة الا بالقرض حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين وغسله الدولي الفقيه ونهضت الي الوقوف على غسله فلم تكن لي قوة تحمل ذلك المنظر وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجي ثوب فوط . وكان ذلك وجميع ما احتاج اليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه وارتفعت الاصوات عند مشاهدته وعظم من الضجيج والعيويل ما شغلهم عن الصلاة فصلى عليه الناس ارسالاً وكان أول من أم بالناس القاضي محي الدين ابن الزكي ثم أعيد الي الدار التي في البستان وكان ممرضاً بها ودفن في الصفة الغربية منها . وكان نزوله في حفرة قدس الله روحه ونور ضريحه قريباً من صلاة العصر ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر وعزى الناس فيه وسكن قلوب الناس وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد فما وجد قلب الاحزين ولا عين الاباكية الا من شاء الله . ثم رجع الناس الي بيوتهم أقبح رجوع ولم يعد أحد منهم في تلك الليلة الا نحن حضرنا وقرأنا وجددنا حالاً من الحزن *

واشتغل في ذلك اليوم الملك الافضل بكتابة الكتب الي عمه واخوته يخبرهم بهذا الحادث . وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوساً عاماً وأطلق باب القلمة للفقهاء والعلماء وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر ثم انفض المجلس في ظهر ذلك اليوم واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية وقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه واشتغل الملك الافضل بتدبير أمره ومراسلة اخوته وعمه

ثم انقضت تلك السنون وأهلها * فكأنها وكأنهم أحلام

تم بعمون الله والحمد لله رب العالمين والصلاة

والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه

أجمعين وسلام على المرسلين

والحمد لله رب

العالمين



منتخبات ❦

من كتاب التاريخ لصاحب حماه تأليف تاج الدين شاهنشاہ بن أيوب
رحمه الله تتعلق بسيرة السلطان صلاح الدين الايوبي رحمه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❦ ذكر قتل الصالح بن رزبك ❦

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة في رمضان قتل الملك الصالح أبو
الغارات طلائع بن رزبك الارمني وزير العاضد العلوي جهزت عليه عمه
العاضد من قتله وهو داخل في القصر بالسكاكين ولم يمت في تلك الساعة
بل حمل الى بيته وأرسل يعتب على العاضد فأرسل العاضد اليه يحلف له أنه
لم يرض ولا علم بذلك وأمسك العاضد عمته وأرسلها الى طلائع فقتلها وسأل
العاضد أن يولي ابنه رزبك الوزارة ولقب العادل ومات طلائع واستقر ابنه
العادل رزبك في الوزارة

❦ ذكر ولاية شاور ثم الضرغام ❦

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة في صفر وزير شاور للعاضد لدين الله
العلوي وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزبك فولاه الصميد وكانت

ولاية الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة . ولما جرح الصالح وصى ابنه العادل أن لا يغير على شاور شيأ لعلمه بقوة شاور ولما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب الى شاور بالعزل فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل الى القاهرة فهرب العادل وطرده وراءه شاور وأمسكه وقتله وهو العادل رزبك ابن الصالح طلائع بن رزبك وانقضت بقتله دولة بني رزبك واستقر شاور في الوزارة وتلقب بأمر الجيوش وأخذ أموال بني رزبك وودائعهم ثم ان الضرغام جمع جمعاً ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان فقوي على شاور فانهزم شاور الى الشام مستنجدا بنور الدين . ولما تمكن الضرغام من الوزارة قتل كثيرا من الامراء المصريين لتخلو له البلاد فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد من أيديهم

﴿ ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسة ﴾

وفي هذه السنة سير نور الدين محمود بن زنكي عسكريا مقدمهم أسد الدين شيركوه بن شاذى الى الديار المصرية ومعهم شاور وكان قد سار من مصر هاربا من الضرغام الوزير فلحق شاور بنور الدين واستنجده وبذل له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن أعاده الى الوزارة فأرسل نور الدين شيركوه الى مصر فوصل اليها وهزم عسكريا ضرغام عند قبر السيدة نفيسة وأعاد شاور الى وزارة العاضد العلوي ثم غدر شاور بنور الدين ولم يف له بشئ مما شرط فسار شيركوه واستولى على بلبليس والشرقية فأرسل شاور يستنجد الافرنج على اخراج أسد الدين شيركوه من البلاد فسار الافرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه بلبليس ودام الحصار ثلاثة أشهر وبلغ الافرنج حركة نور الدين وأخذ حارم فراسلوا شيركوه في

الصلح وفتحوا له نخرج من بليس بمن معه من العسكر وسار بهم ووصلوا الشام سالمين

وفي هذه السنة في رمضان فتح نور الدين محمود حارم وأخذها من الافرنج بعد مصاف جري بين نور الدين والافرنج انتصر فيه نور الدين وقتل وأسر عالما كثيرا وكان من جملة الأسرى البرنس صاحب أنطاكية والقومص صاحب طرابلس وغنم منهم المسلمون شيئا كثيرا

وفي هذه السنة أيضاً في ذي الحجة سار نور الدين الى بانياس وفتحها وكانت بيد الافرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسة إلى هذه السنة . ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسة وفيها فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الافرنج

ثم دخلت سنة اثنين وستين وخمسة وفيها عاد أسد الدين شيركوه الى الديار المصرية وجهزه نور الدين بعسكر جيد عدتهم ألف فارس فوصل الى ديار مصر واستولى على الجزيرة وأرسل شاور الى الافرنج استنجدهم وجمعهم وساروا في أثر شيركوه الى جهة الصعيد والتقوا على بلد يقال له الابوان فانهزم الافرنج والمصريون واستولى شيركوه على بلاد الجزيرة واستغلها ثم سار الى الاسكندرية وملكها وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وعاد شيركوه الى جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والافرنج وحاصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة أشهر فسار شيركوه اليهم وأشفقوا على الصلح على مال يحملونه الى شيركوه ويسلم اليهم الاسكندرية ويعود الى الشام فتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال من هذه السنة وسار شيركوه الى الشام فوصل الى دمشق في ثامن عشر ذي القعدة واستقر الصلح

بين الافرنج والمصريين على أن يكون للافرنج بالقاهرة شحنة وتسكون أبوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار
وفي هذه السنة فتح نور الدين صاميثا والمريبة وفيها عصى غازي بن حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج فسير اليه عسكريا أخذوا منه منبج ثم أقطع نور الدين منبج قطب الدين ينال بن حسان أخا غازي المذكور فبقى فيها الى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة وفيها ملك نور الدين قلعة جمبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك بن سالم بن مالك ابن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي وكانت بأيديهم من أيام السلطان ملكشاه ولم يقدر نور الدين على أخذها الا بعد أن أسر صاحبها وأحضره الي نور الدين واجتهد به على تسليمها فلم يفعل فأرسل عسكريا مقدمهم نخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني وأردفه بعسكر آخر مع مجد الدين أبي بكر المعروف بابن الداية وكان رضيع نور الدين وحصروا قلعة جمبر فلم يظفروا منها بشيء وما زالوا على صاحبها مالك حتي سلمها وأخذها عوضا مدينة سروج بأعمالها والمالوح من بلد حلب وعشرين ألف دينار معجلة وباب بزاعة

﴿ ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور ثم ملك ﴾

﴿ صلاح الدين وهو ابتداء الدولة الأيوبية ﴾

وفي هذه السنة اعني سنة اربع وستين وخمسمائة في ربيع الاول سار أسد الدين شيركوه بن شاذي الى ديار مصر ومعه العساكر النورية . وسبب

ذلك تمكن الافرنج من البلاد المصرية وتحكمهم على المسلمين بها حتى ملكوا بلبس قهراً في مستهل صفر من هذه السنة ونهبوها وقتلوا أهلها وأسروهم ثم ساروا من بلبس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها فاحرق شاور مدينة مصر خوفاً من أن يملكها الافرنج وأمر أهلها بالانتقال الى القاهرة فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوماً فارسل العاضد الى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الافرنج على الف الف دينار يحملها اليهم فحمل اليهم مائة الف دينار وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال وتحصيله فرحلوا وجهاز نور الدين المسكر مع شيركوه وانفق فيهم المال وأعطى شيركوه مائتي الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه . أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهب الملك من بيته . وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه . وعسى أن تكرر هو شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . ولما قارب شيركوه مصر رحل الافرنج من ديار مصر على اعقابهم الي بلادهم فكان هذا لمصر فتحاً جديداً ووصل أسد الدين شيركوه الي القاهرة في رابع ربيع الآخر واجتمع بالعاضد وخلع عليه وعاد الي خيامه بالجامعة العاضدية وأجري عليه وعلى عسكره النفقة الوافرة وشرع شاور يماطل شيركوه فيما كان بذله لنور الدين من تقرير المال وإيراد ثلث البلاد ومع ذلك فكان شاور يركب كل يوم الي أسد الدين شيركوه ويعده ويمنيه وما يعدم الشيطان الا غروراً . ثم ان شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وامرائه ويقبض عليهم فنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك . ولما رأى عسكراً نور الدين من شاور ذلك

عزموا على الفتك بشاور واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما وعرفوا شيركوه بذلك فهام عنه واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته فلم يجده في الخيم وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي رضي الله عنه فلقى صلاح الدين وجرديك شاور وأعلماه برواح شيركوه الي زيارة الشافعي وساروا جميعا الي شيركوه فوثب صلاح الدين وجرديك على شاور وأتقياه الي الارض عن فرسه وأمسكاه في سابع ربيع الآخر من هذه السنة فهرب أصحابه عنه وأرسلا أعلما شيركوه بما فعلاه فحضر ولم يمكنه الا اتمام ذلك وسمع العاضد الخبر فإرسل الي شيركوه يطلب منه انفاذ رأس شاور فقتله وأرسل رأسه الي العاضد ودخل بعد ذلك القصر عند العاضد فخلع عليه العاضد خلعة الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش وسار بالخلع الي دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور واستقر في الامر وكتب له منشورا أوله بعمد البسطة «من عبد الله ووليه أبي محمد الامام العاضد لدين الله أمير المؤمنين الي السيد الاجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولي الأئمة مجير الامة . أسد الدين ابى الحارث شيركوه العاضدى عضد الله به الدين . وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين . وأدام قدرته . وأعلى كلمته . سلام عليك . انا نحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ونسأله أن يصلي على محمد وآله الطاهرين . والأئمة المهديين ويسلم تسليما » ثم ذكر تفويض أمور الخلافة اليه ووصايا أضربنا عنها للاختصار . وكتب العاضد بخطه على ظهر المنشور « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله فنقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحملها فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة . واسحب ذيل الافتخار بان اعتزت خدمتك الي النبوة » ومدحت الشعراء أسد الدين ووصل اليه من الشام مديح العماد الكاتب

قصيدة أولها

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب * كم راحة جنيت من دوحة التنب
 ياشيركوه بن شاذي المالك دعوة من * نادي فعرف خير ابن بخير أب
 جرى السلوك وما حازوا بركضهم * من المدي في العلاما-زن بالخبب
 ملكت من ملك مصر رتبته قصرت * عنها الملوك فطالت سائر الرتب
 قد أمكنت أسد الدين الزيمة من * فتح البلاد فبادر نحوها وثب
 وفي شيركوه وقتله شاور يقول عرقلة الدمشقي

لقد فاز بالملك العظيم خليفة * له شيركوه العاضدي وزير
 هو الأسد الضاري الذي جل خطبه * وشاور كلب للرجال عقور
 بني وطني حتي لقد قال صحبه * على مثاها كان اللعين يدور
 فلا رحم الرحمن تربة قبره * ولا زال فيه منكر ونكير
 فاما الكامل ابن شاور لما قتل أبوه فقد دخل القصر فكان آخر
 العهد به . ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع أتاه أجله حتي اذا فرحوا
 بما أتوا أخذناهم بثته . وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادي
 الآخرة سنة أربع وستين وخمسة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام . وكان
 شيركوه وأيوب ابنا شاذي من بلد دوين قال ابن الاثير وأصلهما من الأكراد
 الروادية فقصد الجراق وخرجا بهروز شحنة السلجوقية ببغداد وكان أيوب
 أكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظاً قلعة تكريت ولما انكسر عماد
 الدين زنكي من عسكر الخليفة ومر على تكريت خدمه أيوب وشيركوه ثم
 ان شيركوه قتل انسانا بتكريت فاخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة
 عماد الدين زنكي فأحسن اليهما وأعطاهما اقطاعات جميلة . ولما ملك قلعة

بعلبك جعل أيوب مستحفظاً لها ولما حاصر عسكر دمشق بعلبك بعد موت زنكي سلمها أيوب لهم على اقطاع كثيرة شرطوها له وبقي أيوب من اكبر أمراء عسكر دمشق وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بعد موت أبيه زنكي وأقطعه نور الدين حمص والرحبة لما رأى من شجاعته وزاده عليها وجعله مقدم عسكره فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمر شيركوه فكاتب أخاه أيوب فساعد أيوب نور الدين على ملك دمشق وبقي مع نور الدين الى أن أرسل شيركوه الي مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها وتوفى في هذه السنة على ما ذكرناه

ولما توفى شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب بن شاذي وكان قد سار معه على كرهه . قال صلاح الدين أمرني نور الدين بالمسير مع عمي شيركوه وكان قد قال شيركوه بحضرتي يا يوسف تجهز للمسير فقلت والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية مالا أنساء أبدا فقال لنور الدين لا بد من مسيره معي فأمرني نور الدين وأنا استقبل فقال نور الدين لا بد من مسيرك مع عمك فشكوت الضائقة فأعطاني ما تجهزت به فكانما أساق الي الموت ولما مات شيركوه طلب جماعة من الامراء النورية التقدم على العسكر وولاية الوزارة الماضية منهم عين الدولة الياروقى وقطب الدين ينال المنبجي وسيف الدين على بن أحمد المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحاوي وهو خال صلاح الدين فارسل العاضد أحضر صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر فلم تطعه الامراء المذكورون وكان مع صلاح الدين الفقيه نيسى الهكاري فسعي الي المشطوب حتى أماله الي صلاح الدين ثم قصد الحارمى وقال هذا

ابن أختك وعزه ومملكه لك فسأل إليه أيضاً ثم فعل بالباقيين كذلك فكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقى فانه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد الي نور الدين بالشام وثبت قدم صلاح الدين على أنه نائب نور الدين وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالامير الاسفهلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه وكان لا يفرد به بكتاب بل الي الامير صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله فارسلمهم اليه نور الدين فاعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر وتمكن من البلاد وضعف أمر العاضد . ولما فوض الامر الي صلاح الدين تاب عن شرب الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقص لباس الجدد ودام على ذلك الي ان توفاه الله تعالى . قال ابن الاثير مؤلف كتاب الكامل رأيت كثيراً ممن ابتدأ الملك يتقل الي غير عقبه فان معاوية تغلب وملك فانتقل الملك الي بني مروان بعده ثم ملك السفاح من بني العباس فانتقل الملك الي عقب أخيه المنصور ثم السامانية أول من ابتدى بالملك نصر بن احمد فانتقل الملك الي أخيه اسماعيل وعقبه ثم عماد الدولة بن بويه ملك فانتقل الملك الي عقب أخيه ركن الدولة ثم ملك طغرل السلجوقى فانتقل ملكه الي عقب أخيه ثم شيركوه ملك فانتقل الملك الي أخيه

ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه بل انتقل الي أخيه العادل وعقبه ولم يبق لاولاد صلاح الدين غير حاب وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى ذلك اولاً وأخذ الملوك وعيون أهله وقلوبهم متعلقة به فيحرم عقبه ذلك * ولما استقر قدم صلاح الدين في الوزارة قتل مؤتمن الخلافة وكان مقدم

السودان فاجتمعت السودان فهم حفاظ القصر في عدد كثير وكان بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين انهزم فيها السودان وقتل منهم خلق كثير وتبعهم صلاح الدين فاخلام قتلا وتهيجاً وتهيجاً وحكم صلاح الدين على القصر واقام فيه بهاء الدين قراقوش الاسدى وكان خصياً أبيض وبقى لا يجرى في القصر صغيرة ولا كبيرة الا بأمر صلاح الدين * ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة فيها سارت الافرنج الى دمياط وحصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والدخائر وأخرج على ذلك أموالاً عظيمة فحصرها خمسين يوماً وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام فرحوا عاندين على اعتابهم ولم يظفروا بشيء منها * قال صلاح الدين ما رأيت أكرم من العاضد ارسل الى مدة اقامة الافرنج على دمياط الف الف دينار مصرية سوي الثياب وغيرها *

وفيها سار نور الدين وحاصر الكرك مرة ثم رحل عنه * وفيها كانت زلزلة عظيمة خربت الشام فقام نور الدين في عمارة الاسوار وحفظ البلاد اتم قيام وكذلك خربت بلاد الافرنج فخافوا من نور الدين واشتغل كل منهم عن قصد الآخر بعمارة ماخرب من بلاده *

وفيها في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل وكان مرضه حمي حادة * ولما مات صرف ارباب الدولة الملك عن ابنه الاكبر عماد الدين زنكي بن مودود الى أخيه الذي هو اصغر منه وهو سيف الدين غازي بن مودود فسار عماد الدين زنكي الى عمه نور الدين مستنصراً به . وتوفي قطب الدين وعمره اربعون سنة تقريباً وكانت مدة ملكه احدى وعشرين سنة وخمسة اشهر ونصفاً وكان من احسن الملوك سيرة

وفي سنة ست وستين سار نور الدين محمود بن زنكي الى الموصل وهي بيد أخيه غازي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن اقسنقر فاستولي عليها نور الدين ومملكها * ولما ملك نور الدين الموصل قرر أمرها وأطلق المكوس منها ثم وهبها لابن أخيه سيف الدين غازي وأعطى سنجار لعاد الدين وهو أكبر من أخيه فقال كمال الدين الشهرزوري هذا طربق الي أذى يحصل للبيت الاتابكي لان عماد الدين كبير لا يرى طاعة أخيه سيف الدين وسيف الدين هو الملك لا يرى الاغضاء لعاد الدين فيحصل الخلف وتطمع الاعداء *

وفي هذه السنة سار صلاح الدين عن مصر فغزا بلاد الافرنج قرب عسقلان والرملة وعاد الي مصر ثم خرج الي أيلة وحصرها وهي للافرنج على ساحل البحر الشرقي ونقل اليها المراكب وحصرها برا وبحرا وفتحها في العشر الاول من ربيع الآخر واستباح أهلها وما فيها وعاد الي مصر ولما استقر صلاح الدين بمصر كان بمصر دار الشحنة تسمى دار المعونة يجلس فيها فهدمها صلاح الدين وبنها مدرسة للشافعية * وكذلك بنى دار العزل مدرسة للشافعية وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعا ورتب قضاة شافعية وذلك في العشرين من جمادى الآخرة * وكذلك اشترى تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين منازل العز وبنها مدرسة للشافعية

﴿ ذكر اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية ﴾

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة وفيها ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله. وكان سبب الخطبة العباسية بمصر انه لما تمكن صلاح الدين بمصر وحكم على القصر وأقام فيه قراقوش الاسدي وكان خصيا أبيض وبلغ نور الدين ذلك أرسل الي صلاح الدين حتما جزما بقطع الخطبة العلوية

واقامة الخطبة العباسية فراجعه صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة فلم يلتفت نور الدين الي ذلك وأصرّ عليه وكان العاضد قد مرض فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضيء ويقطعوا خطبة العاضد فامتثلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته وتوفي العاضد يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع خطبته

ولما توفي العاضد جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه وكانت كثيرته تخرج عن الاحصاء وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق الثمينة والكتب والتحف * فمن ذلك الجبل الياقوت وكان وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا قال ابن الأثير مؤلف الكامل أنا رأيته ووزنته . ومما حكى انه كان بالقصر طبل للقولنج اذا ضرب الانسان به ضرط فكسر ولم يعلموا به الا بعد ذلك ونقل صلاح الدين أهل العاضد الي موضع من القصر ووكّل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من عبد وأمة فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه وكان لم تغن بالامس . ولما اشتد مرض العاضد أرسل الي صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة ولم يمض اليه فلما توفي علم صدقه فندم لتخلفه عنه وجميع من خطب له منهم أربعة عشر خليفة المهدي . والقائم . والمنصور . والمعز . والعزيز . والحاكم . والظاهر . والمستنصر . والمستعلي . والآمر . والحافظ . والظافر . والفازر . والعاضد . وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدي بسلاجسة في ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين الي أن توفي العاضد في هذه السنة أعني سنة سبع وستين وخمسة مائة مائتان واثنيتان وسبعون سنة تقريبا . وهذا دأب الدنيا لم تعط الا واستردت ولم تحل الا وتمرت . ولم

تصف الا وتكدرت . بل صفوها لم يخل من الكدر
ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر الي بغداد ضربت لها البشائر عدة
أيام وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل وهو من خواص الخدم الي نور
الدين وصلاح الدين والخطباء وسيرت الاعلام السود . وكان العاضد المذكور
قد رأى في منامه أن عقربا خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد
للعاضد ولدغته فاستيقظ العاضد مرعوبا واستدعي من يعبر الرؤيا وقص ما رآه
عليه فعبر له بوصول أذى اليه من شخص بذلك المسجد فتقدم العاضد الي
والي مصر باحضار من بذلك المسجد فأحضر اليه شخصا صوفيا يقال له
نجم الدين الخوبشاني فاستخبره العاضد عن مقدمه وسبب مقامه بالمسجد
المذكور فاخبره بالصحيح في ذلك ورآه العاضد أضعف من أن يناله بمكروه
فوصله بمال وقال له ادع لنا يا شيخ وأمره بالانصراف فلما أراد السلطان
صلاح الدين ازالة الدولة العلوية والقبض عليهم استفتى في ذلك فأفتاه بذلك
جماعة من الفقهاء وكان نجم الدين الخوبشاني المذكور من جملتهم فبالغ في الفتيا
وصرح في خطه بتعديده مساويهم وسلب عنهم الايمان وأطال الكلام في
ذلك فصح بذلك رؤيا العاضد

وفي هذه السنة جري بين نور الدين وصلاح الدين الوحشة في
الباطن . كان صلاح الدين سار ونازل الشوبك وهي للافرنج ثم رحل عنها
خوفا أن يأخذه فلا يبقى ما يعوق نور الدين عن قصد مصر فنزله ولم يفتحه
لذلك وبلغ نور الدين ذلك فكتمه وتوحش باطنه لصلاح الدين * ولما استقر
صلاح الدين بمصر جمع أقاربه وكبراء دولته وقال بلغنى أن نور الدين يقصدنا
فما الرأي فقال تقي الدين عمر ابن أخيه نقاتله ونصده وكان ذلك بحضرة أيهم

نجم الدين أيوب فانكر على تقي الدين ذلك وقال أنا والدكم لورأيت نور الدين نزلت وقبلت الارض بين يديه بل أكتب وقل لنور الدين انه لوجاءني من عندك انسان واحد وربط المندهل في عنقي وجرني اليك سارعت الي ذلك وانفضوا على ذلك ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة وقال له لو قصدنا نور الدين أنا كنت أول من يمنعه ويقاتله ولكن ان أظهرنا ذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ولا ندري ما يكون من ذلك واذا أظهرنا له الطاعة تمادي الوقت بما يحصل به الكفاية من عند الله فكان كما قال

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسة وفي هذه السنة سارت طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش الى افريقية ونزل على طرابلس الغرب فحاصرها مدة ثم فتحها واستولى عليها وملك كثيرا من بلاد افريقية

وفيها سار نور الدين الي بلاد قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان واستولى على مرعش وبهسنى ومرزيان وسيواس فارسلى اليه قليج أرسلان يستعطفه ويطلب الصلح فقال نور الدين لأرضى الابان ترد ملاطيه على ذي النون بن الراشمنذ وكان قليج أرسلان قد أخذها منه فبذل له سيواس فاصطلح معه نور الدين فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان واستولى على سيواس وطرده ابن الراشمنذ

وفيها سار صلاح الدين من مصر الى الكرك وحصرها وكان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك وسار نور الدين من دمشق حتى وصل الى الرقيم وهو بالقرب من الكرك فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين فرحل عن الكرك عائدا الى مصر وأرسل تحفاً الى نور الدين واعتذر بان أباه

أيوب مريض وخشى أن يموت فتذهب مصر فقبل نور الدين عذره في الظاهر وعلم المقصود

ولما وصل صلاح الدين الي مصر وجد أباه أيوب قد مات وكان سبب موت نجم الدين أيوب بن شاذى المذكور أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه فوق وحمل الي قصره وبقى أياما ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة وكان عاقلا حسن السيرة

﴿ ذكر ملك شمس الدين توران شاه بن أيوب اليمنى ﴾

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة وكان صلاح الدين واهله خائفين من نور الدين فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث ان قصدهم نور الدين قاتلوه فان هزمهم التجأوا الي تلك المملكة فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه الي النوبة فلم تعجبهم بلادها ثم سيره في هذه السنة بعسكر الي اليمنى وكان صاحب اليمنى حينئذ انساناً يسمى عبد النبي المقدم الذكر في سنة أربع وخمسين وخمسمائة فتجهز توران شاه ووصل الي اليمنى وجري بينه وبين عبد النبي قتال فانتصر فيه توران شاه وهزم عبد النبي وهجم زبيد وملكها وأسر عبد النبي ثم قصد عدن وكان صاحبها اسمه ياسر فخرج لقتال توران شاه فهزمه توران شاه فهجم عدن وملكها وأسر ياسر أيضا واستولي توران شاه على بلاد اليمنى واستقرت في ملك صلاح الدين واستولي على أموال عظيمة لعبد النبي وكذلك من عدن

﴿ ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمنى ﴾

في هذه السنة في رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان

المصريين فانهم قصدوا الوثوب عليه واعادة الدولة العلوية فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم . فمنهم عبد الصمد الكاتب . والقاضي الديرسي . وداعي الدعاة . وعمارة بن عليّ النيني الشاعر الفقيه . وله أشعار حسنة فمنها مما يتعلق باحوال العلويين وانقراض دولتهم قوله قصيدة منها

رमित يادهر كف المجد بالشلل * وجيده بعمد حسن الحلى بالعطل
جدعت مارنك الاقني فأنفك لا * ينفك مأبون أهل الشين والحجل
مررت بالقصر والاركان خالية * من الوفود وكانت قبلة القبل

وفي هذه السنة توفي الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ابن اقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة وغير ذلك يوم الاربعاء حادي عشر شوال بعلبة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة وكان نور الدين شرع يتجهز للدخول الي مصر لاختها من صلاح الدين وكان يريد ان يخلّي ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود في الشام قبالة الافرنج ويسير هو بنفسه الي مصر فأتاه أمر الله الذي لا مرد له وكان نور الدين اسمر طوبل القائمة ليس له حلية الا في حنكه حسن الصورة وكان قد اتسع ملكه جداً وخطب له بالحرمين واليمن لما ملكها توران شاد بن أيوب وكذلك كان يخطب له بمصر وكان مولد نور الدين سنة احدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الارض حسن سيرته وعدله * وكان من الزهد والعبادة على قدم عظيم وكان يصلي كثيراً من اليل فكان كما قيل

جمع الشجاعة والحشوع لربه * ما أحسن المحراب في المحراب
وكان عارفاً بآفته على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وليس عنده فيه تعصب وهو الذي بنى أسوار مدن الشام منها دمشق وحمص وحماه

وحلب وشيزر وبعابك وغيرها لما تهدمت بالزلازل وبني المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية ولا يحتمل هذا المختصر ذكر فضائله *

ولما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بالملك بعده وعمره احدى عشرة سنة وحلف له العسكر بدمشق وأقام بها وأطاعه صلاح الدين بمصر وخطب له بها وضربت السكة باسمه وكان المتولى ائديبير الملك الصالح وتديبير دوائته الامير شمس الدين محمد المعروف بابن المقدم *

ولما مات نور الدين وملك ابنه الملك الصالح سار من الموصل سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي وملك جميع البلاد الجزرية *

﴿ ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر ﴾

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة وفي أول هذه السنة اجتمع على رجل من أهل الصعيد يقال له الكنز جمع كثير وأظهروا الخلاف على صلاح الدين فارسل صلاح الدين اليه عسكرا فاقتتلوا وقتل الكنز وجماعة معه وانهمزم الباقون *

﴿ ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها ﴾

في هذه السنة سلخ ربيع الاول ملك صلاح الدين بن أيوب دمشق وحصص وحماه * وسببه أن شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق الي حلب ليكون مقامه بها فسار الملك الصالح الي حلب مع سعد الدين كشتكين ولما

استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوته
وقبض على الرئيس ابن الحشاش واخوته وهو رئيس حلب واستبد سعد
الدين بتدبير الملك الصالح نخافه ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق
فكاتبوا صلاح الدين واستدعوه ليلكوه عليهم فسار جريدة في سبعائة
فارس ولم يلبث ان وصل دمشق فخرج كل من كان بها من العسكر والنقوه
وخدموه ونزل بدار أبيه أيوب المعروفة بدار العقيقي وعصت عليه القلعة
وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين واستماله
فسلم القلعة اليه فصعد اليهم صلاح الدين وأخذ ما فيها من الاموال *

ولما ثبت قدمه وقرر أمر دمشق استخلف فيها أخاه سيف الاسلام طغتكين
ابن أيوب وسار الي حمص مستهل جمادى الاولى وكانت حمص وحماة وقلعة بارين
وسلمية وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة في اقطاع نحر الدين ابن الزعفراني فلما
مات نور الدين لم يمكن نحر الدين مسعود المقام بحمص وحماة لسوء سيرته
مع الناس وكانت هذه البلاد له بنير قلاعها فان قلاعها فيها ولاية لنور
الدين وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم الآبارين فان قلعتها كانت له
أيضاً ونزل صلاح الدين على حمص في حادي عشر جمادى الاولى وملك
المدينة وعصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها ورحل الي حماة فملك
مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة وكان بقلعتها الامير عز الدين
جرديك أحد المماليك النورية فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين انه ليس
له غرض الا حفظ بلاد الملك الصالح عليه وانما هو نائبه وقصده من
جرديك المسير الي حلب في رسالة فاستحلفه جرديك على ذلك وسار جرديك
الي حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه فلما وصل جرديك

الى حلب قبض عليه كشتكين وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة الي
 صلاح الدين فلما تم سار صلاح الدين الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح
 فجمع أهل حلب وأرسل سعد الدين كشتكين الى سنان مقدم الاسماعلية
 أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فارسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين
 فقتلوا دونه واستمر صلاح الدين محاصرا لحلب الي مستهل رجب ورحل عنها
 بسبب نزول الافرنج على حمص ونزل صلاح الدين على حماة ثامن رجب
 وسار الي حمص فرحل الافرنج عنها ووصل صلاح الدين الي حمص وحصر
 قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان من هذه السنة ثم سار الي
 بلبك فلما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح
 الي ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين
 فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي وجعل مقدم
 الجيش اكبر أمرائه وهو عز الدين محمود ولقبه سلفندار وطلب أخاه الاكبر
 عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ليسير في النجدة أيضا فامتنع
 مصانعة لصلاح الدين فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجار ووصل عسكر
 الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلفندار الي حلب وانضم اليهم عسكر
 حلب وسار الي صلاح الدين فارسل صلاح الدين يبدل حمص وحماه وان
 يقر بيده دمشق ويكون فيها نائبا للملك الصالح فلم يجيبوا الي ذلك وساروا
 الي قتاله واقتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب وغم صلاح
 الدين وعسكره اموالهم وتبعهم صلاح الدين حتي حصرهم في حلب وقطع
 حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة واستبد
 بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين في الصلح على ان يكون له ما بيده من الشام

وللملك الصالح ما بقي بيده منهم فصالحهم على ذلك ورحل عن حلب في العشر الاول من شوال من هذه السنة.

وفي العشر الاخير من شوال ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين واخذها من صاحبها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني وكان فخر الدين المذكور من اكابر الامراء النورية*

﴿ ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل

من السلطان صلاح الدين ﴾

ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسةائة وفيها عاشر شوال كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بتل السلطان فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه فانه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرها وتمت على سيف الدين غازي الهزيمة حتي وصل الى الموصل مرعوبا وقصد الهروب منها الي بعض القلاع فثبته وزيره وأقام بالموصل واستولى السلطان صلاح الدين على ائقال عسكر الموصل وغيرهم وغنم ما فيها ثم سار الى نرابه وحصنها وتسلمها ثم سار الى منبج فحصرها في آخر شوال وكان صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي شديدا البنض لصلاح الدين وفتحها عنوة وأسرى نال وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه فسار ينال الى الموصل فاقتطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة ثم سار السلطان صلاح الدين الي عزاز ونازلها ثالث ذى القعدة وتسلمها حادى عشر ذى الحجة فوثب الاسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فضربه بسكين في رأسه فجرحه فامسك صلاح الدين الاسماعيلي وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الاسماعيلي على تلك الحال ووثب آخر عليه فقتل وثالث فقتل

أيضا ونجا السلطان الي خيمته مذتورا وعرض جنده وأبعد من انكره منهم * ولما ملك السلطان عزاز رحل عنها ونازل حلب في منتصف ذي الحجة وحصرها وبها الملك الصالح وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب فسأله في الصالح فأجابهم اليه وأخرجوا اليه بنتا صغيرة انور الدين فاكرمها وأعطاهها شيئا كثيرا وقال لها ماترومين فقالت أريد قلعة عزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها السلطان اليهم واستقر الصالح ورحل السلطان من حلب في العشرين من محرم سنة اذتين وسبعين *

وفي سنة احدى وسبعين في رمضان قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن الي الشام وأرسل الي أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله * ثم دخلت سنة اثنين وسبعين وخمسة وفيها قصد السلطان بلد الاسماعيلية في قلعة مصيات فارسل سنان مقدم الاسماعيلية الي خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماه يسأله أن يسعي في الصالح فسأل الحارمي الصنح عنهم فأجابه صلاح الدين الي ذلك وصالحهم ورحل عنهم وأتم السلطان صلاح الدين مسيره ووصل الي مصر فانه كان بعد عهده بها بعد ان استقر له ملك الشام * ولما وصل الي مصر في هذه السنة أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة على جبل المقطم ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع القاسمي ولم يزل العمل فيه الي ان مات صلاح الدين *

وفي هذه السنة أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الامام الشافعي رضى الله عنه بالقرافة بمصر وعمل بالقاهرة مارستان * ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسة وفي جمادي الاولي منها سار

السلطان من مصر الي الساحل لنزو الافرنج فوصل الي عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر فهب وتفرق عسكره في الاغارات وبقى السلطان في بعض العسكر فلم يشعر الا بالافرنج قد طاعت عليه فقاتلهم أشد قتال وكان لتقى الدين بن شاهنشاد ولد اسمه أحمد من أحسن الشباب أول ما تكاملت لحيته فأمره أبوه تقي الدين بالحملة فحمل عليهم وقاتلهم فأثر فيهم أثراً كبيراً وعاد سالماً فأمره أبوه بالعود اليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيداً وتمت الهزيمة على المسلمين وقاربت حملات الافرنج السلطان ففضي منهزماً الي مصر على البرية ومعه من سلم فلقوا في طريقهم مشقة وعطشا شديداً وهلك كثير من الدواب وأخذت الافرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون في الاغارات أسرى وأسر الفقيه عيسى وكان من اكبر أصحاب السلطان فافتداه السلطان من الاسر بعد سنتين بستين ألف دينار ووصل السلطان الي القاهرة نصف جمادى الآخرة . قال الشيخ عز الدين علي بن الاثير مؤلف الكامل رأيت كتاباً بخط يد صلاح الدين الي أخيه توران شاه نائبه بدمشق يذكر له الواقعة وفي أوله

« ذكرتك والخطي يخطر بيننا * وقد نهلت منا المثقفة السمر »

ويقول فيه « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله سبحانه الا

لأمر يريده سبحانه وتعالى »

وفي هذه السنة سار الفرنج وحصروا مدينة حماة في جمادى الاولى وطمع الافرنج بسبب بعد السلطان بمصر وهزيمته من الافرنج ولم يكن غير توران شاه بدمشق ينوب عن أخيه وليس عنده كثير من العسكر وكان توران شاه أيضاً كثير الانهماك في اللذات * ماثلاً الي الراحة * ولما حصروا

حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمي خال السلطان وهو مريض واشتد حصار الافرنج لحماة وطال زحفهم عليها حتى أنهم هجموا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهرا ثم جدد المسلمون في القتال واخرجوا الافرنج الى ظاهر السور وأقام الافرنج كذلك على حماة أربعة أيام ثم رحلوا عنها الى حارم وعقب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمي وكان له ابن من أحسن الناس شبابا مات قبله بثلاثة أيام

وفي هذه السنة قبض الملك الصالح ابن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كشتكين وكان قد تغلب على الامر وكانت حارم لكشتكين فارس الملك الصالح اليهم فلم يسلموها اليه فأمر كشتكين أن يسلمها فأمرهم بذلك فلم يقبلوا منه فأمر بتعذيب كشتكين ليسلموا القلعة فعذب وأصحابه يرونه ولا يرحمونه فمات من العذاب وأصر أصحابه على الامتناع ووصل الافرنج الي حارم بعد رحيلهم عن حماة وحصروا حارم مدة أربعة أشهر فأرسل الملك الصالح مالا للافرنج وصالحهم فرحلوا عن حارم وقد بلغ أهله الجهد وبعد أن رحل الافرنج عنها أرسل الملك الصالح اليها واستتاب بقامة حارم مملوكا لايه اسمه سرخك*

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة وفي هذه السنة طلب توران شاه من أخيه السلطان بلبك وكان السلطان قد أعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بالمقدم لما سلم دمشق الى صلاح الدين ولم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك فأرسل الى ابن المقدم ليسلم بلبك فعصي بها ولم يسلمها فأرسل السلطان وحصره بلبك وطال حصارها فأجاب ابن المقدم الى تسليمها على عوض فعوض عنها وتسلمها السلطان واقطعها أخاه توران شاه*

وفيهما كان بالبلاد غلاء عام وتبعه وباء شديد * وفيها سير السلطان ابن أخيه
تقى الدين عمري حماة وابن عمه محمد بن شيركوه الى حمص وأمرهما بحفظ
بلادهما فاستقر كل منهما ببلده *

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسة وفيها سار السلطان وفتح حصنا
كان بناه الافرنج عند مخاضة الاجران بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب
* وفيها كان حرب بين عسكر السلطان ومقدمهم تقي الدين عمر بن شاهنشاه
ابن أيوب وبين عسكر قليج أرسلان صاحب الروم . وسبها ان حصن رعبان
كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قليج وأرسل اليه عسكرا كثيرا
ليحصروه وكانوا قريب عشرين ألفا وسار اليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم
وكان تقي الدين يفتخر ويقول هزمت بألف عشرين ألفا

﴿ ذكر وفاة المستضىء وخلافة الامام الناصر وهو رابع ثلاثينهم ﴾

في هذه السنة ثاني ذي القعدة توفي المستضىء بأمر الله أبو محمد الحسن وأمه
أم ولد أرمنية وكانت خلافته تسع سنين وسبعة عشر يوما وكان حسن السيرة
وكان قد حكم في دولته ظهير الدين أبوبكر منصور المعروف بابن العطار بعد
عضد الدين الوزير فلما مات المستضىء قام ظهير الدين ابن العطار وأخذ البيعة لولده
الامام الناصر لدين الله * ولما استقرت البيعة للامام الناصر حكم استاذ الدار مجد الدين
أبو الفضل وقبض في سابع ذي القعدة على ابن العطار ونقل الي التاج وأخرج ميتا
على رأس حمال ليلة الاربعاء ثاني عشر ذي القعدة فثارت به العامة والقوه من
على رأس الحمال وشدوا في ذكره جبلا وسحبوه في البلد وكانوا يضعون في يده
منرفة يعنى انها قلم وقد غمست تلك المنرفة في العذرة ويقولون وقع لنا يامولانا
هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم ثم خلع منهم ودفن

وفي هذه السنة في ذي القعدة نزل توران شاه أخو السلطان عن بعلبك فطلب عوضها الاسكندرية فاجابه السلطان الي ذلك وأقطع بعلبك لعزيز الدين نغر شاه بن شاهنشاه بن أيوب فسار اليها نغر شاه وسار شمس الدولة توران شاه الي الاسكندرية وأقام بها الي أن مات *

﴿ ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل ﴾

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسة وفي هذه السنة ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل والديار الجزرية وكان مرضه السل وطال وكان عمره نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة ابيض اللون عاقلاً عادلاً عفيفاً شديداً الغيرة لا يدخل بيته غير الخدم اذا كانوا صغاراً فاذا كبر أحدهم منعه وكان عفيفاً عن أموال الرعية مع شح كان فيه وأوصي بالملكه بعده الي أخيه عز الدين مسعود بن مودود وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجار شاه فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيباز *

وفي هذه السنة سار السلطان الي جهة قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ووصل الي رعبان ثم اصطالحوا فقصده صلاح الدين بلاد ابن ليون الارمني وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى اطلقها

وفيها توفي شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الاكبر بالاسكندرية وكان له معها أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون اليه الاموال من زبيد وعدن وغيرها وكان أجود الناس واستخام كفا يخرج كل ما يحمل اليه من اموال اليمن ودخل الاسكندرية ومع هذا فلما مات كان عليه نحو

مئتي الف دينار مصرية فوفها أخوه صلاح الدين عنه لما وصل الي مصر
في هذه السنة في شعبان واستخلف بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن
شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك *

ثم دخل سنة سبع وسبعين وخمسمائة وفيها عزم البرنس صاحب الكرك
على المسير الي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحي
الشرقية وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان بدمشق فجمع
جموعا وقصد بلاد الكرك وأغار عليها وأقام في مقابلة البرنس ففرق البرنس
جموعه وانقطع عزمه عن الحركة *

وفيها وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف فخشي السلطان
صلاح الدين على اليمن فجهز اليه عسكرياً مع جماعة من أمرائه فوصلوا الي اليمن
واستولوا عليه وكان نواب توران شاه على عدن عز الدين عثمان وعلى زبيد
حطان بن كامل بن منقذ الكناني من بيت صاحب شيزر *

﴿ ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب ﴾

في هذه السنة في رجب توفى الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين
محمود بن زنكي بن اقسنتر صاحب حلب وعمره نحو تسع عشرة سنة ولما
اشتد به مرض القولنج وصف له الاطباء الحمر فات ولم يستعمله وكان
حليماً عفيف اليد والفرج واللسان ملازماً لامور الدين لا يعرف له شيء مما
يتعاطاه الشباب وأوصى بملك حلب الي ابن عمه عز الدين مسعود صاحب
الموصل فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قياز من الموصل الي حلب
واستقر في ملكها . ولما استقر مسعود في ملك حلب كاتبه أخوه عماد
الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في ان يعطيه حلب ويأخذ منه سنجار

فأشار قياز بذلك فلم يمكن مسعودا الا موافقته فأجاب الى ذلك فسار عماد الدين الى حلب وتسلمها وسلم سنجار الى أخيه مسعود وعاد مسعود الى الموصل

﴿ ذكر مسير السلطان صلاح الدين الى الشام ﴾

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وفيها خامس محرم سار صلاح الدين من مصر الى الشام * ومن عيب الاتفاق انه لما برز من القاهرة وخرجت أعيان الناس لوداعه أخذ كل منهم يقول شيئا في الوداع وفراقه وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأشد

تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه وتكدر المجلس على الحاضرين فلم يعد صلاح الدين بعدها الى مصر مع طول المدة وسار السلطان وأغار في طريقه على بلاد الافرنج وغنم ووصل الى دمشق في حادى عشر صفر من هذه السنة . ولما سار صلاح الدين الى الشام اجتمعت الافرنج قريب الكرك ليكونوا على طريقه فاتهز فرخشاہ نائب السلطان الفرصة وسار الى الشقيف بعساكر الشام وفتحها وأغار على ما يجاوره من بلاد الافرنج وأرسل الى السلطان وبشره بذلك *

﴿ ذكر ارسال سيف الاسلام الى اليمن ﴾

في هذه السنة سير السلطان أخاه سيف الاسلام طفتكين الى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن منها وكان بها حطان بن منقذ الكناني وعز الدين عثمان الزنجيلي قد عادا الى ولايتها فان الامير الذي كان سيره السلطان نائبا

الى اليمن تولى وعزلها فعاتد بين حطان و عثمان الذين قائمة فوصل سيف الاسلام الى زيد فتحصن حطان في بعض القلاع فلم يزل سيف الاسلام يتلطف به حتى نزل اليه فأحسن صحبته ثم ان حطان طاب دستورا الى الشام فلم يجبه الا بعد جهد فجز حطان اثقاله قدامه ودخل حطان ليودع سيف الاسلام فقبض عليه وأرسل فالسترجع اثقاله وأخذ جميع أمواله . وكان من جملة ما أخذه سيف الاسلام سبعون غلاف زردية مملوءة ذهباً عينا ثم سجن حطان في بعض قلاع اليمن فكان آخر العهد به . فأما عثمان الزنجبيلي فانه لما جرى لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام وسير أمواله في البحر فصادفهم مركب فيها أصحاب سيف الاسلام فاخذوا كل مالعثمان وصفت بلاد اليمن لسيف الاسلام *

﴿ ذكر غارات السلطان صلاح الدين وما استولى عليه من البلاد ﴾

في هذه السنة سار السلطان من دمشق في ربيع الاول ونزل قريب طبرية وشن الغارات على بلاد الافرنج مثل بانياس وجنين والغور فنم وقتل وعاد الى دمشق ثم سار عنها الى بيروت وحصرها وأغار على بلادها ثم عاد الى دمشق ثم سار من دمشق الى البلاد الجزرية وعبر الفرات من البيرة فسار معه مظفر الدين بن زين الدين وكان حينئذ صاحب حران وكاتب السلطان ملوك تلك الاطراف واستمالهم فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وصار معه ونازل السلطان الرها وحصرها وملكها وسلمها الى مظفر الدين كوكبوري بن قطب الدين بن ينال بن حسان المنبجي فسار ينال الي عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم سار صلاح الدين الي الحابور وملك قرسيسية وماكسين وعربان والحابور واستولى على

خابور جصيعة ثم سار الي نصيبين وحاصرها وملك المدينة ثم ملك القلعة ثم أقطع نصيبين أميراً كان معه يقال له أبو لهيजा السمين ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيام للحصار وشحنوها بالرجال والسلاح فحصر الموصل وأقام عليها منجنيقاً فأقاموا عليه من داخل المدينة تسعة مجانيق وضابق الموصل فنزل السلطان محاذاً باب كندة ونزل صاحب حصن كيفا على باب الجسر ونزل تاج الملوك توري أخو صلاح الدين على باب العمادي وجري القتال بينهم وكان ذلك في شهر رجب فلما رأى أن حصارها يطول رحل عن الموصل الي سنجار وحاصرها وملكها واستتاب بها سعد الدين بن معين الدين من اكابر الامراء وأحسنهم صورة ومعنى ثم سار السلطان الي حران وعزل في طريقه عن نصيبين أبا لهيजा السمين

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولاً في بحر أيلة وسار في البحر فرقتان فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل وبعثوا المسلمين في تلك النواحي فانهم لم يعهدوا بهذا البحر افرنجاً قط وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائباً عن أخيه السلطان فعمر أسطولاً في بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين الحاجب لؤلؤ وهو متولي الاسطول بديار مصر وكان مظفراً شجاعاً فسار لؤلؤ مجدداً في طلبهم وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسره ثم سار في طلب الفرقة الثانية وكانوا قد عزموا على الدخول الي الحجاز ومكة والمدينة حرسهما الله تعالي فسار لؤلؤ يقفوا أثرهم فبلغ رابع فادركهم بساحل الحوار وتقاتلوا أشد

قتال فظفره الله تعالى بهم وقتل لؤاؤ أكثرهم وأخذ الباقين أسرى وأرسل بعضهم الي مني لينجروا بها وعاد بالباقيين الي مصر ففتوا عن آخرهم وفي هذه السنة توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بلبلك وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق وهو ثقة من بين أهله وكان فرخشاه شجاعاً كريماً فاضلاً وله شعر جيد ووصل خبر موته الي صلاح الدين وهو في البلاد الجزرية فارسل الي دمشق شمس الدين بن محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها وأقر بلبلك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور وفيها توفي بدمشق مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الفقيه الشافعي ولد سنة خمس وخمسمائة وهو الملقب قذاب الدين وكان اماماً فاضلاً في العلوم الدينية قدم الي دمشق وصنف عقيدة للسلطان صلاح الدين وكان السلطان يقرئها اولاد الصغار *

بذكر مملكة السلطان صلاح الدين من البلاد *

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة وفيها ملك السلطان حصن آمد بعد حصار وقتال في العشر الاول من محرم وسلمها الي نور الدين محمد بن قره أرسلان بن داود بن سكهان بن أرتق صاحب حصن كيفا ثم سار الي الشام وقصد تل خالد من أعمال حلب وهلكها ثم سار الي عينتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود ابن زنكي وكان قد سلم نور الدين عينتاب الي اسماعيل المذكور فبقيت معه الي الآن فحصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها اليه فأقره السلطان عليها وبقي في خدمة السلطان ومن جملة أمراءه ثم سار السلطان الي حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي وطال الحصار اليه وكان قد كثرت اقتراحات أمراء

حلب عليه وقد ضجر من ذلك وكره حلب لذلك فاجاب السلطان الي تسليم حلب على أن يعوض عنها سنجار ونصيدين والخابور والرقة وسروج واتفقوا على ذلك وسلم حلب الي السلطان في صفر من هذه السنة فكان ينادى أهل حلب على عماد الدين المذكور «يا حمار. بع حلب بسنجار.» واشترط السلطان على عماد الدين المذكور الحضور الى خدمته بنفسه وعسكره اذا استدعاه ولا يحتج بحجة عن ذلك ومن الاتفاقات العجيبة ان محيي الدين بن الزكي قاضى دمشق مدح السلطان بقصيدة منها

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر * مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وكان من جملة من قتل على حلب تاج الملوک توري بن أيوب أخو

السلطان الأصغر وكان كريما شجاعا طعن في ركبته فانفلقت فمات منها

ولما استقر الصلح عمل عماد الدين زنكي دعوة للسلطان واحتفل فينماهم

في سرورهم اذ جاءهم انسان فاسر الي السلطان بموت أخيه توري فوجد عليه

في قلبه وجدا عظيما وأمر بتجهيزه ولم يعلم السلطان في ذلك الوقت أحد ممن

كان في الدعوة بذلك لئلا يتأكد عليهم ما هم فيه وكان يقول السلطان ما وقعت

عينا حلب رخيصة بموت توري وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم

ولما ملك السلطان حلب أرسل الي حارم وبها سرخك الذي ولاه

الملك الصالح في تسليم حارم وجرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حال

وكتب سرخك الافرنج فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم الي

السلطان فتسلمها وقرر أمر حلب وبلادها وأقطع اعزاز أميرا يقال له سليمان

ابن جندر

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة قبض عز الدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قياز *

ولما فرغ السلطان من تقرير أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي وسار الي دمشق وتجهز منها للغزو فعبهر نهر الاردن تاسع جمادى الآخرة فاغار على بيسان وحرقتها وشن الغارات على تلك النواحي ثم تجهز السلطان للكرك وأرسل الي نائبه بمصر وهو أخوه الملك العادل أن يلاقه على الكرك فسار واجتمعا عليها وحصر الكرك وضيق عليها ثم رحل عنها في منتصف شعبان وسار معه أخوه وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر الي مصر نائباعنه موضع الملك العادل ووصل السلطان الي دمشق وأعطى أخاه أبا بكر العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها وسيره اليها في شهر رمضان من هذه السنة وأحضر ولده الظاهر منها الي دمشق *

وفي هذه السنة في أواخرها توفي شاهر من بن سكرمان بن ظبير الدين ابراهيم بن سكرمان القطبي صاحب خلاط وقد تقدم ذكر ملك شاهر من المذكور في سنة احدي وعشرين وخمسمائة وكان عمر سكرمان لما توفي أربعاً وستين سنة ولما مات سكرمان كان بكثر مملوك أبيه بميفارقين فلما سمع بكثر بموته سار من ميفارقين ووصل الي خلاط وكان أكثر أهلها ومماليك شاهر من متفقين معه وأول وصوله استولي على خلاط وتملكها وجلس على كرسي شاهر من واستقر في مملكة خلاط حتي قتل في سنة تسع وثمانين وخمسمائة حسبما ذكره ان شاء الله تعالي



﴿ ذكر غزو السلطان الكرك ﴾

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسة و فيها في ربيع الآخر سار السلطان من دمشق للغزاة وكتب الي مصر فسارت عساكرها اليه ونازل الكرك وحاصره وضيق على من به ربح الكرك وبقيت القلعة وليس بينها وبين الربح غير خندق حبيب وقصد السلطان طمه فلم يقدر لكثرة المقاتلة فجمعت الافرنج فارسها وراجلها وقصدوه ولم يمكن السلطان الا الرحيل فرحل عن الكرك وسار اليهم فأقاموا في أماكن وعرة وأقام السلطان قبالتهم وسار من الافرنج جماعة ودخلوا الكرك فعلم بامتناعه عليه وسار الي نابلس ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسبي فأكثر ثم نزل الي سبسطية وبها مشهد زكرياء عليه السلام فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين ثم سار الي جبنين ثم عاد الي دمشق *

وفي هذه السنة توفي شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل ابن أبي سعيد أحمد وكان قد سار من عند الخليفة الي السلطان في رسالة ومعه شهاب الدين بشير ليصلح بين صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل فلم ينتظم حال واتفق انهما مرضا بدمشق وطلبا المسير الي العراق وسارا في الحر ومات بشير في السخنة ومات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرجبة ودفن بمشهد البوق وكان أوحد زمانه قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا

وفيها في محرم أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل مجاهد الدين قياز من الحبس وأحسن اليه



﴿ ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل ﴾

ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسة وثمانون وفيها حصر السلطان الموصل وهو حصاره الثاني فأرسل اليه عز الدين والدته وابنة عمه نور الدين بن زنكي وغيرها من النساء وجماعة يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم فرفضوا واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين لا سيما وفيهن بنت نور الدين وحاصر الموصل وضائقها وبلذنه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الآخر من هذه السنة فسار من الموصل الي جهة خلاط باستدعاء أهلها لملكها وفي هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قره أرسلان بن داود صاحب حصن كينا وآمد وملك بعده ولده سكرمان ولقب قطب الدين وكان صغيرا فقام بتدييره القوام بن سماق الاسعدي وحضر سكرمان الي السلطان وهو نازل على ميا فارقين فآقره على ما كان بيد والده وأقام معه أميراً من أصحاب سكرمان المذكور *

﴿ ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميا فارقين ﴾

لما رحل السلطان عن الموصل جعل طريقه على ميا فارقين وكانت اصحاب ماردين الذي توفي وفيها من يحفظها من جهة شاه أرمن صاحب خلاط المتوفي فحاصرها السلطان وملكها في سلخ جمادى الاولى ثم ان السلطان رجع عن قصد خلاط الي الموصل فجاءه رسل عز الدين مسعود يسأل الصلح واتفق حينئذ أن السلطان مرض وسار من كفر زمارعائدا الي حران فلحقته رسل صاحب الموصل بالاجابة الي ماطلب وهو أن يسلم صاحب الموصل السلطان شهرزور واعمالها وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب وأن

يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل ومابيده وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير وتسلم السلطان ذلك واستقر الصالح وأمنت البلاد ووصل السلطان الي حران وأقام بهامريضا واشتد به المرض حتى أيسوا منه ثم انه عوفي وعاد الي دمشق سنة اثنتين وثمانين من محرم. ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركوه بن شاذي صاحب حمص الي حمص وكاتب بعض اكابر دمشق في أن يسلموا اليه دمشق اذا مات السلطان وفي هذه السنة ليلة عيد الاضحى شرب بجمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي فأصبح ميتا قيل ان السلطان هو الذي دس عليه من سقاه سما لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه والامات أقر السلطان حمص وما كان بيده على ولده شيركوه بن محمد وعمره اثنا عشرة سنة وخلف صاحب حمص شيئا كثيرا من الدواب والآلات وغيرها فاستعرضها السلطان عند نزوله بجمص في عوده من حران وأخذ اكثرها ولم يترك الا ما لا خير فيه

﴿ ذكر نقل الملك العادل من حلب واخراج الملك الافضل

ابن السلطان من مصر الي دمشق ﴾

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة وفيها أحضر السلطان ولده الملك الافضل من مصر وأقطعه دمشق وسببه أن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان كان نائب عمه بمصر وكان معه الملك الافضل فأرسل تقي الدين يشتكى من الافضل اني لا اتمكن من استخراج الخراج فاني اذا احضرت من عليه الخراج واردت عقوبته يطلقه الملك الافضل فأرسل السلطان أخرج ابنه الافضل من مصر وأقطعه دمشق وتغير السلطان على تقي الدين

في الباطن فانه ظن انه انما أخرج ولده من مصر ليمتلك مصر اذا مات
السلطان ثم أحضر أخاه الملك العادل من حلب وجعل معه ولده العزيز عثمان
ابن السلطان نائباً عنه بمصر واستدعى تقي الدين من مصر . فقيل انه توقف
عن الحضور وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولي على بعض بلاد افريقية
وبرقة من المغرب وبلغ السلطان ذلك فساءه وأرسل يستدعي تقي الدين
ويلاطفه فحضر . ولما حضر تقي الدين الى السلطان زاده على حماة منبج
والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع اعمالها واستقر العادل
والعزيز عثمان في مصر . ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل اقطعه
عوضاً حران والرها*

﴿ ذكر وفاة البهلوان وملك اخيه قزل ﴾

وفي هذه السنة في اولها توفي البهلوان محمد بن الدكر صاحب بلد الجبل
وهمدان والري واصفهان واذربيجان وارانة وغيرها من البلاد وكان عادلاً
حسن السيرة وملك البلاد بعده اخوه قزل ارسلان واسمه عثمان وكان السلطان
طغريل بن ارسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي مع البهلوان
وله خطبة في بلاده وليس له من الامر شيء فلما مات البهلوان خرج طغريل
عن حكم قزل وكثر جمعه واستولى على بعض البلاد وجرت بينه وبين قزل
حروب

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة غدر البرنس صاحب الكرك واخذ قافلة عظيمة من
المسلمين واسرهم فارسل السلطان يطلب منه اطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت

بينهم على ذلك فلم يفعل فنذر السلطان انه ان اظفره الله به قتله بيده

﴿ ذكر غزوات السلطان وفتوحاته ﴾

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وفيها جمع السلطان العساكر وسار بفرقة من العسكر وضايق الكرك خوفا على الحجاج من صاحب الكرك وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل فاغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية وغنموا شيئا كثيرا ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف وتأخرت القلعة وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعته فارسلت الأفرنج إلى القومص المذكور القسوس والبطرك يهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه فصار معهم واجتمع الأفرنج للقاء السلطان

﴿ ذكر وقعة حطين وهي الوقعة العظيمة التي

فتح الله بها الساحل وبيت المقدس ﴾

ولما أخذ السلطان مدينة طبرية اجتمعت الأفرنج وملوكهم بفارسهم وراجهم وساروا إلى السلطان فركب السلطان من عند طبرية وسار اليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال ولما رأى القومص شدة الأمر حمل على مقدمة المسلمين وهناك تقى الدين صاحب حماة فأفرج له وعطف عليه ونجا القومص ووصل إلى طرابلس وبقي مدة يسيرة ومات غنبا ونصر الله تعالى المسلمين وأحدقوا بالأفرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلا وأسروا وكان من جملة من أسر ملك الأفرنج الكبير والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب حبييل وابن الهنغري ومقدم الداوية وجماعة من الأبتارية

وما أصيب الا فرنج منذ خرجوا الى الشام في سنة احدى وتسعين واربعمائة
الى الآن بمصيبة مثل هذه الوقعة

ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته وأحضر ملك الا فرنج
وأجلسه الى جانبه وكان الحر والعطش به شديدا فسقاه السلطان ماء مثلوجا
فسقى ملك الا فرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك فقال له السلطان هذا
الملعون لم يشرب الماء باذني فيكون أمانا له ثم كلم السلطان البرنس ووبخه
وقرعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين وقام السلطان بنفسه فضرب
عنقه فارتعدت فرائص ملك الا فرنج فسكن جاشه . ثم عاد السلطان الى طبرية
وفتح قلعتها بالامان ثم سار الى عكا وحاصرها وفتحها بالامان ثم أرسل الى أخيه
العادل فنازل مجد اليايا وفتحه عنوة بالسيف ثم فرق السلطان عسكره ففتحو
الناصره وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلشا والغولة وغيرها من البلاد المجاورة
لعكا بالسيف وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الاماكن وأرسل فرقة الى
نابلس فملكوا قلعتها بالامان ثم سار الملك العادل بعد فتح مجد اليايا الى يافا
وفتحها عنوة بالسيف ثم سار السلطان الى تبنين ففتحها بالامان ثم سار الى صيدا
فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لتسع بقين من جمادى الاولى
من هذه السنة ثم سار الى بيروت فحاصرها وتسلمها في السابع والعشرين من
جمادى الاولى بالامان وكان حصرها مدة ثمانية أيام وكان صاحب حبييل من
جملة الاسرى فبذل حبييل بان يسلمها ويطلق سراحه فأجيب الي ذلك وكان
صاحب حبييل من أعظم الا فرنج واشدهم عداوة للمسلمين ولم تكن عاقبة اطلاقه
حميدة وأرسل السلطان وتسلم حبييل وأطلقه وفيها حضر المركيس في سفينة
الي عكا وهي للمسلمين ولم يعلم المركيس بذلك واتفق هجوم الهواء فراسل

المركيس الملك الافضل وهو بعكا يقترح أمرا بعد أمر والملك الافضل يجيب الى ذلك المركيس الى أن هب الهواء فأقلع المركيس الى صور واجتمع عليه الافرنج الذين بها وملك صور وكان وصول المركيس الى صور واطلاق الافرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالامان وحملهم الى صور من أعظم أسباب الضرر الذي حصل حتى راحت عكا وقوى الافرنج بذلك

ثم سار السلطان الي عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوما وتسلمها بالامان سلخ جمادي الآخرة ثم بث السلطان عسكره ففتحوا الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنظرون وغير ذلك . ثم سار السلطان ونازل القدس وبه من النصارى عدد يفوت الحصر وضائق السلطان السور بالنقاين واشتد القتال وتقبوا السور وطلب الافرنج الامان فلم يجبهم السلطان الى ذلك وقال لا آخذها الا بالسيف مثل ما أخذها الافرنج من المسلمين فعاودوه في الامان وعرفوه ما هم عليه من الكثرة وانهم ان أسوا من الامان قاتلوا خلاف ذلك القتال فأجابهم السلطان الى ذلك وشرط أن يؤدي كل من بهامن الرجال عشرة دنانير عشرة دنانير وتؤدي النساء خمسة ويؤدوا عن كل طفل دينارين وأن من عجز عن ذلك يكون أسيرا فأجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب وكان يوما مشهودا ورفعت الاعلام الاسلامية على أسوار المدينة ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور نغان المرتبون في ذلك ولم يحملوا الا القليل

وكان على رأس قبة الصخرة صليب مذهب قساق المسلمون واقتلعوه فسمع لذلك ضجة لم يهد مثلها من الافرنج بالتفجع والتوجع وكان الافرنج قد عملوا غربي المسجد الاقصي نهرا ومستراحا فأمر السلطان بازالة ذلك

واعادة الجامع الى ما كان عليه . وكان نور الدين محمود بن زنكي قد عمل منبراً بحلب تعب عليه مدة وقال هذا لاجل القدس فأرسل السلطان أحضر المنبر من حلب وجعله في المسجد الأقصى وأقام السلطان بعد فتح القدس بظاهره الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وتقدم بعمل الربط والمدارس الشنقوية

ثم رحل السلطان الي عكا ورحل منها الي صور وصاحبها المركيس قد حصنها بالرجال وحفر خندقها ونزل السلطان على صور تاسع عشر رمضان وحاصرها وضايقتها وطلب الاسطول فوصل اليه في عشر شوال فاتفق أن الافرنج كبسومهم في الشوانى وأخذوا خمس شوان ولم يسلم من المسلمين الا من سبج ونجا وأخذ الباقون وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في آخر شوال أول كانون الاول وأقام بعكا وأعطى العساكر الدستور فصار كل واحد الي بلده وبقي السلطان بعكا في حلقتيه وأرسل الي هونين وفتحها بالامان

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة سار شمس الدين محمد بن المقدم بعد فتح القدس حاجا وكان هو أمير الحاج الشامي ليجمع بين النزاة وزيارة القدس والحليل عليه السلام والحج في عام واحد فسار ووقف بعرفات ولما أفاض أرسل اليه طاستكين أمير الحاج العراقي يمنعه من الافاضة قبله فلم يلتفت اليه فسار العراقيون واقتتلوا مع الشاميين فقتل بينهم جماعة وابن المقدم يمنع أصحابه من القتال فجرح ومات شهيدا ودفن بمقبرة المعلى ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة فشتي السلطان في هذه السنة بعكاشم

سار بمن معه وقصد كوكب وجعل على حصارها أميراً يقال له قايماز النجمي وسار منها في ربيع الاول ودخل دمشق ففرح الناس بقدمه وكتب الى الاطراف باجتماع العساكر وأقام في دمشق خمسة أيام وسار من دمشق منتصف ربيع الاول ونزل على بحيرة قدس غربي حصن فأتته العساكر بها فأولهم عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين . ولما تكاملت عساكره رحل ونزل تحت حصن الاكراد وشن الغارات على بلاد الافرنج وسار من حصن الاكراد فنزل على أنطرسوس فوجد الافرنج قد أدخلوا أنطرسوس فسار الى مرقية فوجدهم قد أدخلوها أيضاً فسارت تحت المرقب وهو الاستبار فوجده لا يرام ولا لاحد فيه مطمع فسار الى جبلة ووصل اليها ثامن جمادي الاولى وتسلمها حالة وصوله فجعل فيها لحفظها الامير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر ثم سار السلطان الى اللاذقية فوصل اليها في الرابع والعشرين من جمادى الاولى ولها قلعتان فحصر القلعتين . ولما ملك السلطان اللاذقية سلمها الي الملك المظفر تقي الدين فعمرها وحصن قلعتها . وكان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع والعمارة عليها كما فعل بقلعة حماة ثم رحل السلطان عن اللاذقية في التاسع والعشرين من جمادى الاولى الي صهيون فحاصرها وضائقها وطلب أهلها الامان فلم يجبهم الا على امان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوا الي ذلك وتسلم السلطان قلعة صهيون وسلمها الي أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين ثم فرق عسكره في تلك الجبال فملكوا حصن بلاطنوس وكان الافرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه وملكوا حصن العبد وحصن الجمهونين ثم سار السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة ووصل الي قلعة بكراس فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشيفر فحصرها

ووجدتها منيعة وضائقها فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الفرع وطلبوا الامان
 وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالامان فارس السلطان الملك
 الظاهر صاحب حلب فحاصر سرمينية وضائقها وملكها واستنزل أهلها على
 قطعة قررها عليهم وهدم الحصن وعفى أثره وكان في الحصن وفي الحصون
 المذكورة من أسري المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقة
 ثم سار السلطان من الشفر الي برزية ورتب عسكره ثلاثة أقسام وداومها
 بالزحف وملكها بالسيف في السابع والعشرين من جمادى الآخرة وسبي
 وأسر وقتل أهلها . قال مؤلف الكامل ابن الاثير كنت مع السلطان في
 مسيره وفتح هذه البلاد طالب الغزاة فأحكي ذلك عن مشاهدة ثم سار السلطان
 فنزل على جسر الحديد وهو على العاصي بالقرب من انطاكية فأقام عليه أياما
 حتي تلاحق به من تأخر من العسكر ثم سار الي دربساك ونزل عليها ثامن
 رجب وحاصرها وضائقها وتسلمها بالامان على شرط أن لا يخرج منها أحد
 الا بئياه فقط وتسلمها تاسع عشر رجب . ثم سار عن دربساك الي بغراس
 فحاصرها وتسلمها بالامان على حكم أمان دربساك وأرسل يميند صاحب
 انطاكية الي السلطان يطلب منه الهدنة والصلح وبذل اطلاق كل أسير عنده
 فأجابه السلطان الي ذلك واصطاحوا ثمانية أشهر وكان صاحب انطاكية
 حينئذ أعظم ملوك الافرنج في هذه البلاد فان أهل طرابلس سلموا
 اليه طرابلس

ولما فرغ السلطان من أمر هذه البلاد والهدنة سار الي حلب ثالث
 شعبان وسار منها الي دمشق واعطي عماد الدين زنكي دستورا وكذلك اعطي
 غيره من العساكر الشرقية وجعل طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر

ابن عبد العزيز رضى الله عنه فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي وكان مقيما هناك وكان من عباد الله تعالى الصالحين وله كرامات ظاهرة . وكان مع السلطان أبو فليته الامير قاسم بن مهنا الحسيني صاحب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وشهد معه مشاهدته وفتوحاته وكان السلطان يتبرك برؤيته ويتمن بصحبته ويرجع الي قوله ودخل السلطان دمشق في شهر رمضان المعظم فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا فقال السلطان ان العمر قصير والأجل غير مأمون وكان السلطان لما سار الي البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحاصرها وخلى أخاه العادل في تلك الجهات يباشر ذلك فارس أهل الكرك يطلبون الامان فأمر الملك العادل المباشرين لحصارها بتسليمها فقتلوا الكرك والشوبك وما بتلك الجهات من البلاد *

ثم سار السلطان من دمشق في منتصف رمضان الى صفد فحصرها في ذي القعدة وسير أهلها الي صور وكان اجتماع أهل هذه القلاع في صور من أعظم اسباب الضرر على المسلمين ظهر ذلك فيما بعد ثم سار السلطان الي القدس فعيد فيه عيد الاضحى ثم سار الي عكا فاقام فيها حتي انسلخت السنة * وفي هذه السنة ارسل قزل ابن الدكرز يستنجد بالخليفة الامام الناصر على طغريل بن ارسلان بن طغريل السلجوقي ويحذره عاقبة امره فارس الخليفة عسكرا الي طغريل والتقوا ثامن ربيع الاول قرب همدان فانهمزم عسكر الخليفة وغنم طغريل أموالهم وأسر مقدم العسكر جلال بن عبد الله وزير الخليفة * ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة وفيها سار صلاح الدين ونزل بمرج عيون وحضر اليه صاحب شقيف ارتون وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان وكان

اسم صاحب الشقيف ارناط فقال له السلطان في التسليم فقال لا يوافقني عليه
اهلى فامسكه السلطان وبعثه الى دمشق فحبس *

﴿ ذكر حصار الافرنج عكا ﴾

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التي أخذها السلطان بالامان فكثرت
جمعهم حتي صاروا في عالم لا تحصى كثرته وأرسلوا الى البحرين يستنجدون
وصوِّروا صورة المسيح وصورة عربي يضرب المسيح وقد أدماه وقالوا هذا
نبي العرب يضرب المسيح فخرجت النساء من بيوتهن ووصل من الافرنج
في البحر عالم لا يحصون كثرة وساروا الي عكا من صور ونازلوها في منتصف
رجب من هذه السنة وضائقوا عكا وأحاطوا بسورها من البحر الى البحر
ولم يبق للمسلمين اليها طريق فسار اليهم السلطان ونزل قريب الافرنج وقائلهم
في مستهل شعبان وباتوا على ذلك وأصبحوا فحمل تقى الدين صاحب حماة
من ميمنة السلطان على الافرنج فأزالهم عن موقفهم والتصق بالسور وانفتح
الطريق الي المدينة يدخل المسلمون ويخرجون وأدخل السلطان الي عكا عسكر
نجدة وكان من جملتهم أبو الهيجاء السمين وبقي المسلمون يغادون القتال
ويراحونه الي العشرين من شعبان ثم كان بين المسلمين وبينهم وقعة عظيمة
فان الافرنج اجتمعوا وضربوا مع السلطان مصاف وحملوا على القلب فازلوه
وأخذوا يقتلون في المسلمين الي أن بلغوا خيمة السلطان وانحاز السلطان الي
جانب وانضاف اليه جماعة وانقطع مدد الفرنج واشتغلوا بقتال الميمنة فحمل
السلطان على الافرنج الذين خرقوا القلب وعطف عليهم العسكر فانهم قتلوا
وكان قتلي الافرنج نحو عشرة آلاف نفس ووصل المهزومون بعضهم الي طبرية
وبعضهم وصل الي دمشق *

وجافت الارض بعد هذبه الوقعة ولحق السلطان مرض وحدث له قولنج فاشار عليه الامراء بالانتقال من ذلك الموضع فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر شهر رمضان الي الخروبة فلما رحل تمكن الافرنج من حصار عكا وانبسطوا في تلك الارض . وفي تلك الحال وصل اسطول للمسلمين في البحر مع حسام الدين لؤلؤ . وكان شهما فظفر ببطسة الافرنج فاخذها ودخل بها الى عكا فقويت قلوب المسلمين وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر الي أخيه السلطان فقويت نفوس المسلمين بوصوله

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

فيها توفي بالخروبة الفقيه عيسى وكان مع السلطان وهو من أعيان عسكره وكان جنديا فقيها شجاعا وكان من أصحاب الشيخ أبي القاسم البرزي ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسة وفيها رحل السلطان عن الخروبة وعاد الى قتال الافرنج على عكا وكان الافرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبراج طول البرج ستون ذراعا جاءوا بخشبها من جزائر البحر وعملوها طبقات وشحنوها بالسلاح والمقاتلة وأبسوها جلود البقر والطين بالحل لئلا تعمل فيها النار فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الاول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح ثم أحرقوا الثاني والثالث وانبسطت نفوس المسلمين بذلك بعد الكآبة ووصلت الى السلطان العساكر من البلاد وبلغ المسلمين وصول ملك الالمان وكان قد سار من بلاده وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل فاهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية فسלט الله تعالى على الالمان الغلاء والوباء فهلك أكثرهم في الطريق . ولما وصل ملكهم الي بلاد الارمن نزل في نهر هناك يغتسل ففرق وأقاموا ابنه مقامه فرجع من عسكره طائفة

لي بلادهم ولم يصل مع ابن ملك الالمان الى الافرنج الذين على عكا غير قدر
لف مقاتل وكفى الله المسلمين شرهم وبقي السلطان والافرنج على عكا يتناوشون
لقتال الي العشرين من جمادي الآخرة فخرجت الافرنج من خنادقهم
الفارس والراجل وأزالوا الملك العادل عن موضعه وكان معه عسكر مصر
عظمت عليهم المسلمون وقتلوا من الافرنج خلقا كثيرا فعادوا الي خنادقهم
حصل للسلطان منصف فانقطع في خيمته ولولا ذلك لكانت الفيصلة ولكن
ذا أراد الله أمرا فلا مرد له

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

وفي هذه السنة لما قوي الشتاء واشتدت الرياح أرسل الافرنج
لمحاصرون عكا سرا كبهم الى صور خوفا عليها أن تنكسر وانفتح الطريق الى عكا
ي البحر وأرسل البديل اليها وكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف
لواصلين اليها فحصل التفريط بذلك لضعف البديل

وفيها في ثامن شوال توفي زين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك
ساحب اربل وكان مع السلطان بعسكره ولما توفي أقطع السلطان اربل أخاه
مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين على كوجك وأضاف اليه شهرزور
أعمالها وارتجع ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها وسار مظفر الدين
لي اربل وملكها

وفيها أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها
سميساط والموزر الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما في يده وهو
يا فارقين ومن الشام حماة والمرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبله واللاذقية
بلاطنس وبكراس

﴿ ذكر استيلاء الافرنج على عكا ﴾

ثم دخات سنة سبع وثمانين وخمسة وستمائة واستمر حصار الافرنج لعكا الى هذه السنة وكانوا قد أحاطوا بها من البحر الى البحر وحفروا عليهم خندقا فلم يتمكن السلطان من الوصول اليهم وكانوا محاصرين لعكا وهم كالمحصورين من خارجهم من السلطان واشتد حصارهم لعكا وضعف من بها عن حفظ البلد وعجز السلطان عن دفع العدو عنهم فخرج الامير سيف الدين على بن أحمد المشطوب وطلب الامان من الافرنج على مال وأسرى يقومون بها للافرنج فاجابوهم الي ذلك وصعدت أعلام الافرنج على عكا ظهريوم الجمعة سابع عشر جمادى الاخرى من هذه السنة واستولوا على البلد بمافيه وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد وقالوا انما نجبسهم ليقوموا بالمال والاسرى وصيلب الصابوت وكتبوا الى السلطان بذلك فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك وطلب منهم اطلاق المسلمين فلم يجيبوا الي ذلك فعلم منهم التندر واستمر أسر المسلمين ثم قتل الافرنج منهم جماعة كثيرة واستمر الباقون في الاسر

وبعد استيلاء الافرنج وتقرير أمرها رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية والمسلمون يساورونهم ويتخطفون منهم ثم ساروا من قيسارية الى أرسوف ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم ووصلوا الي سوق المسلمين فقتلوا من السوقة خلقا كثيرا ثم سار الافرنج الي يافوقد اخلاها المسلمون فلكروها

ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لها ما حصل لعكا فسار اليها وأخلاها وخربها ورتب الحجارين في تقطيع أسوارها وتخريبها فدكها الي الارض ولما فرغ السلطان من تخريب عسقلان رحل ثاني شهر

رمضان الى الرملة فخرّب حصنها وخرّب كنيسة لدّ ثم سار الى القدس وقرر
 أموره وعاد الى مخيمه بالنظرون ثامن شهر رمضان ثم ترأسل الافرنج
 والسلطان في الصّاح على أن يتزوج الملك العادل باخت ملك الانكتارويكون
 للملك العادل القدس ولامرأته عكا فحضر القسيسون وانكروا عليها ذلك
 الا أن يتصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال ثم رحل الافرنج من يافا الى
 الرملة وبقوا كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات فلقوا من ذلك
 شدة شديدة وأقبل الشتاء وحالت الاوحال بينهم فلما رأى السلطان ذلك
 وقد ضجرت العساكر أعظام الدستور وسار الى القدس لسبع بقين من
 ذي القعدة ونزل داخل البلد واستراحوا مما كانوا فيه وأخذ السلطان في
 تعمير القدس وتحصينه وأمر العسكر بنقل الحجارة وكان السلطان ينقل
 الحجارة بنفسه على فرسه ليقّدي به العسكر فكان يجتمع عند العمال في اليوم
 الواحد ما يكفيهم عدة أيام *

﴿ ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر ﴾

كان الملك المظفر قد سار الى البلاد المرتجعة من كوكبورى التي زاده
 اياها عمه السلطان من وراء الفرات وهي حران وغيرها فامتدت عين الملك
 المظفر الى بلاد مجاوريه واستولى على السويداء وحانى والتقى مع بكتر
 صاحب خلاط نكسره وحاصره بخلاط وتملك معظم البلاد ثم رحل عنها
 ونازل ملاذكرد وهي لبكتر وضايقها وكان في صحبته ولده الملك المنصور
 محمد فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد عليه حتى توفى به يوم الجمعة
 لاحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان من هذه السنة وأخفى الملك المنصور
 وفاته ورحل عن ملاذكرد ووصل الى حماة ودفنه بظاھرھا وبني الى جانب

الترية مدرسة وذلك مشهور هناك *

وكان الملك المظفر شجاعاً شديد البأس ركناً عظيماً من أركان البيت الأيوبي وكان عنده فضل وأدب وله شعر حسن واتفق في ليلة الجمعة التي توفي فيها الملك المظفر أن توفي حسام الدين بن محمد بن لاجين وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان فأصيب السلطان في تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته *

ولما مات الملك المظفر راسل ابنه الملك المنصور السلطان واشترط شروطاً نسبه السلطان فيها إلى العصيان وكاد أمره يضمحل بالكليّة فراسل الملك المنصور عمه الملك العادل في استعطاف خاطر السلطان فإبرح العادل بأخيه السلطان يراجع ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه السلطان وقرر للملك المنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه العادل بعد أن شرط السلطان أن العادل ينزل عن كل ما له من الاقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونصف خاصه بمصر وأن يكون عليه في كل سنة ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء إلى القدس ولما استقر ذلك سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها وعاد إلى خدمة السلطان في آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة أعني سنة ثمان وثمانين ولما قدم الملك العادل على السلطان كان الملك المنصور صاحب حماة صحبته فلما رأى السلطان الملك المنصور نهض واعتنقه وغشيه البكاء وأكرمه وأنزله في مقدمة المسكر *

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة في شعبان قتل قزل أرسلان واسمه عثمان بن الدكر

وهو الذي ملك أذربيجان وهمدان واصفهان والري بعد أخيه محمد بن البهلوان وكان قد قوي عليه السلطان طغريل السلجوقي وهزم عسكر بغداد كما تقدم ذكره ثم ان قزل ارسلان تغلب واعتقل السلطان طغريل في بعض البلاد وسار قزل أرسلان بعد ذلك الي اصفهان وتصب على الشفعية وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم وعاد الي همدان وخطب لنفسه بالسلطنة ودخل لينام على فراشه وتفرق عنه اصحابه فدخل اليه من قتله على فراشه ولم يعلم قاتله *

وفيها قدم معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم الي صلاح الدين . وسببه ان والده فرق مملكته على أولاده وأعطى ولده هذا ملطية ثم تغلب بعض اخوته على أبيه وألزمه باخذ ملطية من أخيه المذكور يخاف من ذلك وسار الي السلطان ملطية فإكرمه السلطان وزوجه بآية أخيه الملك العادل وعاد معز الدين الي ملطية في ذي القعدة . قال ابن الاثير لما ركب صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه ترجل معز الدين وترجل السلطان ولما ركب السلطان عضده قيصر شاه وأركبه وكان خلاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان اذ ذاك فسوى ثياب السلطان أيضا فقال بمض الحاضرين في نفسه ما بقيت تبالي يا ابن أيوب بأى موة تموت يركبك ملك سلجوقي ويصلح قاشك ابن أتاك زنكي وفيها قتل أبو الفتح يحيى الملقب شهاب الدين السهروردي الحكيم الفيلسوف بقلمة حلب محبوبا أمر بخنقه الملك الظاهر غازي بأمر والده السلطان قرأ المذكور الاصولين والحكمة بمراعة على مجد الدين ثم سافر الي حلب وكان علمه اكبر من عقله فنسب الي انحلال العقيدة وانه يعتقد مذهب

الفلاسفة فأفتي الفقهاء باباحة دمه لما ظهر من سوء مذهبه واشتهر عنه وكان
 نشدهم في ذلك زين الدين ومجد الدين ابنا جهبل * حكى الشيخ سيف الدين
 الآمدي قال اجتمعت بالسهروردي في حلب فقال لي لا بد أن أملك الارض
 فقلت من أين لك هذا قال رأيت في المنام كأنني شربت ماء البحر فقلت لعل
 ذلك يكون اشتهار علمك وما يناسب هذا فرأيت لا يرجع عما وقع في نفسه
 ووجدته كثير العلم قليل العقل وكان عمره لما قتل ثمانية وثلاثين سنة وله عدة
 مصنفات في الحكمة منها التلويحات والتنقيحات والمشارع والمطارحات وكتاب
 الهياكل وحكمة الاشراف وكان يزعم انه يعرف السيباء وله نظم حسن *
 ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وفيها سارت الافرنج الي عسقلان
 وشرعوا في عمارتها في محرم والسultan بالقدس . وفيها قتل المركيس صاحب
 صور لعنه الله تعالى قتله الباطنية وكانوا قد دخلوا في زي الرهبان الي صور *

﴿ ذكر عقد الهدنة مع الافرنج وعود السلطان الي دمشق ﴾

وسبب ذلك ان ملك الانكشار مرض وطال عليه البيكار فكتب الي
 الملك العادل يسأله للدخول على السلطان في الصلح فلم يجب السلطان الي ذلك
 ثم اتفق رأي الامراء على ذلك لطول البيكار وضجر العسكر وكثرة نفقاتهم
 فاجاب السلطان الي ذلك واستقر امر الهدنة في يوم السبت ثامن عشر
 شعبان وتحالفوا على ذلك في يوم الاربعاء الثاني والمشرين من شعبان ولم
 يحلف ملك الانكشار بل أخذوا يده واعتذر بأن الملوك لا يحلفون وقنع
 السلطان بذلك وحلف الكندهري ابن أخته وخليفته في الساحل وكذلك
 حلف غيره من عظماء الافرنج ووصل ابن لهثعري وباليان الي خدمة السلطان
 ومعها جماعة من المقدمين وأخذوا بد السلطان واستعانوا الملك العادل والملكين

الأفضل والظاهر والملك المنصور والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص
والامجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك والامير بدر الدين دلدرم
الياروقي صاحب تل باشر والامير سابق الدين عثمان ابن الداية صاحب شيزر
والامير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار
وعقدت الهدنة عامة في البحر والبر وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة اشهر
أولها أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان *

وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الافرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها
وحيفا وعملها وعكا وعملها وأن تكون عسقلان خراباً واشترط السلطان
دخول بلاد الاسماعيلية في عقد هدنته واشترط الافرنج دخول صاحب
انطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم وأن تكون لدّ الرملة مناصفة بينهم وبين
المسلمين فاستقرت القاعدة على ذلك

ثم رحل السلطان الى القدس في رابع شهر رمضان وتفقد أحواله
وأمر بتسديد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس وهذه
المدرسة كانت قبل الاسلام تعرف بصند حنة يذكرون أن فيها قبر حنة أم
مريم ثم صارت في الاسلام دار علم قبل أن يملك الافرنج القدس ثم لما
ملك الافرنج القدس أعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام فلما فتح السلطان
القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها الى القاضي بهاء الدين
ابن شداد

ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة من الحجارين لتخريب
عسقلان وأمر أن يخرج من بها من الافرنج وعزم على الحج والاحرام من
القدس وكتب الي أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن بذلك ثم شبطه الامراء

وقالوا لانعتمد على هدة الافرنج خوفا من غدرهم فانتقض عزمه عن ذلك ثم رحل السلطان عن القدس لخمس مضين من شوال الى نابلس ثم الى بيسان ثم الي كوكب فبات بقاعتها ثم رحل الى طبرية ولقيه بها الامير بهاء الدين قراقوش الاسدي وقد خلص من الأسر وكان قد أسر بعكامل أخذها الافرنج مع من أسرفسار قراقوش مع السلطان الى دمشق ثم سار منها الى مصر ثم سار السلطان الي بيروت ووصل الى خدمته بيمند صاحب انطاكية يوم السبت الحادي والعشرين من شوال فاكرمه السلطان وفارقه في غد ذلك اليوم وسار السلطان الى دمشق ودخلها يوم الاربعاء لخمس بقين من شوال وفرح الناس به لان غيبته عنهم كانت مدة أربع سنين وأقام العدل والاحسان بدمشق وأعطى السلطان العساكر الدستور فودّعه ولده الملك الظاهر وداعا لالقاء بعده وسار الى حلب وبقي عند السلطان بدمشق ولده الافضل والقاضي الفاضل وكان الملك العادل قد استأذن السلطان وسار من القدس الى الكرك لينظر في مصالحه ثم عاد الى دمشق طالبا البلاد الشرقية التي صارت له بعد تقي الدين فوصل الي دمشق في الحادي والعشرين من ذي القعدة وخرج السلطان لقاؤه . وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة توفي الامير سيف الدين المشطوب بنابلس وكانت اقطاعه فوقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس وأقطع الباقي للامير عماد الدين أحمد بن المشطوب وأميرين معه

﴿ ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ﴾

﴿ وأخبار الذين تولوا بعده ﴾

في هذه السنة أعني سنة ثمان وثمانين وخمسمائة في منتصف شعبان

توفي السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان ابن قطلوموس بن أرسلان بيغو بن سلجوق وكان ملكه في سنة احدى وخمسين وخمسة وكان ذا سياسة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة وكان له عشرة بنين قد ولى كل واحد منهم قطرا من بلاد الروم واكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور وكان قد أعطاه أبوه سيواس فسوّلت له نفسه القبض على أبيه واخوته والانفراد بالسلطنة وساعده على ذلك صاحب ارزنكان فسار قطب الدين ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية وقال لولده وهو في قبضته أنايين يديك أنفذ أوامرك ثم انه أشهد على والده بأنه جعله ولى عهده ثم سار الى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية والده في القبضه معه وهو يظهر أن مايفعله إنما هو بأمر والده فخرج عسكر قيسارية لربه فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالتغال فرصة فزرب الي ولده سلطان شاه صاحب قيسارية فأكرمه وعظّمه كما يجب عليه فرجع قطب الدين ملكشاه الي قونية وخطب لنفسه بالسلطنة وبقى أبوه يتردد في بلاده بين أولاده كلما ضجر منهم واحد ينقل الي الآخر حتي حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب برغلو فقوي أباه قليج وأعطاه وجمع له وحشد وسار معه الي قونية فلما أخذها من ابنه ملكشاه ثم سار الي اقصر واتفق أن عز الدين قليج أرسلان مرض ومات في التاريخ المذكور فاخذه ولده كيخسرو وعاد به الي قونية فدفنه بها واتفق موت ملكشاه بعد موت أبيه بقليل فاستقر كيخسرو في ملك قونية إذ اثبت انه ولى عهد أبيه ثم ان ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو واخذ منه قونية فزرب كيخسرو الي

الشام مستجيرا بالملك الظاهر صاحب حلب ثم مات ركن الدين سليمان سنة
ستمانه وملك بعده ولده فايح ارسلان بن سليمان فرجع كيخسرو الي بلاد
الروم وازال ملك ابن سيمان وملك بلاد الروم جميعها واستقرت له السلطنة ببلاد
الروم وبقي كذلك الي أن قتل وملك بعده ابنه عز الدين كيكاووس بن كيخسرو
ثم توفي كيكاووس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيتباد بن
كيخسرو وتوفي كيتباد سنة أربع وثلاثين وستمانه وملك بعده ولده غياث
الدين كيخسرو وكسره اثنتي عشرة سنة احدى وأربعين وستمانه وانزع حينئذ ملك
السلطين الساجوقية ببلاد الروم ثم مات غياث الدين كيخسرو وانقضى بموته
سلطين بلاد الروم في الحقيقة لان من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير
مجرد الاسم وخاف كيخسرو المذكور صيحين هما ركن الدين وعز الدين فلما
معامدة مديدة ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة وهرب أخوه عز الدين الي
القسطنطينية وتغاب على ركن الدين معين الدين البرواناه والبلاد في الحقيقة
لثنتي عشرة ان البرواناه قتل ركن الدين وأقام ابنه ركن الدين يختاب ل بالسلطنة
والحكم للبرواناه وهو نائب لثنتي عشرة على ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

وفي هذه السنة غزا شهاب الدين النوري الهند ففهم وقتل مالا يحصى .
وفيهما خرج السلطان طغريل من الحلبس بعد قتل قزل أرسلان بن الدكر
وكان قزل قد انتقله حسبما تقدم ذكره في سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وفيها
توفي راشد الدين سليمان بن محمد وكنيته أبو الحشر صاحب دعوة الاسماعيليه
بقلاع الشام واصله من البصرة



﴿ ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف ابن أيوب ﴾

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان به شق على الأكل ما يكون من المسرة وخرج إلى شرقي دمشق متصيداً وغاب خمسة عشر يوماً وصحبته أخوه الملك العادل ثم عاد إلى دمشق وودعه أخوه العادل وداعاً لالقاء بعدد فمضى إلى الكرك وأقام به حتى بلغه وفاة السلطان وأقام السلطان بدمشق وركب في يوم الجمعة خامس عشر صفر وناقى الحجاج وكان عادته أن لا يركب إلا وهو لا لبس كراغند فركب ذلك اليوم وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم ولم يلبس الكراغند ثم ذكره وهو راكب فطاب الكراغند فلم يجدد قد حملوه معه ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاتته الحج ووصل إليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن ثم عاد السلطان بين البساتين إلى جهة المنبيع ودخل إلى القلعة على الجسر وكانت هذه آخر ركبته فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كسل عظيم وغشيتة نصف الليل حتى صفر أروية وأخذ المرض في التزايد وفصده الأطباء في الرابع فاشتد مرضه وحدث به في التاسع رعشة وغاب ذهنه وامتنع من تناول المشروب واشتد الأرجاف في البلد وغشى الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته وحقق في العاشر حقتين فحصل له راحة وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً ثم لحقه عرق عظيم حتى نفذ من الفراش واشتد المرض ليلة الثاني عشر من مرضه وهي ليلة السابع والعشرين من صفر وحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده في القلعة بحيث أن احتضر في الليل ذكره بالشهادة وتوفي السلطان في الليلة المذكورة أعني في الليلة المسفرة عن نهار الأربعاء السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر

وفاته ووصل القاضي بهاء الدين بن شداد بعد وفاته وانتقاله الى رحمة الله تعالى وكرامته وغسله الفقيه الدولي خطيب دمشق وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الاربعاء المذكور في تابوت مسجي بثوب وجميع ما احتاجه من الثياب في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من جهة حل عرفها وصلى الناس عليه ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضاً فيها وكان نزوله الي جده وقت صلاة العصر من النهار المذكور .

وكان الملك الافضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عند ما اشتد مرضه وجلس للعزاء في القلعة وأرسل الملك الافضل الكتيب بوفاة والده الي أخيه العزيز عثمان بمصر والى أخيه الظاهر غازي بحلب والى عمه الملك العادل ابى بكر بالكرك ثم ان الملك الافضل عمل لوالده تربة قرب الجامع وكانت دار الرجل صالح ونقل اليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ومشى الملك الافضل بين يدي تابوته واخرج من باب القلعة على دار الحديث الي باب البريد وأدخل ووضع قدام المنبر وصلى عليه القاضي محي الدين ابن القاضي زكي الدين ثم دفن وجلس ابنه الملك الافضل في الجامع للعزاء ثلاثة أيام وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة ما لا عظيمًا *

وكان مولد السلطان صلاح الدين بتكرت في شهر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وكان عمره قريباً من سبعة وخمسين سنة وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة وملكه للشام قريباً من تسع عشرة سنة وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبناتاً واحدة وكان أكبر أولاده الملك الافضل نور الدين على بن يوسف ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة وكان العزيز

عثمان أصغر منه بنحو سنتين وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منهما وبقيت
البيت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر

ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزانته غير سبعة واربعين درهما وجرم
واحد صوري وهذا من دخل الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن
دايـل قاطع على فرط كرمه ولم يخلف داراً ولا عقاراً. قال العماد الكاتب
حسبت ما أطلته السلطان في مدة مقامه بمرج عكا من خيل عرب واكاديش
فكان اثني عشر ألف رأس وذلك غير ما أطلقه من أثمان الخيل المصابة في
القتال فلم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب أو موعود به *

ولم يؤخر صلاة عن وقتها ولا صلى الا في جماعة وكان اذا عزم على أمر
توكل على الله ولا يفضل يوماً على يوم وكان كثير سماع الحديث النبوي وقرأ
مختصراً في الفقه تصنيف سليم الرازي وكان حسن الخلق صبوراً على ما يكرهه
كثير التغافل عن أخطائه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتنير
عليه. وكان يوماً جالساً فرمى ببض المائيك بعضاً بسر موزة فأخطأته ووصات
الى السلطان ووفقت بالتقرب منه فالتفت الى الجهة الاخرى ليتغافل عنها .
وكان طاهر المجلس فلا يذكر أحد بمجاسه الا بنحير وطاهر اللسان فما ولع
بشتم قط . قال العماد الكاتب مات بموت السلطان الرجال . وفات بفواته
الافضال . وغاضت الايادي . وفاضت الاعادي . وانقطعت الارزاق .
وادلهمت الآفاق . ونجع الزمان بواحدته وسلطانه . ورزى الاسلام بشيـد أركانه .

﴿ ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان ﴾

ولما توفي السلطان الملك الناصر صلاح الدين استقر في الملك بدمشق
وبلادها المنسوبة اليها ولده الملك الافضل نور الدين على وبالديار المصرية

الملك العزيز عثمان وبجلب الملك الظاهر غياث الدين غازي وبالكرك والشوبك
 والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب وبجماة وسلمية
 والمعرة ومنبج وفلمة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر
 تقي الدين عمر وببعلبك الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه
 ابن شاهنشاه بن أيوب وبحمص والرحبة وتدمر شيركود بن محمد بن شيركوه
 ابن شاذي وبيد الملك خضر بن السلطان صلاح الدين بصرى وهو في
 خدمة أخيه الملك الافضل . وبيد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون منهم
 سابق الدين عثمان ابن الداية بيده شيزر وابوقيس وناصر الدين بن كورس
 ابن خماردين بيده صهيون وحصن برزية وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين
 ياورق بيده تل باشر وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون وعز الدين
 ابراهيم بن شعس الدين المقدم بيده بنراس وكذر طاب وفايمية*

والملك الافضل هو الاكبر من اولاد السلطان والمعهود اليه السلطنة
 واستوزر الملك الافضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الاثير مصنف المنل
 السائر وهو أخو عز الدين بن الاثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل فحسن
 للملك الافضل طرد أمراء أبيه فقارقود الى أخويه الزيز والظاهر قال
 اجتمعت اكابر الامراء بمصر وحسنوا للملك الزيز الانفراد بالسلطنة ووقعوا في
 أخيه الافضل فقال الى ذلك وحصات الوحشة بين الاخوين الافضل والزيز

تم بحمد الله وعونه والحمد لله رب العالمين والصلاة

والسلام على سيدنا محمد وآله

وصحبه اجمعين



تمّ طبع هذا الكتاب الجليل في آخريوم من شهر ربيع الثاني سنة
١٣١٧ في مطبعة المؤيد والآداب على نفقة وذمة (شركة طبع الكتب
العربية بمصر)

وقد قرّر مجلس ادارة الشركة أن تكون علامتها على طبع كل كتاب
تتجزه وضع طالبها الخاص في آخره وهو هذا :



